٣٥

دراسات في

تاريخ الرهبانية والديرية المصرية

مع دراسة مقارنة لرهبنة وادي النطرون حتى الفتح العربي

تأليف

الدكتور حكيم أمين

Ph. D. (Hons.)

دراسات في
تاريخ الرهبانية والديرية المصرية

مع دراسة مقارنة لرهبنة وادي النطرون حتى الفتح العربي

تأليف

الدكتور حكيم أمين

Ph. D. (Hons.)

تصدير

تاريخ الكنيسة القبطية في العصرين الروماني والبيزنطي جزء لا يتجزأ من تاريخ مصر القومي ؛ ذلك أن انتشار المسيحية في مصر اقترن بالاضطهاد الروماني ، حيث بدأ هذا الاضطهاد بإيجاد الأنظمة والقوانين التي جعلت القبط مسلوبي الحقوق ، مثقلين بالضرائب والالتزامات . وأصبحت مصر آنذاك ضيعة الرومان ، استغلوا أرضها الغنية ، واعتبروا القبط شعباً مقهوراً واقعاً تحت رحمتهم .

غير أن الحركة الفكرية التي حمل شعلتها علماء المدرسة اللاهوتية بالاسكندرية أواخر القرن الثاني الميلادي ، وما صاحب هذه الحركة من تصميم الكنيسة على التخلص من مظاهر العبادات الإغريقية وكل ما هو غربي ، كل هذا جعل المسيحية خطراً كاسحاً . وبعد أن كان الأباطرة ينظرون إلى مثل تلك الحركات المسيحية على أنها حركات محلية داخلية تكفي لإخمادها قوانين إمبراطورية عالية ، ووسائل القمع العادية ، إذ بهم يواجهون مشكلة خطيرة أساسها تصميم الشعب على التخلص من الاستعمار البغيض ومن أجل هذا كان الكفاح طويلا .

وفي خضم هذا الكفاح بدت قوة الأباطرة الغشوم كوسيلة من وسائل مقاومة المسيحية ، ولكن المسيحية كانت أكثر عمقاً ؛ فلم تكن نشراً لدين جديد بقدر ما كانت عملية بناء لقوى بشرية

جديدة فى قوالب التحرر الثقافى والسياسى والاجتماعى من كل آثار الاستعمار البغيض ، ولهذا لا نعجب أن جاءت النتائج بعكس ما اشتهى هؤلاء الأباطرة ، إذ توطد مركز المسيحية بعد عصر من الاستشهاد ، واتخذ الجهاد صورة روحية فريدة فى نوعها، كانت أكثر فاعلية من الجهاد المادى ، إذ انتقل المسيحيون إلى أماكن بعيـــدة عن أعين الرومان وطغيانهم ، تاركين الأرض خراباً بعد أن صمموا على أن يحرموا المستعمر من خيراتها ، وهناك فى الصحارى والقفار تكونت الجماعات الرهبانية والأديرة لتصبح مراكز هامة للإنتاج الاقتصادى والفكرى فضلا عن زعامتها لحركة المقاومة للاستعمار الرومانى .

وهكذا أخذت حركة الرهبانية القبطية على عاتقها يقظة الوعى القومى ، وبرز من صفوف الرهبـــان والديريين فى مصر زعماء آلوا على أنفسهم أن ينفخوا من روحهم فى إخوانهم ، ولما لا ؟ فهم من صميم أبناء البلاد ، وقد عرفوا أن حب الوطن من الإيمان ، فظلوا فى كفاح روحى ، صمموا على أن يحمل معه كفاحاً قومياً من أجل الحرية .

ثم كان فضل الرهبانية على المسيحية وعلى البلاد حين حفظت التراث القومى من أن تطمسه أيدى الرومان وأباطرتهم المؤلهين ، وصار هذا التراث منبعاً ارتوى منه الشرق والغرب فيما تلا هذا من عصور ، ووضح هـذا جلياً حين ذاع صيت رهبان مصر ، فتوافد عليها من العالم الشرقى والغربى أناس قاموا بنقل هـــذا التراث ، وتسجيـل مظاهر الحضارة ، ثم عادوا من حيث أتوا

ليقيموا نظماً جديدة على نحو ما رأوه فى مصر ، وصارت هذه النظم صوراً مضيئـــة فى وسط عالم أظلمته مشكلات العصور الوسطى .

فالرهبانية المصرية إذن لم تكن نسكا وعبادة فحسب ، بل كانت وسيلة هامة من وسائل حفظ التراث القومى حيث لعبت دورها الفعال فى تحصيل العلم ، والدرس والبحث ، كما خدمت العـــلوم والآداب خدمات جليلة مدة كبيرة من الزمن ، فضلا عن إسهامها إسهاماً فعالا فى نشر المسيحية حين أتيحت لها الظروف ، وذلك فى الميادين التى لعب فيها الاستعمار البيزنطى دوره بشكل بغيض .

ومن أجل هذا كله كان هـذا البحث الذى دار أولا حول « الجماعات الرهبانية فى وادى النطرون فى القرن الرابع الميلادى » بإشراف الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة رئيس قسم التاريخ ، وحصل به المؤلف على درجة الماجستير فى الآداب بتقدير جيد جداً من جامعة القاهرة فى يونيه سنة ١٩٥٥ ، ثم ظل هـــذا البحث حبيس مكتبته حتى تقابل المؤلف مع الأستاذ الدكتور مراد كامل الأستاذ بكلية الآداب منذ نحو عام فأشار على المؤلف أن يصل بهـذا البحث حتى الفتح العربى ، حتى يمكن للقارىء أن يتتبع هذه الحركة فى مصر حتى نهاية حكم البيزنطيين وبداية الفتح العربى ، فكتب المؤلف الفصل السادس .

وحتى يقف القارىء على صورة كاملة لتاريخ الرهبانية والديرية فى مصر ، أضيفت عدة صفحات إلى الفصل الأول ، بعدها أعيد ربط الموضوع كله مع إضافة أربعة وعشرين لوحة أثرية للأديرة ،

ليصبح الكتاب فى هذه الصورة المتكاملة أمام القارىء والباحث .
وفى هذا كله وقف المؤلف من الحوادث والحقائق التاريخية موقف
القاضى الذى يقيم حكمه على أسس من وثائق التاريخ وقوانينه ،
دون أن يكون للعاطفة أثرها فى مثل هذه الأحكام .

ولا يسعنى إلا أن أذكر بالفضل والشكر أستاذى الجليل
الدكتور محمد مصطفى زيادة لتشجيعه المتواصل وروحه الأبوية ،
كما أسدى شكرى إلى السادة أمناء مكتبات المتحف القبطى ،
والمعهد الفرنسى بالقاهرة ودير الدومنيكان ، وديرى السوريان
وبيشوى لما قدموه إلى من معاونة فى الاطلاع على مختلف
المراجع المخطوطة والمطبوعة لديهم . وهناك شكر مضاعف للفنان
المصور الأستاذ سليم يوسف الذى بذل جهداً مشكوراً فى هذه
اللوحات التى التقطتها عدسته بنظرته الفنية العميقة ، فى الأديرة
وبين الرهبان .

وبعد فهذه صفحة من تاريخنا القومى فى العصر البيزنطى تعبر
عن كفاح شعب عريق ، أقدمها صورة من عظمة ماضينا ، ومشعلا
يضىء مستقبلنا ، فى عهد قائدنا وزعيمنا الرئيس جمال عبد الناصر .

القاهرة فى نوفمبر سنة ١٩٦٣
بابه سنة ١٦٨٠

حكيم أمين

الفصــــل الأول

بداية الرهبانية والديرية فى مصر

إقرأ فى هذا الفصل

— تعريف الرهبانية والديرية — أصول الرهبانية والديرية فى مصر — عوامل ساعدت على إنتشار الرهبانية - المؤثرات النسكية فى الرهبانية المصرية — الأنبا بولا والأنبا انطونيوس — قيام الديرية الباخومية فى مصر — شنوده الأخميمى وتطور الديرية — رهبنة النساء .

تعريف الرهبانية والديرية :

المقصود بالرهبانية طريقة المعيشة المنعزلة عن النـــاس ، فى خلوة فردية تامة بقصد العبادة ؛ غير أن هذه الـكلمة « رهبـانية » أصبحت تستعمل كذلك للتدليل على الحياة الديرية القائمة على أسس اجتماعية .

ولم تـكن المسيحية هى الديانة الوحيـدة التى انفردت بالدعوة إلى المبادىء النسـكية [١] ، فنى الديانات السابقة للمسيحية جماعات وطوائف كرست نفسها لحياة انعزالية أو نسكيـة ، على درجات متفـــاوتة من القسوة البدنية ؛ ولـكل ذلك شواهد فى كـتابات الصين القديمة والهند وشعوب آسيا الغربية وكذلك فى الأدب المصرى القديم [٢] .

أصول الرهبانيـــة والديرية فى مصر :

وللمؤرخين مذاهب مختلفة فى البحث عن أصول الرهبانية المسيحية، فمن قائل أن أصل الرهبانية المسيحية فى البوذية الهندية [٣] ، أو على الأقل

فى رسالته الأولى اليهم بقوله « لأنى أريد أن يكون جميع الناس كما أنا ، (أى أعزب) لكن لكل واحد موهبته الخاصة من الله ، الواحد هكذا والآخر هكذا ، ولكن أقول لغير المتزوجين وللأرامل أنه حسن لهم إذا لبثوا كما أنا .... إذن من زوج فحسناً يفعل ومن لا يزوج يفعل أحسن [11] » .

وهكذا يبدو واضحاً أن التعاليم التى نادت بها المسيحية مضافاً اليها قصص النساك الاولين أمثال إيليا ثم حياة يوحنا المعمدان ، هى التى ظهرت فى شكل الرهبانية الأولى فى المسيحية فى مصر .

عوامل ساعدت على انتشار الرهبنة :

وإن نظرة عابرة إلى حالة مصر السياسية منذ أوائل القرن الثالث الميلادى تكفى لادراك ما عانته المسيحية من دائب اضطهاد الأباطرة الرومانيين لها . وكان هذا الاضطهاد الدائب عاملا من عوامل انتشار الرهبانية ، ففى سنة ٢١٥ م أمر الامبراطور كراكلا باعدام عدد كبير من أهالى الاسكندرية بسبب مسيحيتهم ، وتكررت هذه التجربة الوحشية فى عهود الأباطرة ديسيوس (٢٤٩-٢٥١م) وجالوس (٢٥١ - ٢٥٤ م) ، وفاليريانوس (٢٥٣ - ٢٦٠ م) ، وجالينوس (٢٦٠ - ٢٦٨ م) .

على أن أشهر نوبات الاضطهاد هو ما حدث فى عهود الأباطرة دقلديانوس الذى حكم من سنة ٢٨٤م إلى سنة ٣٠٥ م ، وجالريوس الذى حكم من سنة ٣٠٥ - ٣١١ م ، ومكسيميانوس الذى حكم من سنة ٣٠٥ - ٣١٣ م ؛ ففى سنة ٢٩٧ م حضر دقلديانوس بنفسه إلى مصر لاخماد حركة العصيان التى قام بها لوكيوس دومتيوس دومتيانوس

Lucius Domitius Domitianus القائد الرومانى ، وهو المعروف أيضا بأسم أخليوس ، وانتهت هذه الحركة بمـا قام به دقلديانوس من عمل فظيع ، إذ خرب جزءاً كبيراً من الاسكـندرية [١٢] .

ومع أن هذا العمل الفظيع أعاد الهدوء مؤقتـاً إلى الاسكـندرية ، ومع أن دقلديانوس سعى إلى شراء ذمم بعض الوثنيين فى مصر بما وزعه من القمح والعطايا كما دفعهم إلى إقامة العمود المعروف بعمود السوارى [١٣] ، فإن انتشـار المسيحية فى مصر انتشاراً كبيراً دفع هذا الامبراطور فى أواخر أيامه إلى اضطهاد المسيحية وغيرها من الديانات الخارجة على الديانة الامبراطورية . وصار أوج هـذا الاضطهاد سنة ٣٠٣ م حين أصدر منشوره المعروف الذى أمر فيـه عمـلاءه بإبادة الكـنائس ، وحرق الكـتب المسيحية ، كما قرر فيـــه أيضاً حرمان المسيحيين من حقوقهم المدنية واستباحة دمائهم [١٤] .

ولم يكن منشأ ذلك كراهيته للمسيحية فحسب ، بل إمعانا فى أن يكون إخلاص الناس بقلوبهم وأجسامهم للامبراطور والامبراطورية دون غـيرهما من القوى ، وهو ما يعارض المبادىء المسيحية تمـــام المعارضة . ولذا اجتهد المسيحيون الذين اختاروا البقاء على دينهم أن يختفوا بعيداً عن عنف القوانين الرومانية الجديدة . وكانت الصحراوات المصرية الفسيحة خير مكان لهؤلاء المسيحيين .

ثم انتهت محنة الاضطهاد الرومانى القديم عندما أصدر الامبراطور قسطنطين الكـبير مرسوم التسامح الدينى من ميلان سنة ٣١٣ م ، وهو يشق طريقه إلى العرش الامبراطورى ليجـــذب إلى جانبه العناصر المسيحية [١٥] ، وبهذا المرسوم أصبحت الديانة المسيحية لأول مرة فى تاريخها ديانة مسموحاً بها إلى جانب الديانات الاخرى ، ولم يعـــد

المسيحيون بحاجة إلى الاختفاء والعزلة فى الصحراء .

غير أن عوامل أخرى دفعت بكثير من المسيحيين إلى البقاء فى عزلتهم ، بعض هـذه العوامل دينى وبعضها اقتصادى ، ولا شك أن العوامل الدينية وما فيها من إخلاص للخالق والرغبة فى إماتة الشهوات الجسدانية وتغليب النواحى الروحية صار لها أثرها الكبير فى بقائهم ، هذا فضلا عما تمتع به المسيحيون فى الصحراء من الأمن الجسدى والروحى الذى فقدوه فى داخل البلاد بسبب الاضطرابات الناشئة عن إغارات قوات البالميريين والبليميز فى عهد الامبراطور كلوديوس الثانى ، الذى حكم بين سنتى ٢٦٨ - ٢٧٠ م [١٦] . ثم أن سوء الحالة الاقتصادية فى مصر منذ أوائل القرن الرابع الميلادى ساعد على ازدياد إنتشار الرهبنة، فلم تكن هناك قوانين فى القرى أو فى المدن ، وأصبحت الضرائب عبئاً ثقيلا/[١٧] ، زاده ثقلا قسوة جامعيها الذين كانوا يختارون من وجهاء المدن ، أو المناطق الأخرى بالامبراطورية وهؤلاء عرفوا باسم Curiales ، حتى أن عـدداً كبيراً من صغار المزارعين تنازلوا عن أرضهم لكبار الملاك من الأجانب ، وفضلوا ترك بيوتهم وأراضيهم وأولادهم ليحيوا حياة اللصوص ، أو ليتركوا العالم بما فيه إلى حياة رهبانية توفر لهم الأمن ، رغم ما فيها من عيش على الكفاف [١٩] .

واستمرت هذه الحال مدة طويلة حتى أيام النزاع بين الاثناسيوسيين والاريوسيين ، وما تبع هذا النزاع من اضطراب وتعكير صفو السلام الكنسى ، مما جعل الكثيرين من المسيحيين يعتقدون بقرب انتهاء العالم ، كما جعلهم يهرعون آلافا إلى الصحارى ، تاركين وراءهم أولئك الذين لم يحفلوا بالاختلافات المذهبية أو الحرية الشخصية أو أولئـك الذين قرروا الاعتماد على أنفسهم فى الدفاع عن مبادئهم [٢٠] .

وإذ أدت مجموعة العوامل السابقة إلى قيام حركة الرهبانية وانتشارها حتى تطورت إلى حركة ديرية ، فإن ما أضيف إلى هذه العوامل فيما بعد ساعد على انتعاشها ؛ ومثال ذلك أن قانونا أصدره قسطنطين الكبير ، أعفى الأعزب ومن لا أولاد له من الضرائب ، كما أعفى الرهبان من الخدمة العسكرية [٢١] ، فاغرى هذا وذاك الكثيرين إلى الامتناع عن الزواج والذهاب إلى الأديرة حيث أمكنهم أن يجدوا الحياة السالمة الهادئة البعيدة عن الأزمة الاقتصادية الطاحنة فى ظل حياة روحية سامية .

ومع أن الرهبانية حملت فى طياتها معنى إنكار الذات ، فهى كذلك صرخة خافية من أجل بناء جديد للعقيدة الأرثوذكسية ، بدأت بعيداً عن الكنيسة نفسها وأساقفتها ووظائفها الكنسية ، [٢٢] ، غير أن كثيراً من زعماء الرهبانية والديرية ما لبثوا أن خرجوا من عزلتهم واشتركوا مع أساقفة الكنيسة الارثوذكسية ضد أصحاب المذاهب الهرطقية وقتذاك .

والخلاصة أنه مهما تعددت الأسباب التى أدت إلى قيام الحركة الرهبانية فى مصر ، مما لا شك فيه أنها قامت طبقاً للتعاليم والمبادىء التى نادى بها السيد المسيح والرسل الحواريون ، وفسرها راغبو الرهبنة على أشكالها المختلفة التى ظهرت بها على مدى العصور ، وإذا كانت هذه التعاليم وما خلقته من دوافع دينية ، هى التى أدت بهؤلاء الناس إلى هجرة المدينة ، ليجدوا فى حياة العزلة فرصة للحياة الدينية [٢٣] ، فمن الثابت أن قيام الرهبانية ، ثم انتشارها على هذا النحو ، لم يكن نتيجة تلك الدوافع الدينية فحسب بل تدخلت فى ذلك دوافع أخرى تتعلق بالاحداث السياسية فى مصر منذ القرن الثالث الميلادى [٢٤] ، وهذه الأحداث

هى التى أسهمت كثيراً فى انتشار الرهبانية .

المؤثرات النسكية فى الرهبنة المصرية :

على أننا لا نستطيع أن ننكر أن مؤثرات نسكية مختلفة برزت كصور واضحة للفلسفات الدينية المختلفة من وجهة النظر الصوفية ، ولا شك أن هذه الصور خلقت استعدادات نفسية أو ميولا نحو الحياة النسكية بين معتنق الديانة الجديدة وهى الديانة المسيحية ؛ فى تاريخ الديانة المصرية القديمة ما يشير إلى الميول النسكية فى وضوح ، مثال ذلك ما يفتتح به الفصل الرابع والستون من كتاب الموتى ونصه « هذا الفصل سيقرأه رجل نظيف طاهر ، لم يأكل لحم الحيوان أو السمك ، ولم يخالط النساء » وفى الفصل السابع والثلاثين بعد المائة ما يشبه هذا النص . وفى طقوس إيزيس وأوزوريس جرى الكهنة على أن ينذروا لآلهتهم أصواماً مختلفة ، كما امتنعوا عن شرب الخمر وأكل لحوم الحيوان والسمك [٢٥] . وفى أمثال بتاح حتب ما يشبه أمثال سليمان الحكيم . على أنه ليس معنى هذا كله أن الرهبنة تأثرت بمثل هذه الاتجاهات أو الميول النسكية فى صورة جعلتها تقليداً لها ، ولكن لعل الصحيح أن مثل هذه الميول عند معتنق الديانة المسيحية بالاضافة إلى العوامل السابق ذكرها جعلت قيام الرهبنة أمراً سهلا باعتبارها أحد المظاهر النسكية للديانة المسيحية [٢٦] .

ثم تضاف إلى هذه الصور المصرية القديمة صورة أخرى هى صورة المتصوفين أو المنعزلين فى معابد سيرابيس فى العصر البطلمى . وخلاصة حياة هؤلاء المتصوفين هى تكريس حياتهم لخدمة سيرابيس [٢٧] ، فعاشوا فى داخل المعابد حيث قاموا بدور الواسطة بين الإله سيرابيس وبين الناس الذين جاءوا اليه لتفسير الاحلام وطلب الشفاء [٢٨] ، كما اشتركوا

فى جنازة العجل أبيس ، وقدم لهم أهل القرى المحيطة ما قوم أودهم [٢٩] .

ومن الشواهد الدالة على العلاقة بين الحياة النسكية المسيحية وأنواع النسك المصرى القديم حتى القرن الاول الميلادى ، جماعات المتصوفة العرافين الذين عاشوا على ضفاف النيل فى صعيد مصر ، وهم المعروفون باسم Gymnosophists [٣٠] ، وجماعة كهنة هليوبوليس الذين عاشوا على الكفاف ، وحاولوا أن يرتفعوا بعواطفهم إلى أعلى مراتب التدين [٣١] .

والخلاصة أن الحياة النسكية فى مصر القديمة أثرت فى الرهبانية المسيحية من غير أن تكون أصلا من أصولها ، لان أكثر النساك الاقدميين لم يفضلوا حياة البتولية ، كما أن الحماس الدينى لم يتوفر لديهم بالقدر الذى توفر للرهبان المسيحيين الاوائل . وثمة ناحية أخرى فى حياة اللاجئين فى معبد سيرابيس أنهم لم يعتزلوا الحياة المدنية ، ولم يضحوا بممتلكاتهم ، ولم يرتبطوا بقسم طيلة حياتهم كما فعل الرهبان المسيحيون بل على العكس طالبوا أن تكون ممتلكاتهم حقاً طبيعياً لهم [٣٢] ، كما اختلطوا بالناس بحكم وظيفتهم فى المعبد [٣٣] .

على أن ما ذهب اليه بعض المؤرخين من القول بأن بعض جماعات النساك اليهود فى مصر أثرت فى الرهبنة المصرية فأمر لا يقوم دليل على تأييده . ذلك أن فيلو Philo الفيلسوف اليهودى تحدث عن جماعة الثرابيوتاى Therapeutae اليهودية [٣٤] ، التى عاشت حول سواحل بحيرة مريوط ، فذكر أن حركتهم قامت على أساس تنقية الروح من شوائبها بالعيش خارج المدن فى منازل منعزلة مجردة من الكماليات . وذكر فيلو كذلك أن من نظم هذه الجماعة أن يبدأ أفرادها بالصلاة منذ الفجر ، ثم يقضون سحابة يومهم فى التأمل فى التوراة ويختتمون يومهم بصلاة المساء الختامية .

واشترك مع هؤلاء عـذارى طاعنات فى السن اطلق عليهن Therapeutrides (٣٥). ومن النظم المرعية بين أولئك النساك اليهود الصيام ثم الاجتماع أيام السبوت للعبادة الجامعة فى معبد وسط أكواخهم . واعتادت هذه الجماعة أن تحتفل بيوم الفصح بالجلوس على الارض الخشنة إمعاناً فى النسك ، ثم تناول طعام من الخبز والملح والزوفاء ثم يقوم أفرادها بعد ذلك بترنيمات يتلوها رقص دينى (٣٦) .

وإذا كان ثمة شبه بين حياة هذه الجماعة وبين الحياة الديرية المسيحية فإنه من العسير أن نقطع بصلتها بالرهبانية أو الديرية المسيحية ، بدليل أن الديرية لم تظهر فى مصر إلا بعد أن سادت الرهبانية فى أنحائها نحو نصف قرن من الزمان ، وبدليل أن الديرية المسيحية ظهرت فى الوجه القبلى أولا لا الوجه البحرى على مقربة من بحيرة مريوط ، وثمة دليل آخر وهو قلة عدد اليهود فى مصر فى القرون الميلادية الاربعة الاولى، كما أن المؤرخ يوسيبيوس لم ير أحداً من هذه الجماعة ، حين زار مصر أوائل القرن الرابع الميلادى (٣٧) .

وهناك من يعتقد بأن الفلسفة الافلاطونية الحديثة أثرت فى الرهبانية المسيحية ،وذلك بعد أن إندمجت بعض مبادئها فى الديانة المسيحية على يد أمونيوس سقاس ، الاغريق الاصل والمسيحى الوالدين ، وذلك أن الافلاطونية الحديثة دعت إلى التحرر من عبودية الجسد بالنسك والتقشف واختلفت عما سبقتها من فلسفات بتأكيدها الجانب التأملى فى الحياة . وذهب أتباعها إلى أن الروح إذا تطهرت من النوازع الدنيوية ، فأنها تستطيع أن تصل إلى درجة التأمل فى الله ، ولن تستطيع الروح أن تتحرر من الملذات المادية إلا عن طريق الاعتزال والنسك ، وهو ما امتازت به الرهبانية المسيحية (٣٨) .

غير أنه ليس من المعقول أن تنشأ الرهبانية المسيحية فى الأفلاطونية الحديثة فحسب ، لأن زعماء الرهبانية فى مصر جاءوا من طبقة الفلاحين الذين جهلوا اللغة اليونانية [٣٩] ؛ ولم تكن الظروف السياسية مواتية حتى ينتقلوا إلى المدن قبل أن يصبحوا رهباناً . ولكن سرعان ماظهرت المؤثرات الاغريقية بين المصريين عندما بدأت الديانة المصرية تنقرض تدريجياً فى القرنين الثانى والثالث الميلاديين . وفى ذلك يقول إرمان Erman « فى القرون التى أعقبت ميلاد المسيح كانت أفكار الاغريق تسود على الأفكار المصرية الصميمة وأصبحت دياناتهم نهائياً خليطاً كاملا من العناصر الاغريقية والمصرية [٤٠] » . ومن مظاهر هذا التغيير أن التحنيط أخذ يقل فعلا بعد ظهور المسيحية حتى تلاشى نهائياً فى القرن الخامس الميلادى ، وحل محله الاعتقاد بأن فى حياة النسك استعداداً للحياة الثانية ، وأنه ليس ثمة أهمية لبقاء الجسد سليما لامكان عودة الروح اليه كما كان الاعتقاد قديما .

أما المؤثرات المسيحية الأخرى التى أثرت فى نشأة الحركة الرهبانية فى مصر فهى التعاليم التى نادى بها أقطاب مدرسة الاسكندرية اللاهوتية ، أمثال أوريجانوس بن ليونيدس الذى ولد حوالى سنة ١٨٥ م من والدين مصريين مسيحيين وتعلم علوم عصره فى المدرسة (الاكليريكية) بالاسكندرية ، متتلمذاً على يدى اكليمندس وغيره من معلمى ذلك العصر ، وعكف على قراءة الكتاب المقدس والتأمل فى آياته ، ثم سهم بسهمه فى التعليم فنتح مدرسة قام بالتدريس فيها لقاء أجر زهيد ، هذا إلى جانب قيامه بالتأليف وتفسير أسفار الكتاب المقدس [٤١] ، ومقابلة نسخه وترجماته بعضها على بعض [٤٢] . وبلغت شهرة اوريجانوس أسماع البطريرك ديمتريوس الكرام ، فوجد فيه الشخصية التى تستطيع إدارة دفة هذه المدرسة بعد تعطيلها بسبب هروب اكليمندس مديرها

السابق أثناء الاضطهاد الرومانى (٤٣) .

وعكف أوريجانوس منذ شبابه على النسك والعيشة الصارمة فوصفه يوزيبيوس بأنه « خلال اليوم كله تحمل جزءاً غير قليل من النظام ، فخصص لنفسه جزءاً كبيراً من الليل لقراءة الكتب المقدسة . وعود نفسه بطريق فلسفى على التذلل بالصوم حيناً وبالنوم لوقت محـــدود حينـاً آخر (٤٤) » .

ومن تعاليم أوريجانوس النسكية أنه دعا إلى عدم امتـلاك البيوت أو العقار ، وشجع المسيحيين على ممارسة حياة التأمل والعزلة عن العـالم . وأنتشرت تعاليمه فى كل مكان ، حتى فى قلالى وادى النطرون فيما بعد ، وتناول بعض الرهبان كتبه بالتفسير والتأمل (٤٥) . غير أن الكـنيسة عادت فانقلبت عـلى أوريجانوس ، فاصدرت قرارهـا بحرمانه وتحريم قراءة كتبه ، وذلك لأنه طبق تعاليم الكتاب المقدس حرفيـاً فخصى نفسه ، إلا أن هذا القرار لم يكن نهاية نشاط أوريجانوس إذ استأنفه خارج مصر (٤٦) ، كما أنه لم يحد من تأثير تعاليمه وآرائه عــلى طائفة كبيرة من الراغبين فى الزهد .

ويتضح مما سبق أن نظـام النسك المسيحى ظهر فى مصر المسيحية خلال القرون الأولى من انتشارها ، فى أماكن ليست آهلة بالسكان ، وفى بعض المعابد المصرية القديمة التى هجرها الناس بعـد اعتناقهم الديانة المسيحية ، وفى أكواخ أبتنوهـا لأنفسهم بجوار النيل . وما لبث حيـاة النسك المسيحية أن تطورت إلى حيـاة الرهبانية ، فانفصل الناسك بعيداً عن الأماكن التى عاش فيها الناس ، وانتبذ لنفسه مـكاناً قصياً داخـل الصحراء ليحيـا حياة رهبانية فى بيئة جديدة ، من شروطها وجود المـاء والنخيل

ومساحة مستوية من الأرض الصالحة للزراعـــة .

قيـــام الرهبـانية فى مصر :

والمعروف أن القـديس أنطونيوس (٢٥١ — ٣٥٦ م) هو المنشىء الحقيق للنظـام الرهبانى ، وأن ما سبقه اقتصر عـلى مقدمات لم تـكن تخضع لنظم أو ترتيبات واحدة ؛ على أن هذه المقدمات مهدت للنظام الرهبانى . ومن هذه المقدمات خروج أحد أغنيـاء الاسكـندرية وإسمه فرونتنيوس .* إلى صحراء لمرون حوالى سنة ١٥٠ م . وكان فرونتينوس هـــذا ذا تاريخ حافل بالفضيلة ؛ إذ خرج وبصحبته جماعة عددها نحو السبعين ، قادهم إلى صحراء النطرون حيـث أسس أول ما عرف بالقـــلالى المسيحية [٤٧] . ثم أن هذه الجماعة تذمرت على قائدها ، لنقص الغذاء ، وقلة المؤن التى تعود أحد أغنياء الاسكندرية أن يبعث بها اليهم ، فتفرقت واندثرت معالمها بموته .

على أن دخول هذه الجماعة فى الرهبانية التى دعاهم اليهـــا فرونتنيوس نشأ كذلك من عدم اطمئنان أفرادها إلى الأوضـاع

---

* ذكر فى الـ Acta Sanctorum تحت تاريخ ١٤ ابريل أن خروجه كان فى عهد الامبراطور أنطونينس . واختلف المؤرخون فى تحديد تاريخ تلك الجـماعة إذ هناك من الأباطرة من يحمل هذا الأسم ثلاثة وهم Antoninus Pius سنة ١٥٠ م ، Marcus Aurelius Antoninus سنة ١٧٢ م ، Commodus Antoninus سنة ١٩٢ م ، والراجح أن تلك الحـادثة كانت فى عهـد الاول لإجماع المراجع عـلى وفاة فرونتنيوس سنة ١٧٢ م .

السياسية فى مصر . حين عكف الاباطرة على اضطهاد المسيحيين. بل حرموهم حقوقهم المدنية ؛ ثم جاءت الحالة الاقتصادية فى مصر ضغثاً على إباله . ويمكن القول أن خروج هذه الجماعة لم يكن حادثاً فريداً ،وربما قام غيرها دون أن تسجلها الاخبار المعاصرة أو المتأخرة ، وسبب ذلك ، أن أساس الرهبانية الاولى إنكار الذات الذى نصت عليه التعاليم المسيحية . كما أن الرهبان كثيراً ما خشوا على أنفسهم من إضطهاد الرومان إذا هم أعلنوا عن أنفسهم .

ومما لا شك فيه أن قيام فرونتنيوس وأتباعه بالزراعة فى تلك البقعة الصحراوية [٤٨] ، بعيداً عن ضجيج المدن وعسف الولاة الرومان واضطهادهم جعل لوادى النطرون أهمية مستقلة إذ هرع اليه الراغبون فى الحياة الرهبانية الآمنة حيث هناك ضمان للقوت عن طريق الزراعة . على أنه من ناحية أخرى كان لموت فرونتنيوس أثر واضح فى نمو مجموعة الرهبان فى وادى النطرون، وأغلب الظن أن كثيراً من الرهبان رجع إلى المدن والحياة المدنية لسبب أو لاكثر . ولكن هذا لا يمنع بقاء بعض الرهبان من التابعين له فى تلك البقعة ، برغم أن التاريخ لم يدون عنهم شيئاً .

على أن الصحراء الغربية لم تكن هى الموطن الوحيد الذى هرع اليه راغبو الرهبانية . إذ روى ديونيسيوس بطريرك الاسكندرية (سنة ٢٤٦ — ٢٦٤ م) أن القرن الثالث الميلادى شهد أعداداً كثيرة من المسيحيين تهرب من الاضطهاد الرومانى . ومن هؤلاء أسقف مليبج الذى هرب إلى الصحراء

الشرقية ومعه إمرأة ، ولم يعرف لهما خبر بعد ذلك . ويضيف البطريرك ديونيسيوس إلى ذلك أن بعض الهاربين إلى الصحراء الشرقية فضلوا البقاء فيها على الرغم من إنتهاء الاضطهادات [٤٩] .

وكان الانبا بولا الطيبي واحداً من هؤلاء الذين هربوا إبان إحدى موجات الاضطهاد على الكنيسة على عهد الامبراطور ديسيوس سنة ٢٥٠ م [٥٠] . ومن قصة الانبا بولا يتضح أنه ولد فى طيبه من والدين غنيين ماتا عندما بلغ السادسة عشر ويقال أن حب الله ملك عليه قلبه وعقله . وأنه بعد أن دفن أباه عاد مع أخيه إلى بيتها ليقتسما ميراثها . فاظهر أخوه طمعاً فى تركة أبيه ، واقترح الاحتكام إلى حاكم المدينة . غير أنه أثناء المناقشات هدده زوج أخته [٥١] بابلاغ المسئولين عن اعتناقه المسيحية ، ففضل بولا الانصراف إلى العبادة . والبعد عن مشكلات العالم فهرب من طيبه إلى طافوس غربى المدينة . وظل بهذا المكان ثلاثة أيام قضاها مصلياً ، حتى إذا جاء اليوم الرابع غادره إلى داخل الصحراء الشرقية [٥٢] . واستقر به المقام أخيراً فى إحدى كهوف الجبال المطلة على البحر الاحمر ـ وهو المكان الذى يوجد به دير الانبا بولا الحالى ـ وذلك بسبب ما وجد على مقربة من ذلك الكهف من أسباب الحياة ، وهى نبع ماء رائق وبضعة نخيل . كان من بينها نخلة واحدة مثمرة . فاعتمد بولا على ثمر النخلة فى غذائه [٥٣] . كما صنع لنفسه ثوباً من ليف النخلة . ومكث الانبا بولا عابداً ناسكا حتى بلغ الثالثة عشر بعد المائة ـ على قول الرواية ـ ولولا أن عثر عليه مصادفة القديس أنطونيوس الذى بلغ حوالى التسعين من العمر وقتذاك لظل أمر الأنبا بولا مجهولا [٥٤] .

غير أن البعض يذهب إلى أن القديس أنطونيوس كان فى سن الشباب عندما حدثت تلك المقابلة * . والواقع أن أنطونيوس سبق أن قطع مرحلة كبيرة فى الرهبانية قبل هذه المقابلة . إذ أن تلاميذه سألوه عند عودته عن سبب غيابه (٥٥) . وعلى هذا الأساس يمكن تحديد تاريخ الزيارة على وجه التقريب سنة ٣٤٧م، وهى نفس السنة التى توفى فيها الأنبا بولا (٥٦) .

والقيمة التاريخية لهذه الأمثلة هو ما تلقيه من الضوء الكثير على تاريخ الرهبانية فى مصر إبتداء من أواخر القرن الثانى الميلادى . إذ يقال أنه فى عهد الأنبا أثناسيوس بطريرك الإسكندرية العشرين فى عداد البطاركة (٣٢٨ — ٣٧٣ م) أى أواخر القرن الرابع الميلادى . حدثت مشاحنة بين رهبان ديار مصر واليونانيين حول هذه الطلائع الرهبانية لمعرفة أصحاب الأولوية فيها — غير أنه يتضح مما سبق أن اسم الرهبانية لم

---

* يستندون على راى بلاديوس من أن حياة الأنبا بولا انتهت فى عهد ديسيوس أوفاليريان أى بين سنتى ٢٤٩، ٢٧٠ م فتكون ولادة الأنبا بولا حوالى سنة ١٥٠ م وبداية حياته النسكية قبل نهاية القرن الثانى الميلادى ووفاته حوالى سنة ٢٦٣ م ، فى وقت أن كان انطونيوس الذى ولد حوالى سنة ٢٥١ م فى الثانية عشرة ولا زال فى رعاية والديه وهذا ينفى حدوث الزيارة وقتذاك . ويزيد هذا وضوحاً أن الأنبا بولا ذكر للقديس انطونيوس أثناء المقابلة أن هروبه كان فى عهد الامبراطور ديسيوس وكان عمره آنذاك حوالى ١٦ سنة وبذلك تكون ولادته حوالى سنة ٢٣٤م . انظر
Palladius : The Paradise VI intr. P. XI.

يسبق أن ظهر حتى وقت أنطونيوس ، بل أطلق المعاصرون على الواحد من أصحاب الحياة الإنعزالية « الناسك المنعزل فى قلايته » (٥٧) . وهذا يؤيد ما سبق الاشارة اليه من أن الحياة النسكية المسيحية سبقت النظام الرهبانى المعروف بقوانينه الواضحة .

وخلاصة القول أن خروج الأنبا بولا إلى الصحراء الشرقية كان مبعثه موجة الاضطهاد التى إجتاحت مصر فى عهده ، وهكذا فضل الأنبا بولا أن يحيا حياة نسكية مسيحية بعيداً عن مشكلات العالم واضطراباته ، والراجح أنه لو كان خروج القديس بولا لتأسيس نظام رهبانى لسلك مسلك القديس أنطونيوس فى الإقامة على مقربة من مدينة من المدن ليجتذب اليه التابعين (٥٨) ، إذ المعروف أن الأنبا بولا هرب فجأة إلى جوف الصحراء وبقيت قصته مدة طويلة فى طى الكتمان دون أن يدونها أحد ، حتى أن أثناسيوس بطريرك الاسكندرية العشرين لم يذكر فى سيرة القديس أنطونيوس التى كتبها شيئاً عن الأنبا بولا .

ومن النساك الذين سلكوا طريق النسك المسيحى الأول القديس أنطونيوس ، وهو الذى يعتبر المؤسس الحقيقى للنظام الرهبانى فى مصر ، نظراً لما استحدثه من النظم والترتيبات لراغبى الحياة الرهبانية . وتتفق معظم الروايات على أنه ولد فى بلدة « كوما » وهى قمن العروس الحالية مركز الواسطى حوالى سنة ٢٥١ م من والدين غنيين ، ولم يكن أمياً كما تصوره البعض لكنه أتقن لغته . وما كاد يبلغ الثامنة عشر حتى حرم رعاية

أبويه اللذين توفيا فى سنة واحدة بعد أن تركا له ثروة طائلة وأخت صغيرة (٥٩) . ولعل من دوافع إتجاهه إلى الحياة الرهبانية ، ما عرف عن حياته البسيطة التى عاشها فى ظل التعاليم الكنسية ، وما كان بمصر وقتذاك من الأفكار النسكية ، وكثرة النساك فى الأكواخ المتفرقة على ضفاف النهر .

وحدث أن ذهب أنطونيوس إلى الكنيسة فسمع الكاهن يتلو فصل الإنجيل ، فاجتذبته الآية القائلة « إن أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع كل مالك واعط الفقراء وتعال إتبعنى فيكون لك كنز فى السماء (٦٠) » . وتقول سيرته أنه إعتبر كأن هذه الفقرة قرئت له هو بالذات ، لانطباقها على حاله بعد وفاة والديه ، ولم يبق له فى الدنيا سوى أخته ، فللحال خرج من الكنيسة ووزع أرضه الواسعة المساحة على فقراء قريته ، محتفظاً لنفسه بقليل من المال لمصلحة أخته . غير أنه دخل الكنيسة مرة أخرى وسمع الكاهن يتلو مما فى الإنجيل « لا تهتموا للغد » (٦١) فخرج من الكنيسة عاقداً العزم على أن يسلك مسلكا جديداً فى حياته ، فأرسل أخته إلى بيت للعذارى (٦٢) ؛ ثم خرج من القرية حوالى ٢٧٠ م إلى مكان قريب من قريته حيث أقام فى كوخ صغير إلى جوار شاطىء النيل ، يدرب نفسه على حياة النسك كما فعل النساك المسيحيون السابقون .

ولما كان أنطونيوس شاباً حديث العهد بحياة النسك ، فإنه دأب على الإتصال بالشيوخ النساك المجاورين له (٦٣) ، ورأى

أنطونيوس أن فى إقامته فى ذلك المكان خطراً على حياته الروحية، بسبب رؤيته لبعض النساء اللائى كن ينزلن إلى النهر للاستحمام [٦٤]، فارتحل إلى المقابر القريبة من القرية، ولكنه لم يطل الإقامة بها إذ هداه تفكيره إلى عبور النهر إلى المناطق الجبلية حيث أقام فى حصن مهجور فى منطقة بسبير Pispir على الضفة الشرقية للنيل، واتفق أخيراً مع بعض الذين اجتمعوا حوله من المعجبين بطريقة حياته، والذين انتشروا فى مناطق متفرقة، على أن يحضروا له الخبز الجاف ثلاث مرات فى السنة دون أن يحاولوا الإتصال به أو الإقامة عنده [٦٥].

ومن ثم بدأت مرحلة إنتشار الصوامع فى الجبال، إذ اجتذبت قدسية الأنبا أنطونيوس وشهرته كثيراً من الراغبين فى التتلمذ على يديه، فدأب على الخروج اليهم بعد أن إطمأن إلى أغراضهم، وكان يعظهم ويعلمهم طريق الرهبانية، ثم يتركهم ليعود كل منهم إلى صومعته، فيعكف على تدريب نفسه على حياة النسك والرهبنة وذلك بتطبيق تعاليم رائدهم القديس أنطونيوس [٦٦].

ومن الأمور الهامة فى حياة القديس أنطونيوس والتى تجعل للرهبانية أهمية خاصة فى تاريخ الكنيسة، باعتبارها فلسفة الديانة المسيحية، أن القديس أنطونيوس حرص وقتذاك ألا يقطع صلته بالكنيسة، فعندما حل بالمسيحية الاضطهاد فى عهد مكسيميانوس بين سنتى (٣٠٣ - ٣١١ م) إرتحل القديس أنطونيوس إلى الاسكندرية لكى يشجع المستشهدين فى الميادين

والمسجونين فى سجون الاسكندرية من أجل المسيحية ، وظل القديس أنطونيوس بالاسكندرية حتى استشهاد البطريرك الأنبا بطرس ـ البابا السابع عشر فى عداد باباوات الاسكندرية ، وهو المعروف بخاتم الشهداء (سنة ٣٠٣-٣١١م) ، وانتخاب ارشيلاوس خلفاً له [٦٧] ، فعاد القديس أنطونيوس وفى رأسه فكرة جديدة عن حياة الراهب وضرورة الانتقال إلى داخل الصحراء الشرقية ، فارتحل مع قافلة من الأعراب حتى حط رحاله فى المكان الذى يقوم فيه الدير المعروف بإسمه حالياً ـ وهو على مسيرة أربعة أيام شرقاً من بوش الحالية ـ وهى منطقة على مقربة من ساحل البحر الأحمر امتازت ببعض النخيل ونبع ماء [٦٨] .

أما سبب رحيل القديس أنطونيوس إلى داخل الصحراء الشرقية فلا تذكر عنه المراجع الأصلية شيئاً ، ويبدو أنه رأى أن حياة النسك الصحيحة لا تتم على مقربة من صخب الناس الملتفين حوله ، ففضل أن يهجر تلك الحياة لينعم بالهدوء الذى أراده .

وفى هذا المكان الجديد ، وفى تلك الصحراء الموحشة عكف القديس أنطونيوس على تدريب نفسه على ضروب الحياة الرهبانية الصارمة من صوم إلى صلاة . غير أنه حين شعر بالملل يدب فى حياته النفسية ، فكر أن يشغل بعض وقته ، فزرع قطعة الأرض لتمده بحاجاته ، كما اشتغل فى صناعة الحصر والسلال من أوراق النخيل [٦٩] .

ولم تمض مدة طويلة حتى امتلأت المنطقة المحيطة به بصوامع وقلالى تلاميذه المعجبين بطريقة حياته ، وهم الذين اكتشفوا مكانه الجديد من القبائل الرحل عبر الصحراء الشرقية [٧٠] ووجد القديس أنطونيوس نفسه مضطراً للخروج إلى تلاميذه فى هذا الجبل بعد أن انتشروا بشكل ملحوظ إلى جواره وذلك من أجل تلقينهم النظم التى رآها ضرورية لتكوين الراهب ، حتى إذا ما إنتهى من نصائحه عاد كل منهم إلى قلايته ليستكمل تدريبه الروحى .

ثم عاد القديس أنطونيوس مرة أخرى إلى الاسكندرية سنة ٣٣٧ م للاشتراك فى النضال الاثناسيوسى ضد الاريوسيين ، ثم اتصل بالامبراطور قنسطنطيوس كاتباً اليه يطلب رجوع البابا أثناسيوس من منفاه فى تريف Treves [٧١] . وبعد أن قام بدوره فى الجهاد عاد إلى قلايته فى داخل الصحراء الشرقية ، وظل بها حتى وفاته سنة ٣٥٦ م . ومن سيرة الأنبا أنطونيوس نعرف أنه حرص على افتقاد جماعات رهبانه التى إنتشرت فى الصحراء الشرقية والغربية ، كذلك فى بسبير وأرسينوى (الفيوم الحالية) ونتريا وطيبه وحول الاسكندرية [٧٢] ، كما حرص أولئك الرهبان على زيارة معلمهم ، والاستماع إلى نصائحه ثم العودة إلى قلاليهم سريعاً .

ومن كل هذه الأمثلة يتبين لنا أن الرهبانية بدأت حركة علمانية ، ورغم أنها لم تنشأ فى حجر الكنيسة ، لكنها سارت

وفق بعض مثلها العليا ، وبدت مخرجاً طبيعياً للحماسة المتولده فى نفوس المسيحيين الأولين (٧٣) ، وتعبيراً عن الميول الفطرية فى الطبيعة البشرية (٧٤) . واتخذت تلك الميول أدواراً فلسفية : ملفة، فمن الدور الانعزالى فى حياة قريبة من الناس إلى حياة الزهد الكامل فى جوف الصحراء الموحشة ، ثم تكونت الجماعات الرهبانية من الرهبان الذين التفوا حول الرئيس الروحى لهم فى الاماكن السابقة الذكر ، وسارت تلك الجماعات على النظم الانطونية الصارمة ، ومع تطور الحياة النسكية إلى حياة رهبانية منظمة ، لم تعد حياة الراهب فى الصحراء راحة أو دعة أو هرباً من المسئوليات بل صراعاً نفسياً لحراسة النفس ضد شهوات العالم وأهوائه (٧٥) . فلا عجب أن بدأت الكنيسة القبطية تنظر إلى الرهبنة على أنها أملها فى حفظ تقاليد وتعاليم المسيحية . على أنه ينبغى أن يكون معلوما أن الرهبانية الجديدة لقيت معارضة بعض رجال الدين فى بعض بلاد أوروبا بعد أن صارت معروفة لدى أولئك البعض ، مثال ذلك ما حدث فى أسبانيا عندما قرر مجمع سرقسطة سنة ٣٨٠ م منع القساوسة من الحياة الرهبانية ، ومع كل هذا لم تستمر هذه المعارضة طويلا ، بل إنتشرت الرهبنة فى الخارج حتى أصبح الكثير من الرهبان أساقفة فيما بعد.

قيام الديرية الباخومية فى مصر :

وعلى حين جاهد أنطونيوس فى تكوين جماعات الرهبان ورعايتهم وإرشادهم إذ بياخوميوس وهو راهب مثله فى صعيد

مصر يخرج على الدنيا بنظام جديد هو النظام الديرى ، وهو نظام رأى فيه باخوميوس تخفيفاً من قسوة النظام الأنطونى .

واختلفت الروايات فى تحديد تاريخ ومكان ولادته (٧٧) ، وأغلب المؤرخين يتفقون على أنه ولد فى لاتوبوليس ، وهى إسنا الحالية حوالى سنة ٢٨٥ م (٧٨) وأنه عندما أصبح جندياً فى جيش الامبراطورية ، إشترك فى الحملة التى جردها الامبراطور قسطنطين لإخضاع والى الحبشة المتمرد (٧٩) . واتخذت الحملة طريقها فى النيل ، كما يقال أن باخوميوس أعجب بسلوك المسيحيين الذين قاموا على خدمة الجنود مما جعله يعتنق المسيحية عقب عودته مع هذه الحملة . وقصد باخوميوس سريعاً إلى Chenoboskion أوشنسيت وهى بلدة قصر الصياد الحالية بمديرية قنا . حيث عمد بكنيسة القرية (٨٠) ، وقصد بعد العماد إلى أحد معابد سيرابيس المهجوره بجوار النهر للإقامة به ، وظل به كما تذكر سيرته ـ التى كتبت بالقبطية البحيرية ـ حوالى ثلاث سنوات وهو يمارس ضروب النسك الشائعة آنئذ (٨١) .

غير أن هذه القصة أثارت بعض الشك فى ديانة باخوميوس إبان وصوله إلى معبد سيرابيس ، واتهمه البعض أنه لم يكن مسيحياً وقتذاك ، فإعتقد وينجارتن ـ المؤرخ البروتستانتى المذهب ـ بأنه كان واحداً من اللاجئين فى المعبد ، والذين عاشوا به على نحو ما عاش لاجئو سيرابيس فى العصر البطلمى (٨٢) . والواقع أن تاريخ حياته الذى كتب باللغة اليونانية لم يذكر شيئاً عن أنه جاء

إلى ذلك المعبد لاجئاً ، على حين يتفق معظم المؤرخين على أن باخوميوس إختار بلدة شنسيت لأنه لم يكن بها سوى عدد قليل من الناس ، وذهب إلى معبد صغير مهجور بجوار النهر كان يسمى قديماً معبد سيرابيس ، وظل هناك يتعبد فى حياة نسكية مسيحية [٨٣] ، وإغتذى من شجر النخيل الذى كثرت أعداده هناك ؛ ويبدو أن شجر النخيل فى مصر مما نبت على قارعة الطريق كان شركة بين الفقراء وأبناء السبيل ؛ كما أن باخوميوس شغل بعض وقته بزراعة بعض الخضروات [٨٤] .

على أن باخوميوس الشاب احتاج لمن يرشده من شيوخ الرهبان فإتصل ببليمون ، أحد الرهبان المقيمين بجواره ، ورغب فى التتلمذ على يديه ، فحاول هذا الراهب الشيخ أن يثنيه عن عزمه شارحاً له ما يعانيه الرهبان من المتاعب البدنية ومحاربة شهواتهم وكبح جماح غرائزهم .

وإزاء إصرار باخوميوس ، ألبسه بليمون إسكيم الرهبان [٨٥] ، بل دعاه إلى مشاركته قلايته بخلاف ما كان مألوفاً إنذاك من انفراد الراهب فى قلايته ، وربما كان ذلك لصغرسن باخوميوس . وصار الاثنان « يواظبان على النسك والصلاة معاً ، ويشتغلان فى بعض الأوقات بغزل الشعر ونسج المسوح ، وينالان من ذلك الحاجة الضرورية ، وما فضل عنها يدفعانه للمساكين [٨٦] » .

وهكذا أصبح باخوميوس واحداً من الرهبان الذين اجتمعوا حول بليمون ، وعاش أول ما عاش فى ظل نظام رهبانى مستمد

من طريقة أنطونيوس . والواقع أن المدة التى قضاها باخوميوس مع بليمون كانت كفيلة بأن يشعر باخوميوس بمتاعب الوحدة ، مما حدا به إلى التفكير فى الإنتقال بذلك النظام الرهبانى إلى نظام آخر يجمع الهائمين على وجوههم منفردين فى البرارى والقفار ، فضلا عن أن باخوميوس لمس عن كثب ما تعرض له الكثيرون من الرهبان من فتك الحيوانات الضارية وقطاع الطرق من أهل البادية وما تعرض له الكثيرون من الأمراض ، وخاصة فى بداية حياتهم الرهبانية مما حدا به إلى الإنتقال إلى نظام جديد أساسه حياة الشركة . وأراد باخوميوس بهذا النظام معاونة البادئين فى الحياة الرهبانية مما تعرضوا له من أزمات نفسية عنيفة أودت ببعضهم إلى مهاوى التلف أمثال فالنس الفلسطينى وبطليموس المصرى [٧٨] .

وهكذا لم تكد تمضى سبع سنوات عاشها مع الراهب بليمون حتى رحل باخوميوس إلى قرية تابنيسى [٨٨] ، شمال فاو الحالية بمديرية قنا على الشاطىء الشرقى لنهر النيل ، وصحبه إلى هناك معلمه الذى ساعده فى بناء قلايته فى تلك البقعة البعيدة عن أعين الحكام الرومان . وما لبث أن إزداد عدد الرهبان حوله فى فترة وجيزة . وحرص باخوميوس على أن يدربهم على الحياة الديرية الجديدة ، وهى حياة قامت على الشركة فى المسكن والمأكل والعمل والصلاة داخل مبنى أطلق عليه اسم دير ، أحاطه بأسوار على طراز الأسوار الرومانية العالية الضخمة . وفى داخل الدير خضع الديريون لنظام موضوع أحكمت حلقاته ، وسلكوا فى طريق

النسك فى طاعة تامة لرئيسهم الروحى ، بل حرص الديريون على تنفيذ القوانين الباخومية حرصاً تاماً عن إيمان بها وعقيدة تامة ؛ ولما لا ؟ فقد أصبح القديس باخوميوس مثلاً أعلى للحياة المسيحية النسكية فى ديرية منظمة تكفل للأفراد حياة الأمن فضلا عن السلام الروحى .

ثم ما لبث أن كبر هذا الدير الذى تم بناؤه فى تابنيسى واتسع جداً ، حتى قيل أنه ضم من الديرين نحو الفين وخمسمائة ، عاشوا حياة اجتماعية فى ظل نظام ديرى منتج (٨٩) .

على أن جهود الأنبا باخوميوس فى نشر الديرية لم تقف عند حد ، إذ أنشأ ديراً جديداً فى الأرض الخربة فى بابو Pabou وهى فاو الحالية جنوبى قصر الصياد (شرق النيل أيضاً) ، ونقل اليه بعض رهبان الدير الأول ، وعهد اليهم إدارة الدير الجديد وترتيبه على النظام الباخومى (٩٠) . وازدهرت الحركة الديرية حتى أن باخوميوس أنشأ ديره الثالث فى شنسيت التى بدأ فيها حياته المسيحية ، وازدحمت هذه الأديرة من ازدحاماً كبيراً اضطر معه باخوميوس إلى زيادة عدد الأديرة ، كما أن بعض النساك حضروا اليه ، وسلموه جماعاتهم الرهبانية وطالبوه بتحويلها إلى أديره حتى قيل أنه فى أواخر حياته بلغ عدد الأديرة تسعة للرجال (٩١) ، أصبحت تضم فى أواخر القرن الرابع حوالى سبعة آلاف ديرى خضعوا لنظام القديس باخوميوس فى إحكام ظاهر ودقة تامة (٩٢) .

ونظم الأنبا باخوميوس الخدمة فى داخل الدير ، وأعطى كل ديرى عملا حسب قدرته الجسمية ؛ فلم يكلف واحداً منهم فوق طاقته ، ورسم من أجلاء الأخوة خبازين ، ومن يطبخ للاخوة فى الأيام الملائمة ، ومن يهتم بتنضيد المائدة ..... وكان الأكل مردوداً إلى الارادة والاختيار ، من شاء الغذاء كان الاختيار اليه ، ومن آثر الانعكاف على النسك ما كان أحد يحجز عليه... ووكل على أبواب الدير بوابين ورعين .... وبجوار الباب كان بيت الضيافة ، وجعل متوليه والمقدم على ما فيه راهباً (ديرياً) ورعاً عالماً ذا حنكة وتجربة ...... ورتب بيتاً آخر ينزل فيه الأخوة المرتاضون بالامتحان للسيرة قبل رهبانيتهم ، فى مدة ثلاث سنوات . ورتب لهم شيخاً مباركاً عابداً خالصاً ، يعظهم ويهتم بأنفسهم [٩٣] » . وفوق هذا رتب لكل دير أقنوماً (فرداً راهباً) يهتم بجميع حاجات الدير ، وجعله نائباً عنه بالأديرة التى أنشأها . وعلى هذا النحو أصبح الدير شبه ضيعة، توفرت فيها ألوان الحياة الاجتماعية والدينية فى نظام محكم .

على أنه مما هو جدير بالملاحظة أن دير بابو إحتل مركزاً هاماً فى النشاط الديرى ، حتى أن الأنبا باخوميوس إنتقل اليه وجعل منه الدير الرئيسى ، الذى تولى الإشراف على باقى الأديرة وتوجيهها [٩٤] . وحوالى سنة ٣٤٦ م انتشر وباء فى تلك الأديرة ، ومات عدد كبير من الرهبان منهم الأنبا باخوميوس نفسه [٩٥]، الذى ظل طيلة حياته حريصاً على تنفيذ النظام الديرى ، الذى استنبطه للأديرة التى خضعت لقانونه .

ويبدو أن تربية الأنبا باخوميوس العسكرية فى الجيش الرومانى جعلت منه ديرياً صارماً ، غير أن هـــذه الصرامة لم تصل إلى مثل ما وصلت اليه صرامة زعيم ديرى آخر هو شنوده الاتريبي (سنة ٣٣٣ م- سنة ٤٥١ م) وهو الذى صـــاغ القوانين الديرية فى أسلوب عنيف ، فضلا عما قام به من إصلاحات ديرية جليلة الشأن كان لها أكـبر الأثر فى إحياء القومية المصرية والثقافة الوطنية [٩٦] .

شنوده الأخميمى وتطوير الديرية :

على أن ما حدث من تطوير جديد للحركة الديرية عـلى يدى الأنبـا شنوده يدفعنا إلى الوقوف عـلى تاريخ حيـاته . ومن أمره أنه ولد فى اليوم السابع من بشنس عام ٤٩ للشهـداء (مايو سنة ٣٣٣ م) بقرية شنلاله التابعة لمدينة أخميم ،وتأثر فى حيـاته أيمـا أثر بالأحوال السياسية والاجتماعية التى رزحت تحتهـا مصر فى عصره من الحـكام البيزنطيين ، فـكرس شنوده جهوده لمقاومة هذه الاضطهادات وإثارة الوعى القومى والمسيحى بعيداً عن العنف،متخذاً إيمانه العميق سلاحاً للمقاومة . وجعل شنوده من جهده فى الزهـد والتقشف والصوم والصلاة مثلا من أمثـلة المسيحية الصادقة لرهبـانه الذين سعى إلى تدريبهم على تقليـده والسير على نظمه فى غاية الدقة .

كره القديس شنوده الدولة المستعمرة وعمل عـــلى كشف عيوب الاستعمار وشروره للشعب المصرى ، واتسمت جهوده بالسعى الحثيث المتصل لتحرير الحياة المصرية بشتى نواحيهـــا من المؤثرات البيزنطية، ومن ثقافة المستعمر . وقد تعلم القديس شنوده فى رهبنته عند خاله الانبا

بجول الذى إهتم اهتماماً خاصاً باتقان اللغتين القبطية والاغريقية وتعليمه باقى العلوم الكنسية فى مدرسة الدير الأبيض . وصار ذكاء شنوده وشخصيته من العوامل التى عاونت على إعطائه صفات القيادة فى مجتمعه. واعتقد الأنبا شنوده أن أحسن درجات الرهبنة هى الرهبنة الانفرادية فانفرد فى جوف الصحراء ـ بعيداً عن الدير ـ فى غار مهجور وقضى فترة طويلة متوحداً فى صلوات وتأملات ، دون أن يهمل العمل اليدوى. وبعد خمس سنوات من الخبرة الروحية والممارسات الرهبانية فى هذه المغارة ، عاد إلى الديريين وإذ بهم ينظرون اليه فى إكبار . وبلغ مركزه درجة كبيرة فى نظر الرهبان حتى أنهم بعد وفاة الأنبا بجول سنة ٣٨٣م اختاروه رئيساً للدير ، وكان هذا الاختيار موفقاً إذ سرعان ما نشط القديس الأنبا شنوده فى العمل الديرى والعمل الروحى، كما قام القديس بعدة إصلاحات شملت تطويراً جديداً للحياة الديرية [٩٧] .

على أن أهم ما وصفت به قوانين شنوده هو شدتها وصرامتها ؛ ولا عجب فى هذا ،فإن شنوده سعى إلى الكمال الروحى عن طريق الاغراق فى الصلوات والتأملات ،فضلا عن أعنف ضروب التقشف والحرمان . ومع أنه ليس لدينا نص كامل عن قوانين الدير الأبيض،فإن بعض أجزاء هذه القوانين بالإضافة إلى كتابات الأنبا شنوده وخطبه وعظاته الكثيرة فضلا عن سيرته التى كتبها خليفته الأنبا ويصا ـ هذا كله ـ يلقى ضوءاً كافياً على مثل هذه الحياة التى أراد إيجادها الأنبا شنوده فى داخل الدير الأبيض . ومن هذا الذى وصلنا يظهر لنا أن الأنبا شنوده حتم على راغب الانتظام فى الرهبنة أن يبقى خارج الدير بعض الوقت ريثما يتيسر التحقق من مدى إستعداده لممارسة حياة العبادة والتقشف . فإذا

ظهرت قدرته أجيز دخوله الرهبنة وعين له محل إقامته، غير أن الأنبا شنوده استحدث عهداً كتابياً على الراهب الجديد بالتزام المساواة التامة مع باقى الرهبان، وهذا العهد لم يعرف من قبل فى قوانين الأنبا باخوميوس. وجعل الأنبا شنوده على رأس الديريين جميعاً رئيساً أعلى عرف إبتداء من القرن الخامس « بالارشمندريت » أى رئيس المتوحدين .

والخلاصة أن الأنبا شنوده إستطاع أن يجذب إلى أديرته عدداً كبيراً من الرهبان بلغ نحو أربعة آلاف ، أخذ الأنبا شنوده على عاتقه تهذيبهم وتعليمهم وإرشادهم إلى طريقة الحياة الديرية الصحيحة . ولم يقتصر نشاط الأنبا شنوده عند هذا الحد وإنما تعداه إلى العمل فى نطاق الكنيسة وذلك بالمحافظة على إيمان المسيحيين الذين لم يتقدموا للرهبنة ، ففتح لهم أبواب الدير ليستمعوا للعظات والتفاسير المختلفة للكتاب المقدس . وحاول جاهداً أن يمحو من أذهانهم بقايا الديانة الوثنية وطقوسها التى علقت بأذهانهم . وكرس الأنبا شنوده جزءاً كبيراً من وقته لمقاومة الديانة الوثنية تارة بالوعظ والارشاد ، وأخرى بالكتابة والنصح . وكان الأنبا شنوده يرى فى الديانة الوثنية مظهراً من مظاهر الاستعمار ، فعمل كل جهده على محاربتها وإظهار مقومات الثقافة المصرية ، والعمل على إحياء القومية المصرية وخاصة من جانب اللغة المصرية التى جاهد فى تخليصها من كافة شوائب اللغة الاغريقية التى أصدر أمره بحرمان كل من يتخاطب بها أو يكتب بها .

ولهذا لا نعجب حين نقرأ ما كتبه ورل Worrell عن الانبا شنوده بأنه هو أعجب شخصية أخرجها القبط فى أى عصر من عصورهم

الطويلة وبأنه مؤسس المسيحية القبطية [٩٨] .

رهبنة النساء :

ونشأت حركة ديرية نسوية فى عهد باخوميوس عندما أسس ديرين للنساء فى صعيد مصر . غير أن هذا أثار اختلاف المؤرخين فى تحديد بداية الديرية النسوية ، فذهب البعض إلى أن قصة إيداع أنطونيوس أخته عند العذارى تجعل للديرية النسوية أسبقيه على ديرية الرجال .

ومع أن النسك بين النساء عرف فى القرون السابقة للمسيحية بدليل وجود اللاجئات فى المعابد [٩٩] ، علـى نحو ما شاهدنا فى لاجئات سيرابيس ، إلا أن البحث عن أصول الحيـاة النسكية بين النساء فى القرون الاولى لانتشار الديانة المسيحية بمصر محاط بشيء من الغموض. وليس لدينا من الأدلة سوى ما يذكر فى العهد الجديد عن قيام الكنيسة بالانفاق على الارامل حسنات السيرة ، واللواتى طلبن أن يصبحن تحت إشراف الكنيسة فى بيوت خاصة إسمها بيوت العذارى [١٠٠] ، لا شك أنها ضمت عدداً من العذارى اللائى فضلن البتولية وخدمة الكرازة . غير أنه يلاحظ أن هؤلاء العذارى والارامل لم يعشن فى بادىء الامر حياة رهبانية انعزالية بل عشن فى بيوتهن ، فمن خالت فى نفسها القدرة على ممارسة الحياة النسكية إعتزلت عن سائر زميلاتها فى نفس المنزل ، ثم انتقلت إلى بيوت العذارى لممارسة حياة النسك [١٠١] .

وفى أحد هذه البيوت التى ضمت العذارى يبدو أن الانبا أنطونيوس أودع أخته . كما أودع الانبا ديمتريوس الكرام ـ الثانى عشر فى عداد البطاركة السكندريين (١٨٨-٢٣٠ م) زوجه التى تعهد معها منذ زواجه

على أن يعيشا حياة البتولية ، وبدأت هذه الزوجة ممارسة حياة الرهبنة بعد رسامته بطريركاً [١٠٢] ، وإعطائه إياها الحل بأن تفارقه حرصاً على تنفيذ قوانين الكنيسة فى بتولية البطريرك .

وبانتشار بيوت العذارى فى البلاد المصرية فى غضون القرن الثالث الميلادى كثر ظهور المبشرات والمعلمات اللائى تتلمذن على يدى معلمى ذلك العصر [١٠٣] . ثم أنه حين أفردت السلطات الرومانية سكان البلاد بصنوف العذاب نال العذارى نصيبهن منه ، ومنهن دميانه وأربسيما وغيرهن من العذارى اللائى أعدمهن دقلديانوس بعد تعذيبهن عذاباً طويلا ، ورفعتهن الكنيسة إلى مرتبة الشهداء وصارت تتلو تاريخ حياتهن فى صلواتها [١٠٤] .

غير أنه ليس هناك ما يشير إلى إطلاق كلمة الديرية على بيوت العذارى فى أوائل القرن الرابع الميلادى . ومعنى هذا أن الديرية النسوية لم تسبق أديرة الرجال . ولا سيما أن حياة العذارى فى تلك البيوت آنفة الذكر لم تتوفر فيها أركان الديرية ، وأخصها البعد عن الأماكن الآهلة بالسكان، أو ما عرف بالانفراد والعزلة . كما أن بعضهن فضلن الزواج بعد إقامتهن مدة فى هذه البيوت ، ثم أنه يبدو أن الأرامل والعذارى ممن فاتهن سن الزواج . أو ممن فضلن حياة النسك طبق التعاليم المسيحية ، عشن عيشة مشتركة فى بيت واحد ، فتكون ما عرف باسم بيوت العذارى التى تولت الكنيسة الاشراف عليها روحياً ، كما تولت الانفاق على أفرادها . وقامت الكنيسة بهذا كله دون أن تكون هناك إتجاهات لأى نظام ديرى وقتذاك . وفى هذه البيوت أودع الأنبا آمون مؤسس رهبنة

نتريا ، زوجته مع عدد من النساء . ويبدو أن أخت الأنبا أنطونيوس سلكت نفس السبيل ، بل أصبحت مشرفة على مجموعة كبيرة من العذارى [١٠٥] .

أما النتيجة الطبيعية لتطور الحياة الرهبانية إلى الحياة الديرية ،أو ما عرف بالشركة ،بين رهبنة الرجال ، هذه النتيجة هى تطور الحياة عند العذارى إلى هذا اللون من الديرية.وذلكعندما أسس الأنبا باخوميوس لأخته ديراً بجوار أخميم ، ضم نحو أربعمائة من العذارى . وأتبعه بآخر، ثم كتب الأنبا باخوميوس لهذين الديرين قانوناً سار العذارىعليه [١٠٦] . ثم تبع هذا كله إنتشار أديرة النساء فى أنحاء مصر ، وكذلك انتقال مثل هذا النظام إلى خارجها .

وحدثنا بلاديوس المؤرخ ـ الذى زار مصر أواخر القرن الرابع الميلادى ـ أنه زار ديراً للراهبات فى أتريب بجوار أخميم ، إبتناه أحد ملاك الأراضى الأغنياء ، وأشرف على إدارته أحدشيوخ الرهبان الذى أقام فى حجرة عالية لا تتصل بالراهبات فى داخل الدير ، ولكن ينفتح بابها على خارج الدير ، ويبدو أن وظيفة هذا الشيخ لم تتعد مراقبتهن فى بعض الأوقات وكذلك تزويدهن بالتعاليم والعظات من مكانه المرتفع [١٠٧] . ومن تلك الأديرة كذلك عدة أديرة فى اتنينوى ، وهى قرية الشيخ عباده بمديرية أسيوط . وهذه الأديرة كانت تحت إشراف الأم تاليس Talis التى قيل أنها لم تجد داعياً للاحتفاظ بمفتاح الدير ، لمنع الراهبات من الخروج ـ أى أن النظام لديها لم يستدع وجود أى نوع من التزمت فى معاملة الراهبات [١٠٨] .

غير أن هذا كله لم يمنع عدداً من النساء من اعتزال العالم للحياة

حياة الرهبانية الانفرادية ، بعد أن أصبحت هذه الحياة معروفة ومنتشرة بين الرهبان رغم وجود الأديرة ، فعاش بعضهن منفردات فى الصحراء كما أن بعضهن تزى بزى الرجال ، ولم يكتشفن إلا فى أواخر حياتهن (١٠٩) . ومن الراهبات المنفردات خارج الاسكندرية الراهبة اسكندره ، التى حبست نفسها عشرة سنوات ، لا تكلم إنسياً وتأخذ طعامها من فتحة صغيرة (١١٠) ، كما عثر بعض الرهبان على راهبات منفردات على مقربة من صحراء نتريا ، ولاغرو ، فقد جذبت هذه البقعة بعضاً من الأوربيات اللائى رغبن فى الإعتزال ، ومنهن ميلانيا التى حضرت إلى وادى النطرون فى أواخر القرن الرابع الميلادى، وعقدت محادثات مع رهبانه ، ثم إنتقلت إلى فلسطين لتمارس حياة نسكية جديدة (١١١) .

وخاتمة المطاف فإنه على الرغم من هذا التطور الذى رأيناه فى الانتقال من الحياة الرهبانية إلى الحياة الديرية على يد القديس باخوميوس ، وإتخاذ الديرية شكلها الجديد على يد القديس شنوده ، فليس معنى هذا أن مصر عدمت الجماعات الرهبانية أو الحياة الرهبانية فى القرن الرابع الميلادى ، إذ أن وادى النطرون إمتلأ بالجماعات الرهبانية والرهبان المنفردين ، الذى ساروا على النظام الأنطونى ، وهو النظام الذى إعتبره الرهبان المقيمون فى هذه البقعة مثلاً أعلى للحياة النسكية المسيحية .

ولهذا سنتناول فى دراستنا ، فى الفصول التالية ، الرهبنة فى وادى النطرون كصورة للرهبنة الأنطونية ، مع دراسة تطور هذا النظام على أيدى زعماء الرهبنة فى هذه المنطقة . ولن تكون

هذه الدراسة للرهبنة كنظام للتصوف المسيحى ، منعزلا عن الكنيسة القبطية ككيان له شأنه ، فى هذه العصور السحيقة وإنما سنتناوله من حيث أثر الرهبنة فى الكنيسة والعكس ، حتى يمكن للقارىء أن يكون فكرة واضحة عن هـذا النظام ، الذى بقيت آثاره حتى وقتنا الحاضر ، بل وصار جزءاً من التنظيم الكنسى فى داخل الكنيسة القبطية فى مصر .



مراجع وشواهد الفصل الأول

(١) يرى البعض أن النسك ميل فطرى شائع فى كل الأديان — راجع :

Smith . M. : Studies In Early Mysticism In The Near & Middle East P. I.

(٢) Palladius : The Paradise Of The Holy Fathers (Trans. Budge) V I int . P. XXXIV .

(٢) يقال أنه فى عهد بطليموس فيلادلفوس عزم آسوكا إمبراطور الهند أن ينشر التعاليم البوذية فى أرض بعيدة ، وكانت مصر من بين ممالك البحر المتوسط التى أرسل اليها المبشرين ؛ ومع ذلك فليس هناك ما يشير إلى أى تنظيم بوذى فى مصر — أنظر Smith : Asoka, P 42 .

(٤) أنظر Mackean : OP. Cit. P.P. 15-17 .

Petrie W.M.F. : Personal Religion In Egypt, P.P. 62-63. ،

(٥) إنجيل متى : أصحاح ١٩ : ٢١ ، إنجيل مرقص : أصحاح ١٠ : ٢١ .

(٦) إنجيل متى : أصحاح ١٩ : ١٢ .

(٧) إنجيل مرقص : أصحاح ١٠ : ٢١ ، إنجيل متى : أصحاح ١٩ : ٢٩ .

(٨) إنجيل لوقا : أصحاح ٤ : ١ — ٦ .

(٩) سفر الملوك الأول : أصحاح ١٧ : ٤ — ٧ .

(١٠) إنجيل متى : أصحاح ٣ : ٤ .

(١١) الرسالة الأولى إلى الكورنثيين أصحاح ٧ : ٧ — ٣٩ .

(١٢) روفيله ، يعقوب نخله : تاريخ الأمة القبطية ص ٢٥ .

(١٣) أقام هذا التمثال بستيموس والى مصر الجديد وقتذاك تذكاراً لزيارة دقلديانوس للأسكندرية — أنظر الشيال: تاريخ الاسكندرية : مقال فى المجلة التاريخية المصرية، المجلد الثانى العدد الثانى ص ٢٠٢ .

(١٤) Milne : Hist. Of Egypt Under Roman Rule, P.P. 85 - 87.

(١٥) الطويل : قصة الاضطهاد الدينى ص ٤٣ — سبق هذا المرسوم بعض مراسيم التسامح الدينى سنة ٣١١م، غير أنه فى هذا المرسوم أقر قسطنطين مبدأ التسامح للديانة المسيحية وأن تبق إلى جوار الديانات الوثنية .

(١٦) Milne : OP. Cit. , P.P. 74 - 82.

(١٧) إنقسم دافعو الضرائب ثلاث طبقات : الملاك والزراع والصناع ؛ أما الضرائب فكانت متنوعة ، فهناك الضريبة العقارية وضريبة الرؤوس ... الخ - راجع Rouillard : L' Administration Civile de L' Egypte Byzantine, P. 5.

(١٨) Ibid : P. 11.

(١٩) Milne : OP. Cit. P.P. 82 - 83

(٢٠) Mackean : Christian Monasticism, P. 65.

Steindorff, J G. : Religion Of The Ancient Egyptians , P.P. 134 - 135 .

E. R. E. : Art. Monasticism.

(٢١) Milne : OP. Cit : P.P. 155 - 156.

(٢٢) Eusebius : Ecc. Hist. (Eng. Trans.) V II P P. 463 - 465.

لا عجب أن يطلق البعض على تاريخ المسيحية فى القرن الرابع « عصر الرهبنة » حتى إذا بدت مطالع القرن الخامس ، كانت الرهبنة أضفت كل مميزاتها على الكنيسة وخاصة الاتجاهات الديرية الباخومية التى شابهت النظام العسكرى ، فبدأ عصر جديد هو عصر باباوات الكنيسة ، حيث ظهرت قوة الكنيسة فى مصر بين العالم المسيحى من حيث محافظتها على مبادىء الدين بشكل دقيق ، حتى أطلق البعض على باباواتها وقتذاك « الباباوات الفراعنة » .

(٢٣) Workman : Evolution Of Monastic Ideal : P.10.

(٢٤) Ency. Amer. : Art , Monasticism.

(٢٥) راجع Mackean : OP. Cit. P.P. 30-31.

(٢٦) راجع Palladius : OP. Cit. VI intr. P.P. 56-58.

(٢٧) Cabrol, F : Dict. D' Archeologie Chretienne, V II P. 3053.

(٢٨) Glover, T.R. : The Conflict Of Religion. P.24.

(٢٩) Mackean : OP. Cit., P. 19 .

(٣٠) White E. : Hist. Of The Monastries Of Nitria, V II P. 6.

(٣١) O'Leary De Lacy : The Saints Of Egypt, P.23.

(٣٢) أنظر Petrie. : Egypt & Israel, P.P. 133-134.

(٣٣) Mackean : O P. Cit. P.P. 19-20.

(٣٤) من جماعات النساك اليهود جماعة الاسينيين Essenes الذين عاشوا فى القرن الثانى ق.م فى صحراء الشام، غير أنه من الصعب القول بأنها جماعة نسكية خالصة لاشتغال بعض أفرادها بالسحر ، ولأنهـــا ضمت بعض المتزوجين ، ثم أنه ليس بينها وبين الرهبانية صلة لتفرق أفرادها بعد سقوط أورشليم سنه ٧٠ م.

(٣٥) Eusebius: Ecc. Hist. V I B II, P.P. 147-152.

(٣٦) ربما فعلوا هذا إحياء لذكرى رقص أخت هارون بعد عبور بنى اسرائيل البحر الاحمر وخلاصهم من يد فرعون — أنظر E.R.E: Art, Monasticism

(٣٧) القس عمانوئيل البعيدانى : تاريخ الرهبانية الانطونية ص١٢.

Conybeare : The Contemplative Life, P.P. 337-340.

(٣٨) Mackean : OP. Cit, P.P. 18-25.

(٣٩) White : OP. Cit. V II P. 4.

Butler C. : Historia Lausiaca Of Palladius, VI P.229 ،

(٤٠) Erman : Handbook Of Egyptian Religion, P 224 ،

(٤١) عبد النور ، راغب : أوريجانوس : مقال فى « صور من تاريخ القبط » مجلة مارى مينا سنة ١٩٥٠ ص ٣٢ — ٣٣ .

(٤٢) كتب أوريجانوس شروحاً لإنجيل يوحنا وأسفار التكوين والمزامير وأرميا ، ووضع تفسيراً لسفر أشعياء فى ٢٥ جزءاً ، وكتب خمسة وعشرين كتاباً عن الرسل ، وشرح سفر حزقيال فى ٢٥ جزءاً كذلك.

(٤٣) عبد النور - راغب : المرجع السابق ص ٨ - ١٠.

(٤٤) انظر Eusebius : Ecc. Hist. V ll B VI, Ch. XIX & XXXVI .

(٤٥) Mackcan : OP. Cit., P.P. 44-45.

(٤٦) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ص٢٧٤ - ٢٧٥ ، أنظر كذلك نخله ، كامل صالح : تاريخ الأمة القبطية ص ٥٦ - ٥٨ . يلاحظ أن الكنيسة الارثوذكسية فى مصر حرمت أوريجانوس لأنه طبق تعاليم الكتاب المقدس حرفياً لخصى نفسه .

(٤٧) Curzon : Visits To The Monastries Of The Levant, P 76.

(٤٨) Cheneau : Les Saints D'Egypte V 1 P.P. 474-475

(٤٩) ابن المقفع ، ساويرس : تاريخ البطاركة (طبعة Evetts) ج ١ ص ٨٤ .

(٥٠) Eusebius : Ecc. Hist. V ll B VI P. 101.

(٥١) عطيه ، عزيز سوريال : الرهبانية والديرية المسيحية : مقال فى مجلة مارى مينا عن الرهبانية ص ١٥٠-١٥١ .

(٥٢) سيرة أنبـــا بقطر وأنبـــا بولا - مخطوط بدير السريان ، ص ١ - ٣ .

(٥٣) ايسيذوروس « الأسقف » : الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة ، جـ١ ص ١٩٦ - ١٩٧ .

(٥٤) الصادق الأمين فى تاريخ القديسين « السنكسار القبطى » جـ ١ ص ٢٣٢ - ٢٣٣ ، راجع كذلك « البستان الكامل مخطوط ص ١٠ - ١٣ .

(٥٥) Palladius : The Paradise, VI. P. 201.

(٥٦) راجع Fliche & Martin : Histoire de L'Eglise, V III P.P. 324 — 327

(٥٧) سيرة أنبا بقطر وأنبا بولا ص ٣ — ٤ .

De Labriolle : Vie De Paul De Thebes, P. 21. ،

(٨٥) White : OP. Cit. VI, P 12.

(٥٩) أثناسيوس « البطريرك العشرين » : سيرة أنطونيوس ، الترجمة العربية ص ١٧ ، أنظر كذلك Palladius : The Paradise VI P.P. 1-3.

(٦٠) أثناسيوس : المرجع السابق ص ١٨ .

(٦١) أنظر إنجيل متى : أصحاح ١٩ : ٢١ .

(٦٢) نخبة من آباء الكنيسة الأرثوذكسية : الصادق الأمين فى تاريخ القديسين جـ١ ص ٢١٠ .

(٦٣) Cabrol F. : Dict. D'Arch. Chretienne, V II P.P. 1803-1804.

(٦٤) البستان الكامل : مخطوط ص ٥ - ٦ .

(٦٥) أثناسيوس : المرجع السابق ص ٢٦ .

(٦٦) أثناسيوس : المرجع السابق ص ٣٤ - كون تلاميذ أنطونيوس جماعات عاشت إحداها فى إحدى جهات الصحراء المحيطة بالفيوم (مكانها دير الملاك الحالى بالفيوم) حوالى سنة ٢٨٥ م إذ تذكر قصته أنه كان يزور رهبان أرسينوى أنظر :

Camb. Med. Hist. V I, P 522.

(٦٧) Palladius : The Paradise V I P. 39.

(٦٨) Fliche & Martin : Histoire de L' Eglise V III P.P. 329-330.

(٦٩) كيرلس الأنطونى « القمص » : كوكب البرية ، ص ١٢٧ - ١٢٨ .

(٧٠) أثناسيوس : المرجع السابق ص ٦٩ .

(٧١) Butcher : The Story Of The Church Of Egypt, V I P 159.

« ذهبت مساعى أنطونيوس للعفو عن أثناسيوس إدراج الرياح ، وكاد الاريوسيون ينجحون فى كسب رضى الأمبراطور على آريوس القس المحروم لبدعته لولا وفاة آريوس المفاجئة - راجع بوتشر : تاريخ الكنيسة القبطية جـ١ ص ٢٢٥ .

وفى سنة ٣٤٠ م سافر أثناسيوس إلى روما عند صديقه يوليوس أسقف روما حيث عقد مجمعاً ثبتت فيه براءة أثناسيوس مما نسب اليه ، ومع ذلك فإن الامبراطور قسطنطيوس امبراطور القسم الشرقى ناصر رجلا آخر من الآريوسيين ، وهو أغريغوريوس وجعله بطريركا مكان أثناسيوس . ولم يتمكن أثناسيوس من العودة من روما إلى كرسيه إلا بعد وفاة أ . غريوس وعودة الأحوال الطبيعة وذلك سنة ٣٤٥ م » .

راجع بوتشر : تاريخ الكنيسة القبطية ج ١ ص ٢٣٧ .

(٧٢) أثناسيوس : المرجع السابق ص ٣٤ ، ٧٩ - ٨٠ .

(٧٣) Workman : Evolution Of The Monastic Ideal P. 15.

(٧٤) Mackean : Christian Monasticism P.P. 60-61.

(٧٥) Fliche & Martin : Hist. De L'Eglise, V III P. 330.

(٧٦) Workman : OP. Cit. P. 17.

(٧٧) يذهب البعض إلى أنه ولد سنة ٢٨٥ م والبعض الآخر سنة ٢٩٢ م ، على حين تذكر قصة حياته أنه ولد حوالى سنة ٢٧٢ م - أنظر :

Ladeuze : Cenobitisme Pakhomien P. 340 .

وكذلك سيرة باخوميوس : ص ٤ .

(٧٨) Duchesne L. : Histoire De L'Eglise V II P. 497 .

(٧٩) Ladeuze : OP. Cit. P. 157.

(٨٠) Mackean : Christian Monasticism, P.P. 91-92.

(٨١) Revillout : Revue Egyptologie, (1880) P.160.

(٨٢) Grutzmacher, G : Pachomius Und Das Alteste Klosterleben P.P. 39 f.f.

(٨٣) A. M. G. V. XVII P.P. 6 & 342

(٨٤) Cabrol F : Dict. D'Arch. Chret. V II P. 2055.

(٨٥) الاسكيم هو من ملابس الرهبان : ـ أنظر ما يلى بالفصل الرابع عن ملابس الرهبان .

(٨٦) سيرة باخوميوس : ص ٨ .

(٨٧) عطيه ، عزيز سوريال : الرهبانية والديرية المسيحية مقال فى مجلة مارى مينا عن الرهبنة القبطية ص ١٥٦

Hardy : Christian Egypt. P. 94.

(٨٨) Mackean : OP. Cit. P. 92.

(٨٩) سيرة باخوميوس ص ٢٢

(٩٠) Duchesne : Hirtoire Ancienne De L'Eglise, V II P. 488 .

Ladeuze : OP. Cit. P. 172.

(٩١) Ency. Brit. Art, Monasticism.

(٩٢) سيرة باخوميوس ص ٢٣

(٩٣) نفس المرجع ص ٢١

(٩٤) نفس المرجع ص ٢٣

(٩٥) De Vouille' H.R. : Vie De St. Pacome P. 24.

على المرتفع الصحراوى الذى بنى عليه دير مكاريوس الكبير ، حيث ذكرت سيرته أن هذا المكان الذى سكنه مهجور تماماً ، لا يستطيع الحياة به إلا الراهب المحنك ، ولم يكن به فى بادىء الأمر راهب سواه ، وعلى مقربة منه صحراء عامرة بالرهبان[١٩].

وعلى مقربة من صحراء شيهيت أو الإسقيط ، كانت قرية بيامون ، التى وردت فى قصة الرهبان التسعة والأربعين ، الذين ذبحهم البربر ودفنت أجسادهم فى هذه القرية ، أوائل القرن الخامس الميلادى ، وأقيمت بهذه القرية قلعة صغيرة ، حرصت الحكومة الرومانية ـ الحاكمة وقتذاك ـ على تزويدها بالجنود المكلفين بحراسة هذه المنطقة من البربر الذين دأبوا على الإغارة على عمال مناجم النطرون [٢٠] .

وفى الشمال الغربى من برية شيهيت ، حيث توجد صخرة كبيرة مرتفعة عما حولها من أجزاء الوادى ، عرفت هذه الصخرة فى سير الرهبان باسم بترا Petra أى المكان المرتفع، وهى المكان الذى سكنه مكاريوس الكبير ، بعد أن ترك نتريا[٢١]. وتتلمذ على يديه عند بترا هذه مكسيموس ودوماديوس ، ابنا الامبراطور فالنتنيان [٢٢] . وإلى أقصى الجنوب من منطقة الإسقيط ، عاش بعض النساك الذين فضلوا حياة الوحدة القاسية فى المنطقة التى عرفت باسم كاليماكس Climax ،وهى كلمة يونانية معناها السلم أو الذروة لأن الأرض تتدرج فى الارتفاع نحو الجنوب الشرقى . والواقع أنه لم يعرف عن رهبان هذه البقعة من الصحراء شىء ، سوى أن بطليموس المصرى الذى عاش حياة نسكية فى هذه البقعة

الموحشة ذات الماء القليل ، فاحتفظ بإسفنجه ، يجمع بها قطرات الندى التى يطفىء بها ظمأه ، فلا عجب أن أصابه الجنون فعاد إلى الحياة المدنية يحيا فيها حياة على قدر عقله المريض (٢٣) .

وعلى عكس عناية الكتاب الأقباط واللاتين بوصف الأجزاء المختلفة لهذه البقعة، إختلط تفصيل الأمر على المقريزى وغيره من المؤرخين المسلمين ؛ واكتفوا بقولهم عن الوادى أنه « وادى هبيب بالجانب الغربى من أرض مصر فيما بين مريوط والفيوم » (٢٤) . أما مساحتــه فقدرها ابن دقمـــاق بمائتين وسبعة من الأفدنة (٢٥) . وذكر ابن الجيعان عن تبعيته لمديرية البحيرة وأنه « كان مرعى الأغنام والجاموس بإسم العربان قديماً وحديثاً » (٢٦) ؛ إذ دأب البدو عـلى رعى أغنامهم عـلى الكلأ حول البحيرات الموجودة به . وأرجع هؤلاء الكتاب السبب فى تسميته بوادى هبيب إلى أن هبيب بن معقل ، أحد عرب فزاره ، ومن الذين شهدوا فتح مكة ،هاجر منها إلى تلك البيداء ، زمن فتنة الخليفة عثمان بن عفان ، فسماها المسلمون بوادى هبيب (٢٧) .

ومما لا شك فيـه أن قرب وادى النطرون من الاسكندرية عاصمة البلاد وقتذاك ، جعـل الوادى قبـلة الراغبين فى الحيـاة الرهبانية ، سواء كانوا مصريين أم وافدين على مصر من الخارج، إذ تمكن هؤلاء وأولئك من الحصول عـــلى بعض مؤنهم التى عزت فى هذا الجبل ، فى شىء من السهولة ، ثم أن قرب وادى النطرون من الاسكندرية جعل الجماعات الرهبانية على صلة بالاحوال الدينية فى الكنيسة الناشئة ، ومكنها من القيام بدور هام فى النزاع

الكنسى حول المذهب الأثناسيوسى .

والواقع أن جماعات رهبان وادى النطرون غدت أماكن سلام ، لجأ اليها بطاركة الاسكندرية ، إبان المنازعات والاضطهادات (٢٨) . وبهذا أصبح وادى النطرون المركز المقدس الثانى بعد الاسكندرية ، ولا سيما بعد أن انتشرت بين المسيحيين قصة اختفاء العذراء مريم بالطفل يسوع فى هذا الوادى ، إبان هروبها إلى مصر ،وقصة تبريك السيد المسيح أركان الوادى الأربعة (٢٩) . فلا غرو أن حرص بطاركة الاسكندرية على المجىء إلى دير مكاريوس الكبير لطبخ الميرون ، وتكبدهم المشاق فى سبيل الوصول اليه (٣٠) .

غير أن الحركة الرهبانية أصيبت بالإنتكاس بعد قليل من الزمن ، وذلك حينما تعرض الرهبان لغزوات قبائل البربر بشكل ملحوظ ، للحصول على مادة النطرون المستخرجة من هذه المنطقة، وذلك منذ أواخر القرن الرابع الميلادى ، وأوائل الخامس الميلادى. ولذا قل عدد الرهبان ، إذ نزحوا بعيداً عن الوادى ، فراراً من هؤلاء البربر ، الذين لم يكتفوا بذبح الرهبان ، بل أنهم هدموا قلاليهم (٣١) . ويبدو من وصف المقريزى للثروة المعدنية بهذا الوادى فى القرن الخامس عشر الميلادى ، أن إغارات البربر فى القرون المسيحية الأولى ، لا بد أنها أثرت تأثيراً كبيراً فى الحركة الرهبانية هناك ، إذ كتب « أن وادى النطرون كثير الفوائد ويتحصل منه مال كثير وفيه الملح الاندرانى والملح السلطانى ، وهو على هيئة ألواح الرخام وفيه الوكت ، والكحل الأسود ،

ومعمل الزجاج ، وفيه الماسكة ، وهو طين أصفر فى داخل حجر أسود ، يحك فى الماء ويشرب لوجع المعدة ، وفيه البردي لعمل الحصر ، وفيه عين الغراب ، وهو ماء فى هيئة البركة وطولها نحو خمسة عشر ذراعاً فى عرض خمسة أذرع فى مغار بالجبل ، لا يعلم من أين يأتى ولا إلى أين يذهب ، وهو حلو رائق [٣٢] » .

وذكر ابن مماتى عن أهمية النطرون فى هذه البقعة عن غيرها من مناطق إستخراج النطرون فى مصر ، أن هذا النطرون «صنفان : أحمر ، وأخضر ،وهو محظور محدود لا سبيل إلىأن يتصرف فيه غير مستخدمى الديوان . والنفقة على كل قنطار منه درهمان، ويبلغ ثمن القنطار لموضع الحاجة اليه سبعين درهما وأكثر من ذلك ، ويلزم الضمنا تسلمه من ناحية الطرانة (ترنوط) ليسلم الديوان من نقص وزنه وخطر غرقه » . ثم تحدث عن بعض المعادن المستخرجة منه مما « يحتاج اليه المبيضون وأصحاب التنانير »[٣٣] . وجرت العادة على أن يستخرج النطرون من الوادى ويجفف فى القرى ، التى وجدت أطلالها بالوادى ، وأخصها قرية بيامون ونتريا [٣٤] ، ثم يحمل على ظهور الإبل إلى الطرانة ومنها إلى جميع أنحاء مصر [٣٥] ، حيث اهتم المصريون بالحصول على حاجتهم منه ، لاستخدامها فى تحنيط موتاهم ، وفى غير هذا من النواحى [٣٦] . ولم تقتصر أهمية وادى النطرون على وجود هذه المعادن ، بل أن وجود المياه الباطنية قريبة من سطح الأرض فى كثير من أجزائه ، سهل عملية حفر الآبار ، وبالتالى ساعد

الرهبان على القيام بالزراعة فى هـذه المنطقة ، التى ما لبثت أن جذبت اليها أعداداً ضخمة ممن فضلوا البعد عن ضجيج الحيـاة الرومانية فى المدن المصرية ، حتى ازدحمت بهم الصحراء عـــلى اتساعها ؛ ثم أن مناخ هذه المنطقة يمكن اعتباره إنتقاليـاً بين مناخ البحر المتوسط والمناخ الصحراوى ، فهو ليس جافاً حاراً يبعث على الملل والسأم ، فيضايق الرهبان فى قيامهم بشتى أنواع النسك ، ولا مطيرا يحول دون قيام الرهبان ببناء قلاليهم من من المواد التى هى فى متناول أيديهم فى الصحراء .

قيـــام الرهبانية فى جبل نتريا وسليا :

والمؤسس الأول للرهبانية فى وادى النطرون فى نتريا وسليا على وجه التخصيص الراهب آمون المصرى ، الذى ولد حوالى سنة ٢٧٥ م فى بلدة من البلاد القريبة من الاسكندرية ترجيحا [٣٧]. ومات والد الراهب آمون وهو فى الثانية والعشرين من عمره ، أى أواخر القرن الثالث الميلادى ، حين أخـــذ الكـثير من المسيحيين فى الهرب إلى الصحارى والقفار ، بعيداً عن عنف الحكام الرومان ، الذين دأبوا على اضطهاد أبناء الدين الجديد ، تنفيذاً لأوامر الأباطرة ، أو إشباعاً لروح الوثنيـــة السائدة بينهم . وتزوج الراهب آمون حوالى ذلك الوقت بإشارة عمه الذى يقال أنه أكرهه على الزواج ، حتى لا يهرب مع الهاربين من المسيحيين إلى الصحراء [٣٨] .

غير أنه بعـد إنتهاء مراسيم الزواج ، اتفق الراهب آمون وزوجته على حياة البتولية ، مع إقامتها فى منزل واحـــد ،

لتكريس حياتها للدين [٣٩] . ويقال أن الراهب آمون وزوجته قضيا ، فى هذه الحياة الدينية الغريبة فى نوعها ، حوالى ثمانى عشرة سنة ، عمل آمون خلالها على قضاء سحابة يومه فى الحقل ، عاملاً فى الزراعة حتى إذا قاربت الشمس المغيب ، عاد إلى داره ليقضى فترة الليل فى الصلاة [٤٠] .

غير أن آمون أحس أخيراً أنه ليس فى غبطة تامة ، فاستأذن إمرأته ، وانصرف إلى صحراء نتريا . وليس ببعيد أن تكون شهرة القديس أنطونيوس فى الرهبانية والعزلة التامة ، هى التى اجتذبت آمون إلى تلك البقعة الهادئة الآمنة فى آن واحد ؛ إذ المعروف أن أخبار الراهب أنطونيوس ملأت عقول المسيحيين وقتذاك .

وعلى حين كان يجاهد أنطونيوس فى تكوين الجماعات الرهبانية فى صعيد مصر وصحراواتها ، إذ بالراهب آمون ينشط فى حياته النسكية وتطبق شهرته الآفاق ، ويلتف حوله فى هذا المكان جمع غفير من أصحاب الميل إلى هذا الإنفراد ، فانتشرت صوامعهم التى ابتنوها بأنفسهم ، أو حفروها فى الصخر فى صحراء نتريا [٤١] . وفكر آمون فى طريقة ينتفع بها فى تشغيل الرجال الذين تبعوه ، فعمل على إستخراج النطرون ، الذى تولت نقله جماعات من سكان القرى والمدن المجاورة [٤٢] .

غير أن آمون ، بعد أن تكاثرت حوله جماعات الرهبان فى قلاليهم المبعثرة ، وبعد أن أقام كنيسة بين القلالى الرهبانية فى نتريا ، فضل لنفسه الإنفراد ، فانتقل إلى الصحراء الداخلية جنوباً ، فى المكان الذى عرف فيما بعد باسم نيرى أو سليا . وكان

هذا الانتقال بإرشاد القديس أنطونيوس ، الذى حضر لزيارة آمون ، وأوضح له قيمة سليا ، كمكان للعزلة وللراغبين فى الإنفراد من رهبان نتريا الآخرين . وابتنى آمون لنفسه قلاية عاش بها ما بقى من حياته. غير أنه ما لبثت القلايات أن انتشرت فى هذه المنطقة الجديدة ، بمجىء بعض الرهبان من نتريا مفضلين الوحدة التى سبقهم اليها الراهب آمون(٤٣) .

وذكرت سيرة الراهب آمون أنه تعود أن يزور زوجته مرتين فى السنة للاطمئنان على سلامتها وعلى حياتها الزوجية ، إذ ذكر ما يشير إلى أنها بدورها كرست نفسها لحياة رهبانية. فاجتمع حولها كثير من العذارى (٤٤) ، وأصبحت هى مرشدتهم. وكان الراهب آمون يقطع كل مرة فى رحلته إلى زوجته ستة أيام ذهاباً وإياباً ، حتى يطمئن على حياة العذارى الراهبات اللائى عشن حول زوجته (٤٥) .

وهكذا بدأ الأنبا آمون حياته راهباً منفرداً ، وما لبثت شهرته أن طبقت الآفاق . فاجتمع حوله تلاميذ كثيرون ، أغلبهم مصريون . وأصبح الأنبا آمون مديراً لهذه الجماعات ، يعظهم ويرشدهم إلى أركان الرهبانية ، كما عرفها من القديس أنطونيوس. ولعل اتصاله بالقديس أنطونيوس ما يفسر توسعه فى إنشاء الجماعات الرهبانية التى سارت على النظام الأنطونى .

وحوالى سنة ٢٢٧ م توفى الأنبا آمون ، بعد أن قضى حوالى إثنين وعشرين عاماً فى الصحراء ، يرقب جهاد إخوانه المصريين فى سبيل نشر دينهم ، والمحافظة عليه من نقمة الأباطرة

فى الاسكندرية ، وغيرها من المدن المصرية . وخلفه فى الحياة الرهبانية فى سليا تلاميذه ، ومنهم تيودور ، وأغاثو ، وتثنائيل ، وهور ، وبامو ، وخامسهم هو الذى تزعم المنفردين فى سليا بعد آمون [٤٦] . وإذ أعتبرت سليا - صحراء القلالى - المكان الذى عاش به الرهبان الذين لم يجدوا السلام الضرورى لحياتهم الإنفرادية فى نتريا ، فإن أعظم شخصية ظهرت فى سليا هى شخصية القديس مكاريوس الاسكندرى ، الذى ينسب اليه تعميم نظام القلالى فى أماكن متفرقة متباعدة ، فى هذه المساحة الواسعة فى وسط وادى النطرون .

وكان مولد هذا القديس حوالى سنة ٢٩٤ م من عائلة فقيرة بالاسكندرية ، واشتغل فى شبابه خبازاً كما اشتغل ببيع الفواكه المجففة والنبيذ [٤٧] . وذكر بعض تلاميذه ، أنه كثيراً ما تحدث عن اشتغاله برعى الأغنام والبقر [٤٨] .

ولم يبدأ مكاريوس الاسكندرى حياة الرهبانية قبل سن الأربعين ، وذلك بعد أن تعمد ، وانتظم فى صف الموعوظين[٤٩] ، وزار القديس أنطونيوس بالصحراء الشرقية ، ومارس على يديه حياة النسك حوالى سنة ٣٣٥ م . ثم ذهب مكاريوس إلى نتريا ، حيث تتلمذ على يد القديس بامو ، رئيس الجماعات الرهبانية فى ذلك الموضع ، بعد آمون . وظل هناك مدة ، رسم بعدها قساً ، وصار من هيئة الكهنوت حوالى سنة ٣٥٥ م [٥٠] . واشتهر منذئذ باسم مكاريوس الإسكندرى . غير أن مكاريوس لم يلبث أن اشتاق إلى حياة الإنفراد ، فانتقل جنوباً إلى سليا حوالى

سنة ٢٧٣ م [٥١] . ويبدو أن عدد الرهبان المنفردين فى قلالى سليا زاد بمقدمة زيادة ملحوظة ، بدليل أن سليا غدت معروفة باسم صحراء القلالى .

واتصف الأنبا مكاريوس الإسكندرى بالإمعان فى الحياة النسكية ، وتردد على كبار المتعبدين ، ينافسهم نسكهم فى صمت وهدوء . وتبارى فى ذلك مع الديريين فى تابنيسى على وجه الخصوص ؛ ذلك أنه عندما سمع بأن رهبان دير الأنبا باخوميوس هناك لا يذوقون طعاماً مطهياً على النار مدة صوم الأربعين المقدسة ، عقد العزم على ألا يذوق شيئاً مطهياً لمدة سبع سنوات، وأن يقتصر على الحشائش البرية والخضر . ولم يكتف الأنبا مكاريوس الاسكندرى بهذا ، بل سافر إلى تابنيسى قاطعاً المسافة فى خمسة عشر يوماً [٥٢] ، وهناك طوى فترة صوم الأربعين واقفاً فى أحد القلايات ، دون أن يذوق طعاماً ، ما عدا أوراق الكرنب كل يوم أحد ، ليخفى أمام رهبان الدير صيامه . ورغم هذه الحياة القاسية وإمعان القديس مكاريوس فى إذلال جسده ، فإنه لم يخالف قوانين الدير من حيث العمل ، بل قضى مكاريوس أيامه فى دير تابنيسى فى ضفر الخوص وعمل السلال فى صمت وسكون [٥٣] . غير أن الديريين فى تابنيسى لم يتعودوا مثل تلك الحياة القاسية ، فطلبوا إلى رئيسهم القديس باخوميوس أن يأمره بترك الدير ، حتى لا يعثرهم . وهنا سأله الأنبا باخوميوس عن اسمه وأصله . فعرف منه أنه مكاريوس الاسكندرى ، فاحتفل به رهبان الدير وأجلوه . ثم غادر الأنبا مكاريوس الاسكندرى

تابنيسى ليعود إلى سليا ، [٥٤] ، حيث أمعن إمعاناً جديداً فى النسك ، حتى يقال أن لحيته تساقط شعرها ، ولم يبق له سوى شعر قليل على شفتة العليا وعلى ذقنه [٥٥] .

وازداد عدد الرهبان الذين كونوا القلالى حتى بلغ عددهم فى صحراء القلالى ، وقت زيارة بلاديوس أى حوالى سنة ٣٩١ م ، حوالى ستمائة راهب . وعاش هؤلاء الرهبان حياة إنفرادية ، فى هذا الجزء الموحش من الصحراء . وعلمهم مكاريوس الاسكندرى بناء القلالى ، أو حفرها ، غير أنهم كانوا يهرعون إلى كنيسة ، بنيت على مسافة بعيدة من قلاليهم ، أيام السبوت ليقضوا بها صلاة الأحد ، حتى إذا ما اقتهت ، عادوا إلى مساكنهم [٥٦] .

وعرف عن مكاريوس الاسكندرى كذلك شغفه بالتنقل والحياة بين سائر الجماعات الرهبانية فى وادى النطرون ، للاطمئنان على مدى ما وصلت اليه حياته النسكية ، ومن أجل هذا أصبحت له أربعة قلالى ، إحداها فى جبل نتريا والثانية فى سليا ، والثالثة خارج الوادى فى الصحراء الليبية ، والرابعة فى برية شيهيت حيث تردد على سميه الأنبا مكاريوس الكبير ، بل شاركه فى منفى جزيرة فيله ، جنوبى أسوان الحالية ، وذلك عندما نفاهما الامبراطور فالنس [٥٧] .

الرهبانية فى برية شيهيت (الإسقيط) :

أما دراسة الحركة الرهبانية فى برية شيهيت أو الإسقيط ، فتتصل إتصالا وثيقاً بتاريخ القديس مكاريوس الكبير ؛ إذ ورد

فى سيرته - التى كتبها سيرابيون ، أسقف تمى الأمديد ، وتلميذ الإنبا أنطونيوس ، وفى سيرة أنبـا بيشوى ، التى تنسب إلى يوحنا الصغير ، أن مكاريوس الكبير عاش ليرى أربعة أديرة عامرة بالرهبان ، هى أديرة البراموس ، ومكاريوس الكبير ، ويوحنا القصير ، وبيشوى(٥٨) . غير أن استعمال لفظ دير ، التى وردت بهذه المخطوطات ، ينبغى ألا يفهم منه وجود أديرة على النظام الباخومى ، محاطة بالأسوار الضخمة . بل قصد به مجموعة الرهبان الذين عاشوا حياة مزيجاً من الإنفراد والشركة ، ولذلك فإن هذه الجماعات الرهبانية ،حتى عهد مكاريوس الكبير ، لم تكن قد سارت وفق النظام الديرى الباخومى . ومن أخبار مكاريوس الكبير أنه ولد حوالى سنة ٣٠٠ م (٥٩) . أما سيرابيون ، فيضيف أنه ابن قسيس بلده ششوير ، وهى شبشير ، إحدى بلاد المنوفية الحالية بالدلتا . ودأب مكاريوس الكبير منذ نعومة أظفاره على الذهاب إلى الكنيسة حيث وسمه أسقف الإقليم المجاور قارئاً كنسياً ، ثم أجبره أبوه على الزواج ؛ غير أن ميله الدينى دفعه إلى ألا يعاشر زوجته معاشرة الأزواج ، واحتج دائماً بأنه مريض (٦٠) . ولكى يبعد مكاريوس الكبير نفسه عن هـذا الصراع النفسى العنيف استأذن والده فى الذهاب إلى وادى النطرون ، فسافر مع قافلة من قوافل التجار الذاهبة إلى هناك ، حيث رأى حيـاة الرهبان القاطنين فى نتريا (٦١) . ثم عاد مكاريوس الكبير إلى بلده ، ليعلم أن زوجته توفيت وأن والده فقد بصره فبقى إلى جانبه ، وقام على خدمته حتى وفاته . وما لبثت أن توفيت والدته بعد ذلك

بقليل لخرج مكاريوس من قريته إلى أحد الأكواخ القريبة ، وعاش بها ناسكا .

غير أن إقامته خارج القرية لم تطل ، إذ عقد العزم على الذهاب إلى نتريا مرة ثانية ليعيش مع رهبانها (٦٢) . وهناك روايتان مختلفتان فى سبب ذهاب مكاريوس إلى وادى النطرون ؛ أولها ،أنه أتهم بالزنا بامرأة ، أثناء إقامته خارج القرية ، فثار أهل القرية وأوسعوه ضرباً ، حتى تعهد أن يعمل ليكفل نفقة هذه المرأة مدة حملها . غير أن المرأة اعترفت ببراءة مكاريوس عندما تعسرت ولادتها . فأسرع الناس يطلبون منه العفو على إساءتهم ، مما أدى به إلى الهروب إلى وادى النطرون ، إنكاراً لذاته (٦٣) . أما الرواية الثانية ، فهى أن أهل قريته رغبوا فى رسامته قساً ليقيم بينهم ، غير أنه لم يرغب فى ذلك،نسكاً منه ، ففضل الهروب إلى نتريا(٦٤). ومهما يكن من أمر السببالذى من أجله جاء مكاريوس إلى صحراء نتريا ، فإن هـــذا الحدث تم حوالى سنة ٣٣٠ م (٦٥) . ولم يطل مكاريوس الإقامة بها ، إذ انتقل إلى صحراء القلالى (سليا) ، حيث تقابل هناك مع آمون (٦٦) . ثم اعتزلها بعيداً نحو الجنوب فى المكان الذى أطلق عليه صحراء بترا الواقعة فى شمال شيهيت ، عند نقطة اتصالها بصحراء القلالى . وحفر مكاريوس لنفسه ،فى بترا ، مغارة بجوار إحدى القلاع الرومانية القديمة . ولكى يوفر على نفسه مئونة السير مسافات بعيدة لإحضار الماء ،حفر بئراً يستقى منها (٦٧) . وحوالى ذلك الوقت ذاع صيت القديس أنطونيوس فى الصحراء

الشرقية ، فذهب اليه مكاريوس ، ولبس إسكيم الرهبانية عنده إيذانا بدخوله الرهبانية الأنطونية . ويقال أنه ذهب الى الأنبا أنطونيوس مرة أخرى قبل رسامته قساً (٦٨) . ويلاحظ أن مكاريوس رسم قساً بعد أن أصبح له بعض التلاميذ ، بدليل أنه بعد عودته سأله تلاميذه عما جرى له من حديث مع القديس أنطونيوس فى الصحراء الشرقية . فأجاب بأنه أخبره بعدم وجود من يقوم بالطقوس الكهنوتية ، وتقديم القرابين ، وأن هذه المحادثة أدت إلى رسامته قساً (٦٩) .

ومع أن القديس مكاريوس الكبير هو أول من كون الجماعات الرهبانية فى شيهيت ، غير أنه لم يكن أول راهب سكن بها . ذلك أن سيرته ورد بها أن مكاريوس فى إحدى جولاته فى الصحراء الواقعة جنوب صخرة بترا ، وهى صحراء شيهيت ، وصل إلى مرج أخضر ، وفى وسطه ماء ، وحوله شجر صفصاف ، وتأمل لينظر فرأى رجلين ليس عليهما من الملابس إلا الجلود ، وشعرهما طويل وأظافر أيديهما وأرجلهما ، مثل أظافر الحيوان فارتعد مكاريوس فزعاً ثم كلمهما ، وسألهما عن أشياء كثيرة فأجاباه قائلين « نحن ما سكنا ديراً جملة ، ولا شاهدنا زياً مثل ما عليك ، لكنا اتفق أحدنا مع الآخر منذ زمان طويل ، وأتينا الى هذا الموضع ومنذ (يوم) جئنا الى هذا المكان ، لم ينظرنا من البشر ، الذين فى هذه الدنيا إلا أنت ، ونحن جائلين فى هذه البرية وننظر فيها حيوانات مختلفة الأجناس » (٧٠) . واشتغل مكاريوس الكبير فى بترا بعمل السلال ، التى أعطاها للجمالين ،

الذين أتوا لحمل النطرون ، ليبتاعوا له بثمنها خبزاً يابساً يقتات به . وذاع نسكه فانضم اليه كثيرون من الرهبـــان المجاورين الراغبين فى الحياة الرهبانية على يديه وحسب ارشاده ، فكان يلبسهم زى الرهبنة ، ويعلمهم شغل اليدين ، وأن يحفروا فى الجبل مغارات ، ويظللوها بالسعف » [٧١] .

ولم يكن هؤلاء الراغبين فى الحياة الرهبانية عنده من المصريين فحسب ، بل اجتمع اليه كثيرون من روما ، وأسبانيا ، وبلاد النوبة ، وقبادوقيه بآسيا الصغرى ، وبلاد الشام . وأقام هؤلاء فى قلالى متجاورة ، على صخرة بترا [٧٢] . وهكذا اجتـــذبت شخصية مكاريوس الكبير أعداداً من أوربا وآسيا ، جاءوا اليه ، رغبة فى حياة مسيحية وفق النظام الرهبانى ، الذى ذاع صيته فى هذه المناطق .

ومن الذين تتلمذوا فى هذا المكان على يدى القديس مكاريوس الكبير من غير المصريين ، الشابان مكسيموس ودوماديوس ، ابنا الامبراطور فالنتنيان الأول المسيحى (٣٦٤ - ٣٧٥ م) وهو الامبراطور ، الذى أحب رعيته من المسيحيين ، حتى لقبه أهل مصر بقسطنطين الجديد . واهتم فالنتنيان بتربية أولاده تربية دينية حتى ، «امتلأ القصر الإمبراطورى بصلوات ليلية ونهارية» [٧٣] . ثم رغب هذان الأخوان فى حياة الرهبنة . ولعلمهما بمعارضة أبيهما لهذا الاتجاه ، طلبا منه أن يسمح لهما بزيارة نيقية [٧٤] ، فسمح لهما . وهناك تقابلا مع أحد الرهبان واسمه يوحنا ، وهو راهب دأب رجال الدولة على الذهاب اليه للاستماع إلى نصائحه.

فاستقبلها بكل عناية وتبجيل ، وبعد مدة أقاماها عنده ، أعلماه برغبتهما .

غير أن يوحنا خاف عقاب الإمبراطور [٧٥] ، فأرسلهما إلى الاب أغابيوس ، أحد الرهبان فى بلاد الشام ، ليتتلمذا على يديه ، فأقاما عنده حوالى ست سنوات عاكفين على التقوى والنسك ، ولبسا ملابس الرهبان السوريان السوداء [٧٦] . وبلغت تقوى هذين الراهبين مبلغاً كبيراً حتى أن البحارة ، كتبا اسميهما على قلاع مراكبهم تبركاً . ويقال أن أباهم الذى ظل يبحث عنهما دون جدوى ، عرف مكانهما من هذه القلاع فأراد أن يرشح أحدهما لتولى كرسى كنيسة القسطنطينية ، فلم يرغب واحد منهما فى هذه الوظيفة ، بل عقدا العزم على الهرب الى وادى النطرون [٧٧] ، فركبا البحر حتى وصلا الى مصر ، ثم سارا فى الصحراء حتى وصلا الى مكان القديس مكاريوس الكبير ، ورغبا فى الحياة معه . وعندما رأى عزمهما وقوة إرادتهما ، رحب بهما ، وأعطاهما فأساً ليحفرا قلايتهما ، ثم علمهما ضفر الخوص ، وعمل السلال [٧٨] . وخلع هذان الراهبان الامبراطوريان الملابس الرهبانية السوريانية ، وألبسهما القديس مكاريوس ملابس الرهبان المصريين . وقيل أنهما فعلا هذا ، رغبة فى إخفاء نفسيهما عن مندوبى ابيهما الإمبراطور ، إن حدثته نفسه فى البحث عنهما [٧٩] .

ولما كان هذان القديسان أجنبيين عن مصر ، لم يكن سهلا عليهما التفاهم مع سائر الرهبان من المصريين ، فقضيا حياتهما دون أن يزورا انساناً ، وكان طعامهما من الخبز والملح ، ولم

يفتحا قلايتهما إلا لعامل عجوز من عمال مناجم النطرون ، تولى بيع انتاج أيديهما . أما حين ذهابهما إلى الكنيسة ، فإنهما أمضيا فترة الصلاة دون أن يرفعا وجهيهما عن الأرض [٨٠] .

ولم يعمر هذان الشابان طويلا ، إذ توفيا فى ريعان شبابهما ، وفى سنة واحدة ، حوالى سنة ٣٨٤ م ، فقبرهما القديس مكاريوس بجوار المغارة التى حفراها . وأخـبر عنهما الرهبان أنهما « أرضيا الله بأعمالها » مما جعل الكثيرين يتسابقون فى بناء القلالى بجوار هذه المغارة [٨١] ، وبنى الاب « مقاره » كنيسة تذكارية حسنة على مقربة من هذه القلالى الجديدة التى سماها قلالى « جماعة الروم » [٨٢] وهكذا تأسست جماعة رهبانية حول المكان الذى دفن فيه الراهبان مكسيموس ودوماديوس ، وهو غير المكان المعروف حاليا بدير البراموس ، برغم قول بعض المراجع بذلك [٨٣] . ومما يدل على أن دير البراموس الحالى ليس هو المكان الذى نشأ فيه الراهبان مكسيموس ودوماديوس ، مـا ذكره سيرابيون ، أنه فى وقت ما « اجتمع سبعـة من الشيوخ القديسين ليمضوا إلى برية القديس مكاريوس ، فلما جازوا على « قلاية الابهات » (الآباء) الروم وعبروا على قلاية موسى الأسود ، سألهم الاب موسى ، إلى أين أنتم ماضين ؟ فأجابوه ، إلى عند الاب مكاريوس » [٨٤] . والراهب موسى هذا هو الذى كون جماعة رهبانية أوائل القرن الخامس الميلادى على مقربة من جماعة مكسيموس ودوماديوس ، وذلك فى المكان الذى بنى فيه فيما بعد الدير المعروف الآن بدير البراموس ، والمسمى هكذا ، لنقل جسدى القديسين الرومانيين

اليه ، حيث دفنا إلى جواره [٨٥] . ومعنى هذا أن هـذا الدير الحالى سمى كذلك لنقل عظام القديسين مكسيموس ودوماديوس اليه من مكانهما (المغارة) التى دفنا بهـا بعد موتهما .

ومن تاريخ البطاركة ما يشير إلى المجموعتين فى القرن السابع الميلادى، إذ ورد فى ذكر الأنبا بنيامين البطريرك الثامن والثلاثين فى عداد البطاركة ؛ حيث ذهب لتكريس الهيكل المسمى باسمه فى دير القديس مكاريوس الكبير ؛ إذ بعد سفره من الاسكندرية يقول، وصلنا إلى تروجه ، وتلقانا أهلها بفرح عظيم ؛ ثم وصلنا إلى برية المنى ، التى لأنبا اسحق عند جبل برنوج ؛ وفرح بنا أيضاً الاخوة الذين هناك ، وأقمنا يومين وودعونا ، وسار بعضهم معنا ليدلونا على الطريق المؤدية إلى البرية ؛ وكانوا قديسين فضلاء ، فوصلنا إلى غاية برية جبل النطرون . ثم توجهنا إلى دير براموس، ومكسيموس ودوماديوس ؛ ونزلنا ببيعة القديس إيسيذور وأقمنـا هناك يوماً واحداً ... وتوجهنـا فى اليوم السابع من طوبة إلى بقيـــة الديارات وتباركنا منهـا وتوجهنا إلى دير القـــديس أبى مقار » [٨٦] .

أما القديس مكاريوس الكبير، فإنه بعـد أن ازدحمت صخرة بـترا بالـكثيرين ، رأى أن ينتقل إلى بقعة أخرى ، تصبح فيها حياته أكـثر قسوة ، إمعاناً فى النسك ؛ فانتقل فى داخل شيهيت ، إلى موقع فى جنوب الوادى ، وهو المـــكان الذى عرف باسم إسقيط القديس مكاريوس ، تميـيزاً له عن سائر برية شيهيت . وأقام القديس مكاريوس هناك فى قلاية حفرها بنفسه ، ليقضى بها

بقية حياته فى شظف من المـأكل والمشرب ، حيث لا تتوفر المياه كثيراً ، لانخفاض منسوبها ورداءتها . وسرعان ما عمرت هذه البقعة بالكثيرين من الوافدين عليه ، فألبسهم مكاريوس إسكيم الرهبانية ، وأمر جميعهم أن تكون إقامتهم فى مجموعات متجاورة [٨٧] . وفى هذا دليل على أن القديس مكاريوس الكبير قد اقتنع بأهمية الناحية الاجتماعية فى الحياة الرهبانية ، ولكن لا يوجد ما يشير إلى أى نظام ديرى أوجده القديس مكاريوس الكبير .

ولم تنقطع زيارة مكاريوس لجماعته الرهبانية الأولى ، بل دأب على زيارتها مع بعض الرهبان ، لوجود النخيل والبردى على مقربة منها ، فإذا قام بالخدمة الدينية ، من تعليم ، وصلاة بالكنيسة التذكارية فى زيارة من هذه الزيارات ، عاد مع جماعته من الرهبان حاملين السعف والبردى اللازمين للعمل اليدوى [٨٨] .

وأقيمت القلالى فى هذا الموقع الجديد فوق الصخرة ، وهيأ مكاريوس كل ما يلزم لراحة تلاميذه ، فحفر بئراً سميت فيما بعد بئر « مارى مقار » [٨٩] . كما بنى كنيسة ليوفر على الرهبان متاعب السير إلى كنيسة الآباء الروم [٩٠] . وظل القديس مكاريوس الكبير يجاهد فى الحياة الرهبانية هناك حتى وفاته سنة ٣٩٠ م ، وذكر الأسقف سيرابيون فى أخبار وفاة أبى مقار ، «أن جماعة من الرهبان حملوا جسد الأب القديس العظيم إلى المغارة التى بجانب البيعة ، التى بناها هو ، وانصرفوا إلى قلاليهم بحزن عظيم » [٩١] . وبذلك يمكن أن نحدد تأسيس جماعة مكاريوس الكبير فى الإسقيط

فى المدة الواقعة بين وفاة القديسين مكسيموس ودوماديوس ، وبين وفاة أبى مقار ، أى بين سنتى ٣٨٤ — ٣٩٠ م .

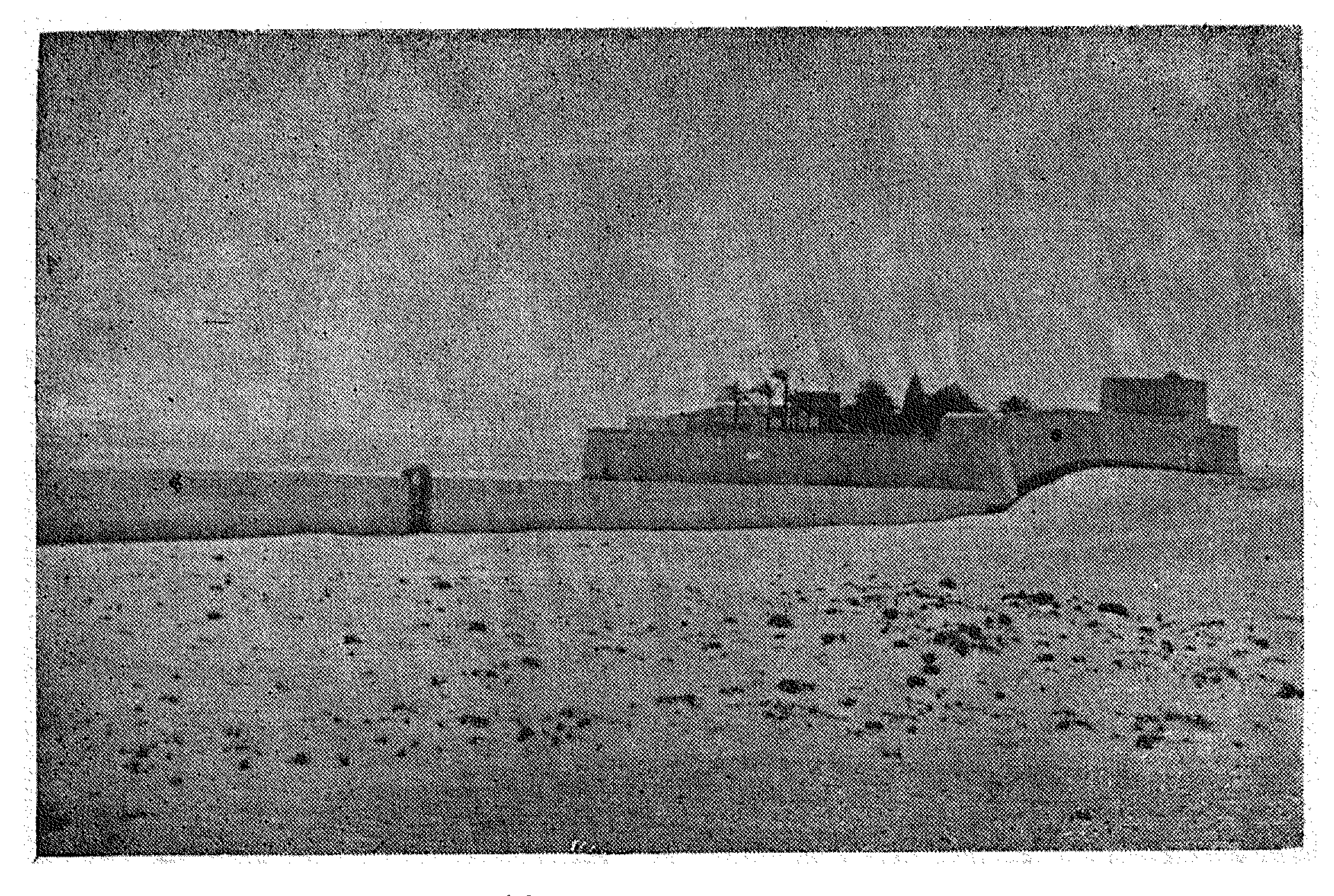
ويجاور دير مكاريوس الحالى ، موقع القلالى التى تكونت فيها جماعة القديس مكاريوس . على أن هذا القديس الكبير شهد قبل وفاته جماعتين رهبانيتين آخريتين فى شيهيت ؛ وأولها جماعة القديس يوحنا كولوبوس ، المعروف بيوحنا القصير الذى ولد من عائلة فقيرة فى إقليم Oxrynchus ، وهى البهنسا الحالية حوالى سنة ٣٣٩ م (٩٢) . ثم أنه عندما بلغ الثامنة عشر ، رغب فى الحياة الرهبانية ، إلا أنه تردد قبل أن يقبل عليها ، فخرج إلى بعض الأماكن الموحشة ، يدرب نفسه ، ليعرف مدى مقدرته على هذه الحياة الدينية الصارمة (٩٣) . واطمأن يوحنا إلى نفسه فخرج إلى وادى النطرون ، ليتتلمذ على القديس بامو الذى أصبحت له رئاسة نتريا واعداد الرهبان المنفردين فى سليا ، بعد وفاه الأنبا آمون (٩٤) . ويقال أن اختيار يوحنا القصير الرهبنة على يدى القديس بامو لأنه من بلدته ، فأقام فى قلاية إلى جواره . ومن تلك الاختبارات ، التى اجريت على يوحنا القصير لقبوله راهباً ، بل أنها أثرت فى حياة يوحنا القصير ، ما ذكر عن القديس بامو ، أنه أعطى يوحنا غصناً جافاً ، طالما توكأ عليه ، وأمره أن يغرسه على مسافة بعيدة ويتعهده بالسق . وعلى الرغم من صعوبة نقل المياه إليه ، وجفاف هذا الغصن ، فإن يوحنا ، لم يتأخر عن تنفيذ أمر معلمه ، حتى أنه بعد ثلاث سنوات ـ على قول الرواية ـ نبتت العصا ، وحملت أثماراً ، أتى بها إلى

معلمه ، الذى قدم الثمار لتلاميذه قائلا « خذوا كلوا من ثمار شجرة الطاعة » (٩٥) . ثم أن القديس بامو ، توالت زياراته لقلاية يوحنا لتعليمه الإنجيل ، وتدريبه على حياة النسك ، حتى وصل يوحنا إلى درجة عالية فيها . وشهد له زملاؤه حين قال أحدهم « أن الاب يوحنا القصير إرتفع أكثر منا ، وذلك لنقاء قلبه ، وتواضعه الحق ، ففاق كل من فى شيهيت » (٩٦) .

وعاش يوحنا القصير مع القديس بامو إثنتا عشرة سنة ، وعندما أشرف القديس بامو على الموت ، أوصى تلميذه قائلا « يا يوحنا يا ولدى عندما أغادر هذا العالم ، إذهب وعش فى المكان حيث زرعت الشجرة ، إذ أن هذه الشجرة ، التى لك فضل إنباتها هى رمز لهذه النفوس التى ستنقذها فى هـــذا المكان ، والتى ستجعل لك ذكرى أمام الله » (٩٧) .

وعندما توفى الأنبا بامو ، ذهب يوحنا إلى حيث الشجرة ، وابتنى لنفسه مغارة فى وسط برية شيهيت ، فى مكان يقع على مقربة من دير تأسس فيها بعـــد ، وهو المعروف الآن بدير السوريان أو يوحنا كاما . وذاعت سيرة الأنبا يوحنا النسكية فاجتمع حوله كثيرون ممن رغبوا فى الحياة حوله ، وحفروا لأنفسهم بئراً ، لتوفر عليهم مشاق السفر إلى مسافات بعيـــدة لإحضار الماء من الآبار القديمة ، حتى إذا ازداد عدد قلالى هذه المجموعة ، بنى لهم يوحنا كنيسة حوالى سنة ٣٨٠ م (٩٨) .

غير أن رهبان هـــذه المجموعة فروا أوائل القرن الخامس الميلادى ، هرباً من هجمات البرابرة ، الذين هدموا القلالى والكنائس



« منظر خارجي لدير السوريان الحالى »
بوادى النطرون

فى شيهيت . وانتقل يوحنا القصير بهذه الجماعة إلى الصحراء الشرقية ، حيث عاش تلاميذ القديس أنطونيوس . ومات يوحنا القصير فى هذه الصحراء الشرقية ودفن هناك [(٩٩)] .

أما المجموعة الثانية التى شهدها القديس مكاريوس الكبير فى شيهيت ، فهى مجموعة القديس بيشوى . وولد هذا القديس فى ابشنشا ـ مركز أجا مديرية الدقهلية الحالية ـ ومات أبوه ـ ، فتولت أمه تربيته مع إخوته السبعة ، وهو أصغرهم [(١٠٠)] . وعندما بلغ سن الشباب رغب بيشوى فى حياة الرهبانية ، فذهب إلى وادى النطرون ، وأصبح زميلا ليوحنا القصير فى البرية وتتلمذ معه على يد الأنبا بامو [(١٠١)] ؛ وداوم بيشوى على حياة النسك . فأقام ثلاث سنوات لم ينظر إنسياً سوى وجه مرشده ، كما عكف على القراءة فى الإنجيل والتوراة . وقيل أنه حفظ سفر أرميا حتى لقبه البعض بيشوى الأرمى [(١٠٢)] . وعاش بيشوى مع زميله يوحنا القصير ، فى المكان الذى زرعت فيه شجرة الطاعة ، ثم انفصل عنه بعد مدة وجيزة ، وسكن فى مغارة قريبة [(١٠٣)] . وليس هناك تاريخ مضبوط لقيام جماعة رهبان الأنبا بيشوى ؛ غير أنه يمكن ربط تاريخ قيامها بوفاة الأنبا بامو ، التى حدثت حوالى سنة ٣٧٤م ، وانتقال الأنبا بيشوى إلى المغارة التى عاش فيها بعد انفصاله عن الأنبا يوحنا القصير . وهذه المغارة هى النواة التى تجمعت حولها الكثير من قلالى الرهبان الذين سكنوا إلى جوار الأنبا بيشوى فألبسهم الاسكيم [(١٠٤)] ، كما بنى لهم كنيسة ، هى الرابعة فى عداد كنائس شيهيت فى القرن الرابع الميلادى [(١٠٥)] .



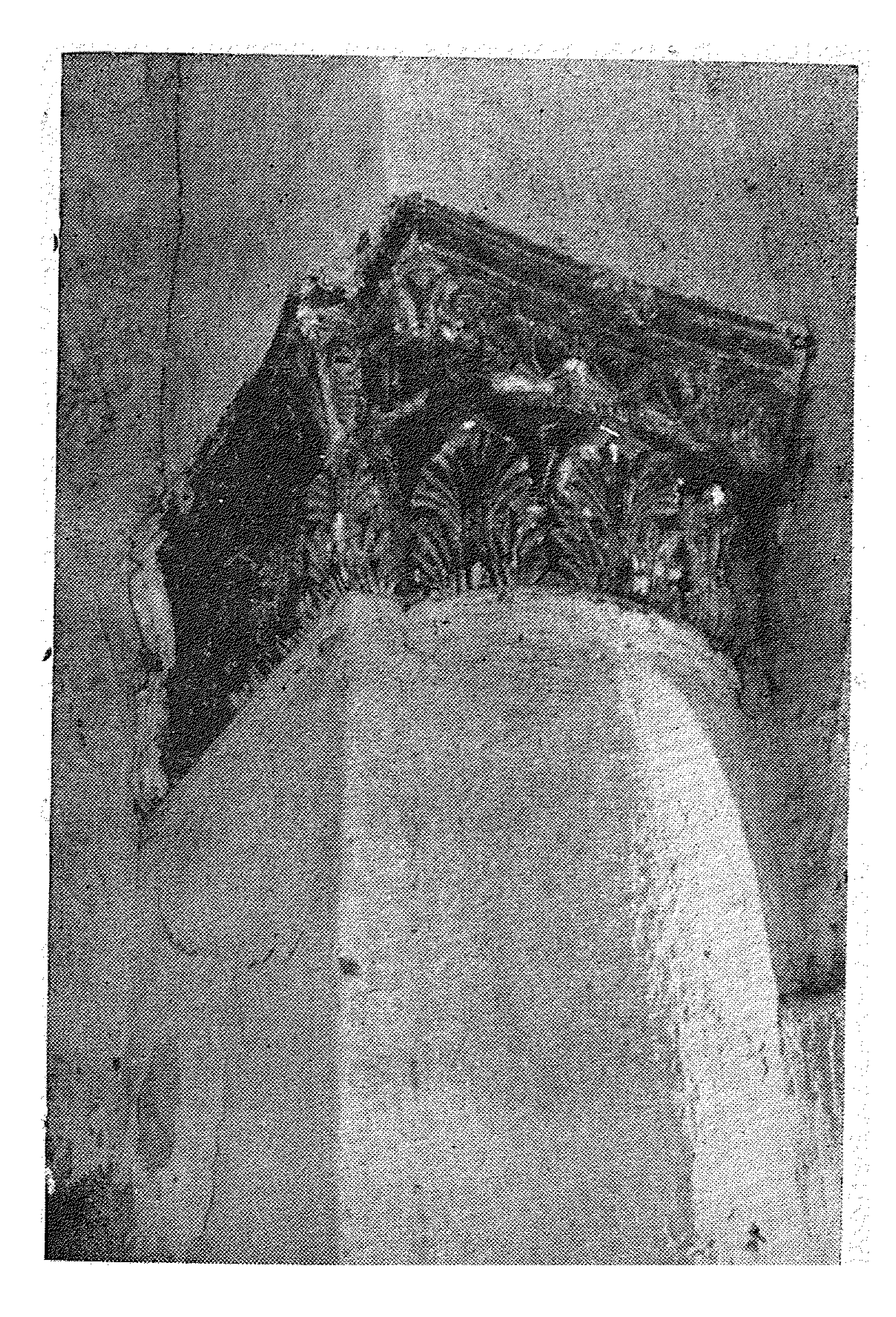
صورة قديمة للانبا بيشوى فى ديره الحالى
بوادى النطرون

غير أن الأنبا بيشوى ورهبانه هربوا كذلك من وجه البربر الذين أغاروا على جماعته أوائل القرن الخامس الميلادى . فأقام عند القديس بولا الطموهى ، وظل هناك حتى وفاته ، ثم نقل جسده فيما بعد إلى المكان الذى بنى عليه ديره الحالى (١٠٦) .

ومما سبق يمكن القول ، أن أول الجماعات الرهبانية الأربعة بشيهيت ، بعد جماعة آمون ، هى الجماعة التى تكونت حول مكاريوس الكبير ، فى بترا بشمال شيهيت ، ثم الجماعة التى تكونت حول قلاية مكسيموس ودوماديوس حوالى سنة ٣٨٤م . وفى المدة الواقعة بين سنة ٣٧٥ ، سنة ٣٨٥م تكونت جماعة كل من يوحنا القصير وبيشوى فى وسط شيهيت ، ومما يؤيد هذه التواريخ بالإضافة إلى ما ورد فى سير هؤلاء الرهبان ، أن يوحنا كاسيان الذى زار شيهيت حوالى سنة ٣٨٥م رأى بها أربعة كنائس ، لكل منها كاهن أعظم (ايغومانوس) . ومن المعروف أن كل جماعة بنيت فى وسطها كنيسة (١٠٧) .

راهبات فى وادى النطرون :

ومما يدعو إلى الالتفات ، أن بعض هذه الجماعات الرهبانية فى وادى النطرون ، احتوت على راهبات من النساء . غير أنه لما كانت الرهبانية حتى القرن الرابع الميلادى قاصرة تقريباً على الرجال ، فإن أولئك الراهبات عشن مقنعات ، أو لابسات زى الرجال ، مثال ذلك الراهبة ليديا ، التى كانت كاتبة مشهورة من تسالونيكى فتزيت بزى الرجال ، وزارت مكاريوس الاسكندرى،



عمود قـديم فى دير البراموس — لاحظ دقة
الصناعة والفن القبطى أعلاه

وأمضت سنة كاملة فى إحدى القلالى فى سليا ، وكانت تقابل مكاريوس الاسكندرى ، كواحد من الرهبان مرة كل أسبوع[١٠٨].

ومن الراهبات المنفردات كذلك الراهبة أبوليناريا ؛ ابنة الامبراطور أنتميوس الكبير ، التى رغبت فى حياة النسك ، فرفضت الزواج ، ورحلت فى قافلة الحج إلى أورشليم ، ومنها إلى الاسكندرية ، حيث لبست لباس الراهبات ، ثم إلى الإسقيط حيث تسمت بإسم الراهب دوروثيوس ؛ وحدث ذلك فى حياة القديس مكاريوس الكبير . وظلت هذه الراهبة تحيا حياة النسك وتعيش كغيرها من الرهبان ، ولم يكتشف أمرها إلا عند تجهيزها للدفن[١٠٩].

ولم يقتصر الأمر على هذه الحالات المقنعة للراهبات ، بل أن . بعضهن تطورت حياتهن — فيما يبدو — إلى نوع من الديرية، مثال ذلك ، أخوات الراهبين يوزبيب ويوثيموس ـ وهم من رهبان وادى النطرون — اللاتى دخلن ديراً للنساء على مقربة من نتريا[١١٠] .

وخاتمة القول ، فإن هذه المثل التى رأيناها والتى أضاءت برية وادى النطرون ، بل أضاءت تاريخ المسيحية بشعلة من النشاط الروحى والعلمى سنراه واضحاً فى الفصول التالية ؛ أقول هذه المثل ، إنما تظهر بجلاء أحوال مصر فى هذا القرن ، وكيف أن الرهبنة كانت مقاومة صامتة للاحتلال البيزنطى للبلاد ، حتى أن الأباطرة حسبوا ألف حساب لكل هذه الجيوش التى ملأت صحارى مصر وقفارها ، لا هرباً من المسئوليات ، وإنما كفاحاً من أجل الروح ، مع عمل مثمر من أجل الحياة الجسدية أو الحياة المادية ، دون أن تطغى المادة على الروح ، فكانوا بذلك الشعلة الأولى التى أضاءت ظلام العصور الوسطى .

مراجع وشواهد الفصل الثانى

(١) Butler: Lausiac History of Palladius V II P.P. 187-188.

(٢) Hanotaux : Histoire De La Nation Egyptienne, V I P. 327.

(٣) طوسون ، عمر : وادى النطرون رهبانه وأديرته ص ٥

Cabrol : Dict. D'Arch. Chret. T. II P.3126.

(٤) يعتقد Savary أن هذا الوادى يمثل مجرى النيـــل قديماً قبل أن يحوله مينا ، غير أن كاترمير يستبعد هذا الرأى - أنظر Savary : Lettres Sur L'Egypte T I P. 12.

(٥) D, Anville : Memoires Sur L'Egypte, T I P. 57.

Sicard : Lettres Edifiantes Et Curieuses Tv P. 423'

Julien : Voyage Au Desert De Scete Et Nitrie Txiv P. 33.

(٦) كتابات يوحنا كاسيان وروفينوس وجيروم وبـلاديوس وغيرهم — راجع ما يلى بالفصل الخـــامس . أما المخطوطات القبطية فأهمها سير مكاريوس الكبير ومكاريوس الاسكندرى ومكسيموس ودوماديوس وبيشوى ويوحنا الصغير .

(٧) O' Leary De Lacy : The Saints of Egypt. P. 216.

(٨) راجع Butler : Historia Lausiaca , Ch. XXXVIII

(٩) سرابيون : ميمر مـكاريوس الكبير ص ٤٢ — ٤٣ ،

A. M. G : T XXV P. XLVI.

نص خبر صعود مـكاريوس المصرى من شيهيت إلى برنوج

ⲁⲩϫⲟⲥ ⲉⲑⲃⲉ ⲁⲃⲃⲁ ⲙⲁⲕⲁⲣⲓ ⲡⲓⲣⲉⲙ
ⲛⲕⲏⲙⲓ ϫⲉ ⲉϥⲛⲏⲟⲩ ⲉⲡϣⲱⲓ ⲛⲟⲩⲥⲟⲛ ⲉⲃⲟⲗϧⲉⲛ
ϣⲓⲏⲧ ⲉⲡⲓⲧⲱⲟⲩ ⲛⲧⲉ ⲡⲉⲣⲛⲟⲩϫ."

(١٠) Palladius : The Paradise V I Intr. P.P. 44 & 99 - 100

(١١) ابن المقفع ، ساويرس : تاريخ البطاركة جـ ١ ص ٢٤٢ .

(١٢) بلاديوس : بستان الرهبان ، نسخة المتحف القبطى الخطية المنقولة عن نسخة دير البراموس ص ١٨ — ٢٠

(١٣) Butler : Lausiac History V II P. 188.
Cassien : a,Institutiones, P. 87.
b, Conferences : P. 27.

(١٤) Cabrol : Dict. D'Arch. Chret . T II P 3124 .
المسعودى ، تحفة السائلين ص ٤٤ — ٤٥ .

(١٥) Amelineau : La Geog . De L, Egypte, P.319.

(١٦) Champollion : L' Egypte Sous Les Pharaons T II P.P. 295-296.

(١٧) شيهيت كلمة قبطية معناها « ميزان القلوب » وسميت كذلك إذ رأى فيها الرهبان المكان الذى يجتمعون فيه للتأمل فى مدى علاقتهم بالله ومحبتهم له فى قلوبهم .
راجع A. M. G. T XXV P.P. 262-264.

(١٨) Besse : Les Moines D'Orient, P. 8.

(١٩) أسقيط مختصره من الكلمة اليونانية ⲁⲥⲕⲓⲧⲏⲣⲓⲟⲛ أى منسك أو مكان العبادة .

(٢٠) Amelineau : La Geographie De L'Egypte, P 436.

(٢١) Cabrol : Dict. D'Arch. Chret. T II P. 3127.

(٢٢) أنظر ما يلى بهذا الفصل . راجع كذلك
Amelineau : op. Cit P 447.

(٢٣) Palladius : op. Cit V I P. P. 135 - 136.

(٢٤) المقريزى : المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ١٨٦

(٢٥) ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار جـ ٥ ص ١١٢ .

(٢٦) ابن الجيعان : التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية ص ١٣٦ .

(٢٧) مبارك ، على : الخطط التوفيقية جـ ١٧ ص ٤٨ .

(٢٨) White E : History of Monasteries of Nitria V II P.40

(٢٩) Ibid . P. 60.

(٣٠) كانت هناك عادة ذهاب بطاركة الأسكندرية إلى دير القديس مكاريوس لطبخ الميرون الذى تكون من بقايا بعض الحنوط (المواد) التى قيل أنها وضعت على جسد السيد المسيح . وأضيفت إليها زيوت ومواد أخرى ، وتولى البطريرك طبخها . وتقام صلاة خاصة لهذا السبب .

(٣١) يوحنا الصغير . سيرة أنبا بيشوى ـ مخطوط ورقة ٣٥ . راجع أيضاً السنكسار القبطى تحت تاريخ ٢٦ طوبة .

(٣٢) المقريزى : المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ١٨٦ .

(٣٣) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٢٤ .

(٣٤) مبارك ، على : الخطط التوفيقية جـ ١٧ ص ٤٨ .

(٣٥) Cabrol : Dict. D'Arch. Chret. T II P. 3126.

(٣٦) Hanotaux: Hist. De La Nation Egypteinne T I P.328

(٣٧) Butcher: The Story Of The Church Of Egypt V I
P.P. 107-108.

(٣٨) Palladius : The Paradise V I P. 102.

(٣٩) Socrates : Ecclesiastical History B. IV P. 235.

(٤٠) Duchesne : Histoire Anc. De L' Eglise T II P. 493.

(٤١) Socrates : OP. Cit B. IV P. 235.

(٤٢) Butcher : OP. Cit. V I P. 108.

(٤٣) O'Leary De Lacy : The Saints Of Egypt. P. 72.

يقال أنه بعد أن تناول الأنبا أنطونيوس مع الأنبـــا
آمون الطعام فى عصر يوم الزيارة ، سار الاثنان إلى الجنوب،
حيث أوضح أنطونيوس لآمون قيمة سليا .

(٤٤) Besse : Les Moines D'Orient P. 8 .

(٤٥) Socrates : OP. Cit. B IV P. 235.

(٤٦) O'Leary De Lacy : OP. Cit. P. 72.

(٤٧) راجع Palladius: The Paradise V I P.P. 44 & 113.

(٤٨) White E : Monasteris of Nitria, V II P. 56.

(٤٩) ايسيذوروس ، الأسقف ، الخريدة النفيسة ج ١ ص ٢٤٨ .

(٥٠) White : OP. Cit V II P. 57.

(٥١) Curzon : Visits To The Monasteries Of The
Levant. P. 77.

(٥٢) Cheneau : Les Saints D'Egypte T I P. 19.

(٥٣) A. M. G. T XXV P. 243.

(٥٤) Duchesne : Hist. Ancienne De L'Eglise T II P. 494.
Palladius : OP. Cit V I P. 117.

(٥٥) Cheneau : OP. Cit. T I P.P. 13-14.

(٥٦) Mackean : Christian Monasticism, P 84.

(٥٧) Amelineau : La Geographie De L' Egypte, P. 438.

(٥٨) يوحنا الصغير : سيرة الأنبا بيشوى مخطوط ـ ورقة ١٣٤ ا
وميمر أنبا مقار الكبير وأنبا مقار الاسكندرى مخطوط ص٢٩ .
سيرابيون : ميمر أنبا مكاريوس الكبير ورقة ١٢٦ ا .

(٥٩) Palladius : The Paradise V II P. 193.

(٦٠) سيرابيون : المرجع السابع ص ٥-٩ .

(٦١) Amelineau : La Gcog. De L'Egypte A L'Epoque Copte P.P. 434-435.

سماه البعض مكاريوس الجمال لذهابه مع قافلة إلى وادى النطرون.

(٦٢) سيرابيون : ميمر القديس مكاريوس ورقة ١٠ ا.

(٦٣) سيرابيون : ميمر القديس مكاريوس ورقة ٩ ، ١٠ ، ١١ .

(٦٤) نفس المرجع : ورقة ٨ ب .

(٦٥) A. M. G. : T. XXV Intro. P. XXXVI.

(٦٦) Waddell H. : The Desert Fathers P.P. 79-80.

(٦٧) سيرابيون : المرجع السابع ورقة ١٢ .

(٦٨) نخبة من آباء الكنيسة : الصادق الامين جـ١ ص ٣١٣ .

(٦٩) White : OP. Cit V II P.P. 67-68.

(٧٠) سيرابيون : ميمر القديس مكاريوس الكبير ورقة ١٣ ب .

(٧١) نفس المرجع : ورقة ١٥ ا ـ أنظر كذلك Cheneau:OP. Cit. V I P. 119.

(٧٢) نفس المرجع : ورقة ٢٧ ا .

(٧٣) A. M.G : T XXV - P.P. 265-266.

(٧٤) الدويرى ، يسطس : موجز تاريخ المسيحية ص ٢١٤ .

(٧٥) سيرابيون : ميمر مكسيموس ودومادبوس ورقة ٣٤ .

(٧٦) A. M.G: OP. Cit. P.P. 267-269.

(٧٧) سيرابيون : المرجع السابق ورقة ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٤ .

(٧٨) نفس المرجع : ورقة ٤٦ .

(٧٩) Graffin : Patrologia Orientalis T V C 752 ،
A. M. G. : T XXV P. 296.

(٨٠) Ibid. P. 297.

(٨١) ايسيذروس : الخريدة النفيسة جـ١ ص ٥٦٩ .

(٨٢) سرابيون : المرجع السابق ورقة ١٥ ا .

(٨٣) البراموس هى الترجمة العربية للكلمة القبطية « باروميوس » .

(٨٤) سيرابيون : ميمر القديس مكاريوس ورقة ٢١ ب .

(٨٥) كان موسى الاسود لصاً ثم أتى إلى البرية وتتلمذ على يد القديس مكاريوس الكبير - راجع :

Quatremere : Mem. Geog. & Hist. V I P. 470.

(٨٦) ابن المقفع ، ساويرس : تاريخ البطاركة ص ٢٤٢ .

(٨٧) Amelineau:La Geog. De L'Egypte P. 437.

(٨٨) Cheneau : OP. Cit T. I P. 119.

(٨٩) مبارك ، على : الخطط التوفيقية جـ ١٧ ص ٤٨ .

(٩٠) سيرابيون : ميمر مكاريوس الكبير ورقة ١٥ ب .

(٩١) نفس المرجع ورقة ٣١ ب .

(٩٢) A. M. G. T XXV P. 324.

(٩٣) Ibid. P.P. 327-328.

(٩٤) يسمى فى بعض المخطوطات القديس باموية ، بامبوا - أنظر
Graf G : Catalogue De Manuscrits Arabes P. 268.

(٩٥) A. M. G. T XXV P P. 349-350.

(٩٦) Ibid : P.P. 343.

(٩٧) Ibid : P. 351.

(٩٨) Ibid : P. 352.

(٩٩) Ibid : P.P, 390-391.

(١٠٠) يوحنا الصغير ، ميمر الانبا بيشوى ورقة ٢ ا .

(١٠١) نفس المرجع : ورقة ٤٢ ب .

(١٠٢) نفس المرجع : ورقة ٣ ا ، ٤ ا .

(١٠٣) A. M. G. : T XXV P. 98.

(١٠٤) يوحنا الصغير : المرجع السابق ورقة ٤ ب .

(١٠٥) نفس المرجع ورقة ٢٠ ، ٢١ ا .

(١٠٦) نفس المرجع : ورقة ٣٧ ب ، ٣٨ ا .

(١٠٧) Butler : Lausiac Hist. Of Palladius V II P. 189.
Cassien : Instit. L I P. 87.

(١٠٨) A. M. G: T XXV P.P. 240-241.

(١٠٩) White E. : Hist. Of The Monasteris of Nitria P. 118

(١١٠) Besse : Les Moines D'Orient. P. 8.

الفصل الثالث

التنظيمات الادارية والاقتصادية للرهبان

إدارة الرهبان فى نتريا ـ علاقة الرهبان بالوظائف الاكليروسية ـ إدارة سليا ـ إدارة شيهيت ـ نظام قبول الراهب فى هذه الجماعات ـ المنابع الاقتصادية ووجوه الصرف ـ تقاليد الضيافة والزيارة عند الرهبان .

إدارة الرهبان فى نتريا :

قام على إدارة كل جماعة من الجماعات الرهبانية مؤسسها، وخلفه فى رتبته أكبر تلاميذه . وأطلق الرهبان على هذا الرئيس لقب الأب ـــ « أو الأنبا » ABBA . ولم يكن هذا اللقب فى وادى النطرون ، جديداً فأنطونيوس، لقب بأب رهبان الجبل الشرقى ، بعد أن تتلمذ على يديه العدد الكبير من الرهبان فى الصحراء الشرقية عامة، وبوادى النطرون كذلك.

والنظام الأبوى نتيجة طبيعية لهذا المجتمع الجديد ، الذى خضع فيه الراهب خضوعاً تاماً لمرشده الدينى ونسى والديه ، ودفعته الغريزة الإجتماعية [1] ، إلى أن يتخذ من هذا المرشد الدينى أباً روحياً له، يشكو له آلامه، ويبث إليه أسراره وأفكاره، ويتلمس عنده حلولا لمشكلاته، فى غير خوف أو خشية ، أو وازع من القانون . وعلى هذا الأساس، أصبح آمون أب رهبان نتريا ، ومكاريوس الاسكندرى أب رهبان سليا ، ومكاريوس الكبير

أب رهبان جماعته فى بريه شيهيت ، وكذلك الحال بالنسبة ليوحنا القصير وبيشوى .

وإذ تتلمذ بعض الرهبان على يدى واحد من هؤلاء فإن الصدفة لم تكن السبب فى إختيارهم لهذا الاب . بل تدخلت فى اختيارهم لهذا الاب ، عدة عوامل ؛ أولها ، أن بعضهم فضل أحد الآباء الذى تربطه بهم صلة القرابة ، وثانيها أن البعض الآخر اجتمع حول أب ، عرفوا أنه من أبناء إقليمهم ، حيث انتشرت قصص عن نسكه بين أهله ومعارفه ، ففضلوا أن يتخذوا منه مرشداً ورئيساً لعله يكون أكثر حدباً عليهم ممن لم يعرفوه .

غير أن العامل الثالث هو أقوى العوامل جميعاً ؛ وذلك أن شهرة الأب لعبت دوراً هاماً فى إلتفاف الكثيرين ، حوله فنشأ عن هذا حركة إستقلالية بين بعض الجماعات والأخرى . ولعل فى هذا ما يلقى الضوء على سبب وجود أب واحد وكنيسة واحدة لرهبان نتريا الخمسة آلاف ، وآخر لسليا التى كانت فى بداية عهدها بالحياة الرهبانية تابعة لنتريا فى رئاستها وجميع أمورها الاقتصادية ، بينما وجد كذلك أربعة آباء واحد لكل جماعة من جماعات برية شيهيت وبنيت كنيسة لكل جماعة .

الرهبان والوظائف الاكليروسية :

وخضع رهبان نتريا جميعاً لرئاسة واحدة تركزت لأول مرة فى يد الأنبا آمون ، مؤسسها ، وذلك على الرغم من اتساع

مساحتها وكثرة عدد رهبانها . ومع أنه لم يرد ما يفيد عن قيام الأنبا آمون بالوظيفة الكهنوتية لجماعته [٢] ، غير أن بلاديوس الذى زار نتريا بعد وفاة الأنبا آمون بحوالى ثلاثة وستين سنة ، ذكر عن وجود ثمانية قسيسين ، رأسهم كبيرهم الذى أصبح كاهناً أعظم ، وانفرد بالخدمة الدينية فى الكنيسة ، على حين لم يشترك السبعة الآخرون فى صلاة القداس الإلهى ، أوالوعظ ، أوالتعليم . بل جلسوا إلى جواره فى الاجتماعات العامة التى عقدها الرئيس للإرشاد أو الوعظ [٣] . ومعنى هذا أن الكاهن الأكبر أو مايسمى الايغومانوس « القمص » ، هو الذى قام بكافة الطقوس الدينية ، وحرص حرصاً تاماً على تطبيق النظام الأنطونى على رهبانه . ثم أنه استطاع بما لديه من سلطة روحية أن يقبل القادمين إليه أو يردهم . ويعاقب المذنبين بشتى أنواع العقاب التقليدية .

ويغلب على الظن أن الأنبا آمون قام بمثل هذه الوظيفة الكهنوتية لسببين ، أولها أن الأنبا آمون كان مؤسس هذه الجماعة وأكبر الرهبان جميعاً ، وثانيهما أن المسافة بين نتريا والأماكن الآهلة بالسكان يتعذر معها إستقدام أحد الكهنة المتزوجين ، أسبوعياً على الأقل ، للقيام بالطقوس الدينية وصلاة القداس بالكنيسة ، على نحو ما فعل الأنبا باخوميوس ، الذى كانت أديرته على مقربة نسبياً من الحياة المدنية ، والذى عرف عنه تحريمه ديريه من تولى الوظائف الاكليروسية ، ومما يزيد هذا الإعتقاد ، أن من أتى بعد الأنبا آمون فى رئاسة جماعة نتريا ، وهو القديس بامو ، وسم كاهناً لرهبان نتريا ، وذلك على الرغم من انفراده فى قلاية

فى سليا ، كما فعل الأنبا آمون من قبل[٤] . على أنه مما يدعو إلى الإلتفات ، أن هؤلاء القسيسين بهذه الرتبة الاكليروسية ، صار لهم مركز أعلى من مراكز الرهبان العاديين فى نظر الكنيسة ، بل أن الرهبان العاديين أنفسهم حرصوا على احترام أصحاب هذه الرتبة من القسوس المتزوجين ، ولطالما وقف القديس أنطونيوس . فى أوائل عهده بالرهبنة على الخصوص خاشعاً أمام القسيس . بل أنه أظهر احترامه للشماس « القارىء الكنسى » باعتباره خادماً للهيكل وقدمه على نفسه [٥] .

ومن الأدلة كذلك على علو هذه الرتبة عن الرتبة الرهبانية العادية ، ما كتبه القديس جيروم ، الذى عاش عدداً من السنين فى وادى النطرون فى قوله « أن حالة الرهبان تختلف كلية عن القسيسين ، فالقسيسون يقودون الرعية ، أما أنا ، ولست أكثر من راهب ، فإنى خاضع لقيادتهم ، والقسيسون يعيشون من المذبح ، أما أنا فإنى أصبح شجرة غير مثمرة أستحق القطع ، إذا لم أقدم قرابينى إلى المذبح ، وفارق آخر أنه لا يسمح لى بالجلوس قدام القسيس ، وإذا ارتكبت خطية فإن القسيس فى وسعه أن يحرمنى ، وإذا سقط الراهب فإن القسيس يصلى عنه ، أما إذا سقط القسيس فمن يصلى عنه » ؟ [٦]

وجرت عادة البطاركة أن يرقوا القساوسة المتزوجين لمنصب الأسقفية ، غير أنه بعد أن تقرر فى مجمع نيقية ضرورة أن يكون الأسقف بتولا ، جعل البطاركة من الرهبان إكليروساً مجندين

لاختيار الصالح منهم لوظيفة الاسقفية (٧) . وبدأ أثناسيوس البطريرك العشرين يسير على هذا القانون ، وتبعه من جاء بعده من البطاركة (٨) . غير أنه من الملحوظ أنه لم تكن هناك رغبة لدى أغلب الرهبان الأوائل ليندمجوا فى السلك الكهنوتى تقليداً لانطونيوس (٩) ، الذى يظن أنه بقى علمانياً إلى آخر حياته - ، معتقداً عدم استحقاقه لهذه الرتبة . وعلى هذا الأساس فإن هؤلاء القسيسين السبعة ، لم يفقدوا شخصياتهم أمام شخصية الكاهن الأكبر وأنهم بحكم شيخوختهم ووصولهم إلى هذه الرتبة الكهنوتية أصبحوا اليد العاملة التى تقوم على تنفيذ أوامر الكاهن الأكبر ، حيث أن كلا منهم تولى إرشاد وتدريب الرهبان الساكنين فى وحدة كبيرة من وحدات الصحراء فى نتريا ، كما أنهم كونوا المجلس الإستشارى ، الذى رأسه الكاهن الأكبر ، والذى أصبح مركزه فيه « الأول بين أقرانه » . وتولى رئيس المجلس النظر فى شئون الرهبان مستأنساً بآراء أعضائه ، واتسعت سلطة الرئيس اتساعاً واضحاً بازدياد عدد الرهبان ، غير أنه مما يؤخذ على هذه الرئاسة أن سلطة الرئيس استغلت أحياناً استغلالا سيئاً (١٠) .

ويبدو أن الأنبا شنوده — فى أواخر القرن الرابع — نقل هذه النظم الإدارية إلى أديرته على مقربة من سوهاج الحالية . وجعل على رأس الديرين جميعاً رئيساً أعلى ، صار يعرف إبتداءاً من القرن الخامس بالأرشمندريت ، أى رئيس المتوحدين ، وصار رؤساء الوحدات الديرية وهم يمثلون المرشدين الروحيين للديريين ، صاروا شركاء الأرشمندريت فى إدارة الأديرة . وأخذت الإدارة

العامة للأديرة التابعة لشنوده فى الدير الرئيسى تتلق منه التوجيهات والتعليمات . غير أنه كانت هناك أربعة إجتماعات سنوية عامة تنتظم كل رهبان الأديرة للتشاور فيما بينهم من أمور .

ثم أن كل راهب حرص على تنفيذ النظام والأوامر التى تلقاها من رئيسه أو مرشده فى طاعة تامة كاملة ، غير أن بعض المخالفات عرضت صاحبها أحياناً للعقاب الصارم بعد تقرير يرفع إلى الكاهن الأكبر ، الذى يصدر الأحكام مستشيراً أعضاء المجلس . واشتملت هذه الأحكام على عقوبات روحية وبدنية . ومن العقوبات الروحية ، فرض صوم خاص ، أو صلوات خاصة أو عدد خاص من الركعات أو ما تعرف بالمطانيات . أما العقوبات البدنية فانها كانت قاسية أحياناً ، إذ أنه كانت هناك إلى جوار الكنيسة ثلاث نخلات تدلى من كل منها سوط خصص واحد لعقاب الرهبان المخالفين ، والثانى لمعاقبة اللصوص الذين يهجمون على قلالى الرهبان ويسيئون إليهم ، والثالث لعقاب الزائرين الخارجين على نظام الرهبان أو المقلقين لراحتهم(١١) .

وليس معنى هذا أن آباء وادى النطرون أوجدوا نظاماً ديكتاتورياً بين رهبانهم ، يحاكم بمقتضاه كل مخطىء ، فإن بلاديوس أورد لنا قصصاً كثيرة عن تسامحهم مع الرهبان . ومن هذه القصص ما ذكره عن أحد الرهبان فى الاسقيط حيث أخطأ خطأ فاحشاً ، وإنعقد لمجلس بسببه ، فقام الأب بيور وأخذ خرجاً وملأه رملا وحمله على ظهره ، كما أخذ كيساً صغيراً ووضع فيه قليلا من الرمل وجعله قدامه ، فسألوه « ما هذا الخرج المملوء

كثيراً ؟ » فقال « إنه خطاياى قـــد طرحتها وراء ظهرى حتى لا أنظرها ولا أتعب لأجلها ؛ أما هذا الرمل القليل الموجود أمامى فهو خطايا أخى جعلتها قدامى لأدينه عليهـــا فلما سمع الاخوة ذلك إنتفضوا وغفروا للاخ المخطىء »(١٢).

وإذ أصبحت سليا فى طريقها إلى نوع من الإستقلال بعـد أن رأسها الأب مكاريوس الإسكندرى، فإنه أصبح كاهناً للكنيسة التى بنيت بها على عهده . واختلفت سليا عن نتريا فى أنه لم يكن هناك بها سوى كاهن واحد هو الأب الرئيس أو المدير . ومن أجل هـــذا فإن مهمته أصبحت أكثر عبئاً وذلك لاضطراره لافتقاد المنفردين فى قلاليهم المبعثرة فى أطراف هـذه البقعة من الصحراء ؛ إذ أن هؤلاء احتـــاجوا لرعاية أكثر من زملائهم المقيمين فى قلالى متجاورة ، وأصبح لهذا الكاهن كذلك سلطة واسعة على هؤلاء الرهبـان المنفردين غير أنه نظراً لوصولهم إلى درجة عالية من درجات الرهبنة ؛ فان الرئيس ما لبث إن إنحصرت سلطاته فى التأثير الشخصى(١٣) ، وغدا سلوكه وأعماله عظة صامته وقدوة صالحة للرهبان الذين حرصوا على تقليد طريقة حيـــاته ونسكه ، غير أن هذا لم يمنع بعض الرهبان من التردى فى مهاوى الرذيلة ، لهـــذا أصبح ضرورياً وجود مجلس ينظر فى شئون المخالفين والخارجين على النظام الموضوع ؛ فتألف هذا المجلس من بعض الشيوخ الذين اتصفوا بالمعرفة الواسعة تحت رئاسة الكاهن(١٤). وأصبح لهذا المجلس نفوذه الواضح على الرهبان حتى أنه أصـدر حكمه مرة على راهبين إرتكبا خطأ بأن يسجنا فى قلاليهما مدة

سنة مع أنهما ندما على أخطائهما (١٥) . أما موضوع العقـــاب بالضرب بالسوط فإنه فى أغلب الأحيان لم يستخدم إلا كوسيلة لاختبار بعض الرهبان من الشباب المقدم على الرهبنة حديثاً إذ أننا لم نسمح عن واحد من الرهبان عوقب بالضرب بالسوط .

وفى الاسقيط أطلق على رئيس الجماعة الرهبانية كذلك إسم أب الرهبـان . ثم إذ أصبح يتولى الوظائف الكهنوتية ، فانهم أطلقوا عليه فيما بعد قمص شيهيت ، وهى كلمة سوريانية معناهـا « مدبر » (١٦) وسمى بالقبطية « أيغومانس » . ولم يخصص هـذا الاطلاق على رئيس جماعة من الجماعات الأربعة دون غيرها ، بل أن كل كاهن أو مدبر لهذه الجماعة أطلق عليه هذا اللقب . غير أنه يلاحظ أن مكاريوس الكبير لم ينعته رهبانه بهذا اللقب مع رسامته كاهناً ، وقيامه بالطقوس الدينيـة ؛ ذلك أن مكاريوس الكبير نزل فى نفوس رهبانه منزلة كبيرة ؛ لأسبقيته فى تأسيس أول جماعات شيهيت ، ثم لأن شخصيته فى هـــذه البرية فاقت غيرها من زعماء الرهبـان ، ففضل رهبانه أن ينعتوه بلقب أب رهبان شيهيت ، وتلقب من جاء بعد مكاريوس الكبير فى رئاسة جماعته بلقب أب رهبان شيهيت ، وقمص شيهيت هو القـديس بافنوتيوس الذى خلفه سنة ٣٩٠م . أما رؤساء الجماعات الباقية فى شيهيت فإن كلا منهم حمل لقب قمص شيهيت ، وغلب هـذا اللقب على اللقب السابق (١٧) .

أما سلطة كل من هؤلاء الرؤساء الأربعة فإنها إنحصرت فى قبول أو رفض راغبي الرهبنة ومعـاقبة الرهبان المخالفين ، وقام

الواحد منهم بالإضافة إلى هذا كله بالإشراف على الحياة الروحية لجماعة الرهبان التابعين له ، كما أشرف على إدارة سياستها العامة . وساعـــد الـكاهن الرئيس (الايغومانوس) قارئون كنسيون (شمامسة) ، وحملوا لقب (دياكون) ، إذ ذكر عن دانيال تلميذ القـديس بافنوتيوس أنه كان شماساً تولى مساعدته فى أداء الطقوس الدينية وغيرها من الواجبات الـكهنوتية[١٨] .

ثم أصبح هناك كذلك مجلس لـكل جماعة ، ومع أنه لم يرد ذكر عن كيفية تـكوين هـــذا المجلس الذى رأسه كاهن الجماعة ، فإنه يبدو أنه تـكون من شيوخ الجماعة المشهود لهم بالتقوى .

ولـما كانت شيهيت يقصـــدها كل راغب فى أقسى أنواع الرهبانية ، فإنه يبدو أن العقاب هنا لم يكن صارماً كما كان الحال فى نتريا . ومن أمثلة هـــذا أن واحداً من الرهبان فى شيهيت أخطأ مرة خطأ شنيعاً فشكاه زملاؤه إلى القـديس مكاريوس الـكبير ، غير أن هذا القديس لم يتسرع فى الحـكم عليه بل سامحه ثم أمسك بيده وقال له ، « يا أخى ، على نفسك أحكم قبل أن يحكموا عليك لأن الحـكم لله »[١٩] . ثم ودعه وتركه ، وحـدث كذلك أن راهباً آخر أخطأ ، وانعقد مجلس رهبان الجماعة بسببه ؛ غـــير أن الرئيس لم يساير المجلس على ما أراد بل أقنع أعضاءه بضرورة الصفح عنه . وإتخذت طريقة الإقناع مظهراً عملياً حيث أخذ الرئيس خرجاً وملأه رملا وحمله على ظهره كما أخذ كيساً صغيراً ووضع فيه قليلا من الرمل ، وجعله قدامه ، فسأله الرهبان المجتمعون فى المجلس قائلين « ما هذا الخرج المملوء كثيراً ؟ فقال :

إنه خطاياى طرحتها وراء ظهرى حتى لا أنظرهـــا ولا أتعب لأجلها ، أما هـذا الرمل القليل الموجود أمامى فهو خطايا أخى جعلتها قدامى لأدينه عليهـا ، فلمـا سمع الرهبان ذلك غفـــروا للراهب المخطىء[٣٠] .

دراسة مقـارنة مع إدارة الأديرة الباخومية :

وإذا كانت سلطة رئيس الجماعة فى وادى النطرون محدودة فى نطاق جماعته ، فالملاحظ أنها إختلفت عن سلطة الأنبا باخوميوس الذى رأس جميع الأديرة التى أنشأهـا ، فإنه لـكى يسهل تنظيم الإدارة الديرية وترقى الديريين فى درجات الحيـاة الروحية التى أرادها لهم الأنبا باخوميوس فى داخل الدير ، قسم باخوميوس الديريين أربعـة وعشرين درجة ، ورمز لـكل منهما بحرف من الحروف الأبجدية من الألفا إلى الـ تى [٣١] . وقامت كل هيئة أو طبقة رهبانية إلى جانب هذا بعمل خاص مع تمييزها برتبتها الروحية الخاصة . وجعـــل الأنبا باخوميوس من ديره فى بابو مركزاً رئيسيـاً لإدارة باقى الأديرة ، إذ التأمت إدارة الأديرة الباخومية مرتين فى كل عام فى الدير الرئيسى فى بابو ، أولها فى عيد الفصح ، وثانيهما فى العشرين من شهر مسرى وذلك للنظر فى شئون الإدارات المحلية وتقديم حسابات الأديرة .

وثمة إختـــلاف آخر، هو أن كل دير صار له رئيسه الذى يختاره الأنبـا باخوميوس ويساعده نائب عنه ، أشبه ما يكون بالمشرف الإقتصادى فى جماعات وادى النطرون . ثم أن الأنبـا

باخوميوس حرص على أن يختار خليفته وهو على فراش الموت ، وهو أمر لم يعرف عن رهبان وادى النطرون . ويمكن القول أن الأديرة كانت أطرافا لجسم واحد ، رأسه فى بابو ، بعكس ما رأيناه فى حياة الإستقلال بين كل جماعة رهبانية وأخرى فى وادى النطرون[٣٢] .

ومهما يكن من أمر هذه الرئاسة الرهبانية أو الديرية فإن الطاعة العمياء والسلام المسيحى ظلا رمزاً ونبراساً لبلاد الدولة الرومانية ، على حين ذهب التنظيم الرومانى بسبب الاغارات الجرمانية ، وحروب الدفاع والهجوم بين الرومانيين والجرمانيين ، الساعين لاقتطاع أجزاء من الدولة الرومانية للإقامة بها إقامة دائمة ، ولتنقض بالتالى على وحدتها .

نظام قبول الراهب ورسامته :

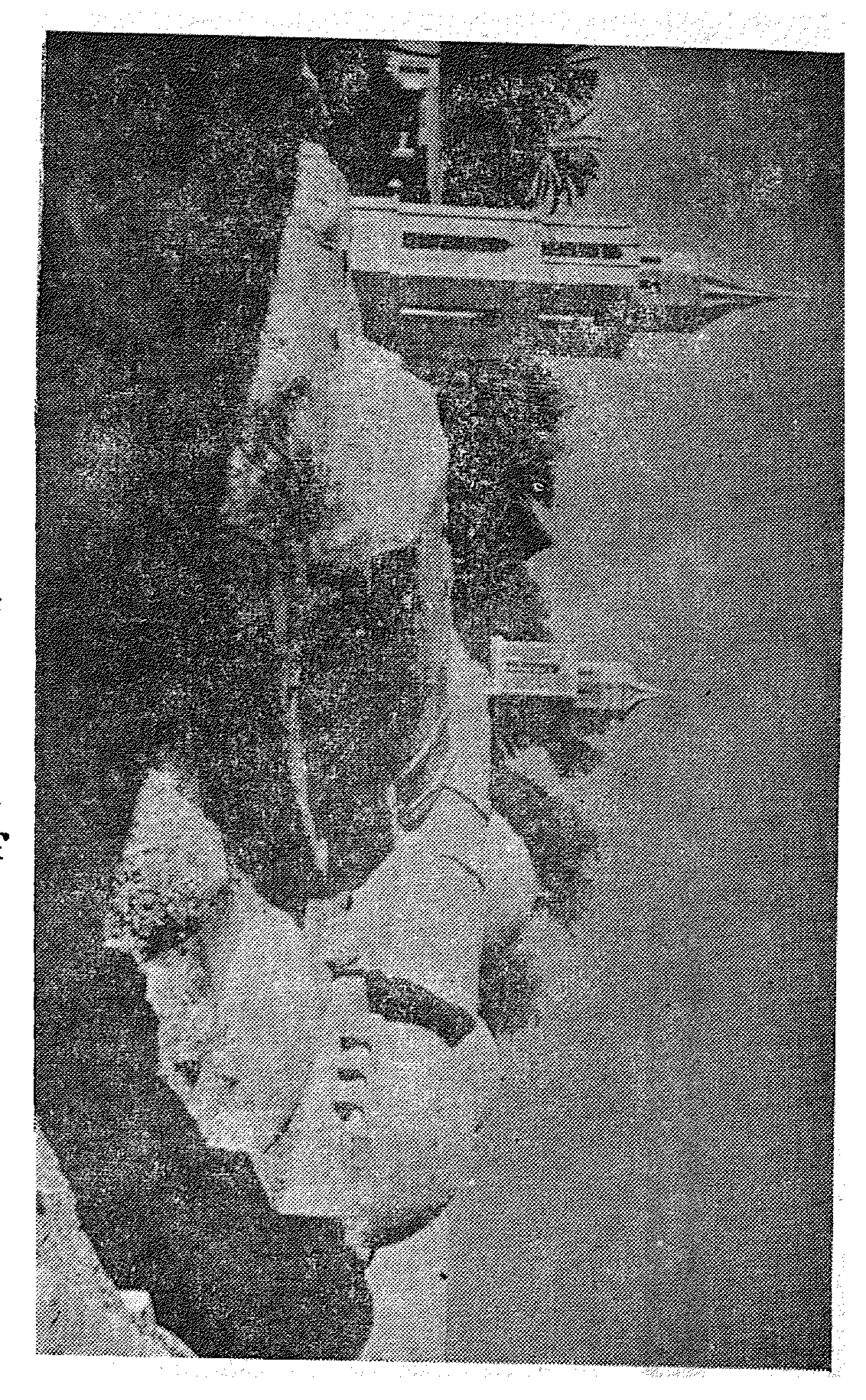
ولم تشترط سن معين لقبول الراغب فى الرهبانية ، وإذ جاء معظم الراغبين فى هذه الحياة ممن هم فى سن الشباب ، فإنه مع هذا وجد فى برية شيهيت رهبان نشأوا منذ طفولتهم بها . ومن هؤلاء الراهب زكريا « زخارياس » ومن أمره أن أباه « قاريوس » ترك والدته وأخته وترهب فى بريه شيهيت ، إلا أن ظروف الحياة الاقتصادية أنذاك دفعت بوالدته أن تخفف عن نفسها متاعب حياتها ، فقسمت أولادها بينها وبين زوجها وخصته بابنه زكريا ، الذى أرسلته إليه فى بريه شهيت ، وهناك شب فى رعاية أبيه الذى أحاطه بهذه التربية الدينية الخالصة . وعندما بلغ زكريا

أشده رسم راهباً ، وأنهى حياته هناك[٣٣] . غير أنه ذكر كثيراً في تاريخ صحراء نتريا ما يشير إلى وجود مثـــل هؤلاء الأطفال الذين ذكر كاسيان عن وفاة إثنين منهم إبان وجوده بها ، وذلك أثناء ذهابهما يحملان فاكهة لراهب مريض[٣٤] .

ويبـــدو أنه فى مثال زكريا السالف ما يشير إلى أن شرط البتوليه لم يصبح شرطاً أساسياً لقبول الراهب فى الرهبانية ، بل أن شيوخ الرهبان قبـلوا أن يتتلمذ على أيديهم المتزوجون الذين تركوا زوجاتهم نهائياً ، إما هرباً من المسئوليات المدنيـة تحت ضغط الاضطهاد الرومانى والضرائب الثقيلة ، أو من خيـــانة زوجاتهم لهم . وهم فى هذا ساروا على ما فعله الأنبا أنطونيوس أب الرهبان الذى قبل أن يتتلمذ على يديه الراهب بولس البسيط ، الذى ترك زوجه وأطفاله[٣٥] .

غير أن مما يدعو إلى الإلتفات إنه عنـدما أصبحت الرهبانية حركة واسعة النطاق ، وقف الكثيرون أمام الشباب الهارب من وجه المسئوليات المـدنية ، أو الأوضاع السياسية ، ابقاءاً على تماسك الأمة القبطية ، وتناسل أفرادها ، فأرغموا شبـابهم على الزواج . غير أن جهودهم ضاعت سدى عندما هجر هؤلاء زوجاتهم مصممين على حياة البتولية ، لـكى يكونوا كما قال بولس الرسول « بلاهم ويهتموا فيها للرب كيف يرضوا الرب »[٣٦] ، ومن أمثلة هؤلاء فى وادى النطرون آمون ومكاريوس الـكبير .

وعنـد بداية الرهبانية كان قبول الراهب بعد تعهد منه أن يعيش راهباً حتى نهاية حياته[٣٧] . ومما هو ملحوظ أن هـــذا



دير الأنبا بيشوى من الداخـــل
ولاحظ قباب الكنيسة القديمة وبعض القلال

العهد لم يكن مكتوباً آنذاك ،بل أن الذى استحدث كتابته هو القديس شنوده فى القرن الخامس الميلادى[٢٨] . ولم يكن هناك كذلك فى أول الأمر ما حاج الراهب إلى البقـــاء مدة طويلة تحت الاختبار كما حدث بعد أن ازداد عدد الراغبين فى الرهبانية . وإذ أتى الراغب فى الرهبانية إلى رئيس الجماعة الرهبانية ، يبين له الأخير متاعب الحياة فى الصحراء الموحشة والأعباء الملقاة على كاهله ، ويحاول أن يثنيه عن عزمه . وليس مثـــل مكسيموس ودوماديوس بعيداً عنا [٢٩] . واعتبر هـذا العمل أول اختبار لمقدرة الراهب ، فاذا ما ثبتت رغبته الصادقة بدىء فى اختبارات أخرى ؛ ومن هذه الاختبارات ، اختبار تواضع الراهب ، ومدى احتقاره لذاته ، وعدم اهتمامه بجسده ؛ فالقديس أنطونيوس أعطى مكاريوس الكبير درساً فى احتقار ذاته حين جاءه ليتتلمذ عليه ؛ إذ أنه قرع باب قلايته قائلا « أنا مكاريوس أيها الاب » . غير أن القديس أنطونيوس تركه ولم يفتح له الباب ، وظل مكاريوس هذا ببابه مدة طويلة ، واقفاً متوسلا اليه ، حتى فتح له أخيراً ، وقبله فى داخل قلايته [٣٠] . وطبق يوحنا القصير هـذا الدرس على أرسانيوس أحد رجال البلاط فى قصر الامبراطور اركاديوس ابن تاودسيوس الكبير ؛ فعنـدما أتى أرسانيوس إلى بريه شيهيت راغباً فى الرهبانية توسل فى تواضع وخضوع إلى يوحنا القصير ، الذى أظهر له احتقاره الشديد ، ولم يعبأ بعـــلو مركزه ، بل تركه واقفاً على بعـــد ، ثم جلس مع رهبانه لتناول الطعام ، اذ صادف مجىء أرسانيوس يوم الأحد . وبعد قليل ألقى اليه الانبا

يوحنا بقطعة من الخبز الجاف وهو فى مكانه ، فانحنى أرسانيوس من بعيد ليتناولها من على الأرض ، فلما رأى يوحنا القصير منه هذا ، قال بصلاحيته للرهبانية ، ومن ثم رحب به بين الرهبان[٣١] .

ومما هو ملحوظ أن مبدأ العنف والقسوة الذى سارت عليه الجماعات الرهبانية والأديرة المصرية مع كل طالب للرهبانية لم يقتصر على مصر فحسب بل تعداها إلى أوربا ، حتى صارت قانوناً مرعياً بين قوانين الرهبان والديريين هناك .

وإذ يجتاز الراهب اختباراً ، يسعى شيخ الرهبان إلى زيادة الاطمئنان على صلاحية هذا الراهب الجديد ، فيختبره على الطاعة التى اعتبرت شرطاً أساسياً من شروط الراهب ، ينظم علاقته بإخوانه وبالشيوخ القائمين على أمره ، حتى غدت طاعة عمياء[٣٢] . ومن أمثلة هذا ما ذكر عن إعطاء القديس بامو الغصن الجاف لتلميذه يوحنا القصير الذى تحمل مشاق السير مسافة بعيدة حاملا اليه الماء ليرويه ، مع أنه لم يكن هناك أمل أن ينبت هذا الغصن[٣٣] . ويبدو أن الأنبا باخوميوس فى تابنيسى طبق هذه الشروط وأضاف إليها من عنده شروطاً أخرى إقتضتها الظروف المحيطة بأديرته ، فمن طرق بابه من الراغبين فى الديرية ، ترك فى مضيفة خاصة بجوار باب الدير يدرب فيها على الحياة الديرية مدة لم تكن واحدة للجميع ؛ إذ يلاحظ أن قانونه الذى نص على بقاء الراغب فى الرهبنة ثلاث سنوات قبل أن يدخل الدير ، لم يكن مرعياً فى بادىء الأمر على الأقل ؛ فإن دخول

مكاريوس الاسكندرى إلى دير الأنبا باخوميوس دون حاجة إلى بقائه هـــذه المدة الطويلة وازدياد عدد الديريين فى مدة قصيرة ما يدفع بأن مدة الثلاث سنوات ــ فيما يبدو ــ لم تطبق ، فيما بعد إلا على فئة خاصة رأى الأنبا باخوميوس ضرورة بقاء هؤلاء النفر خارج الدير طوالها ، حتى يطمئن إلى سلوكهم (٣٤) .

واتفقت طريقة رسامة الديرى عند باخوميوس مع الطريقة التى رسم بها رهبان وادى النطرون ؛ ذلك أنه بعد فترة التدريب يحلق رئيس الدير أو رئيس جماعة الرهبان شعر الراهب ويضع ملابسه على الأرض ثـــلاثة أيام يمضيها مع الراهب مصلياً صائماً ، وفى نهايتها يلبس الراهب الملابس الرهبانية فيصبح فى عداد الرهبان (٣٥) . وإذ يدخل الراهب الجماعة الرهبانية يصبح مقطوعا عن العـــالم الخارجى ، كما يحرم عليه مقابلة والديه أو واحـد من أقربائه لمدة طويلة (٣٦) ، فيطلق الراهب لحيته (٣٧) ، وهذه الخطوات رمز إلى أنه نذر نفسه لهذا النوع من الحياة وكرس حياته لفروض الرهبانية التى تقوده إلى تحقيق المثل الأعلى للحياة المسيحية .

العمل اليدوى عند الرهبان :

ولعل أهم هذه الفروض ضرورة قيام الراهب بالعمل اليدوى وهو أمر اقتضته التعاليم الدينية وحاجات المعيشة .

أما هذه التعاليم الدينية التى حتمت العمل اليدوى ، فإنها ترجع إلى العصر الرسولى ، حينما حدثت بدعة بين بعض التسالونيكيين ، فقام قوم منهم اعتقدوا أن الساعة آتيـــة ، وأن العالم على وشك

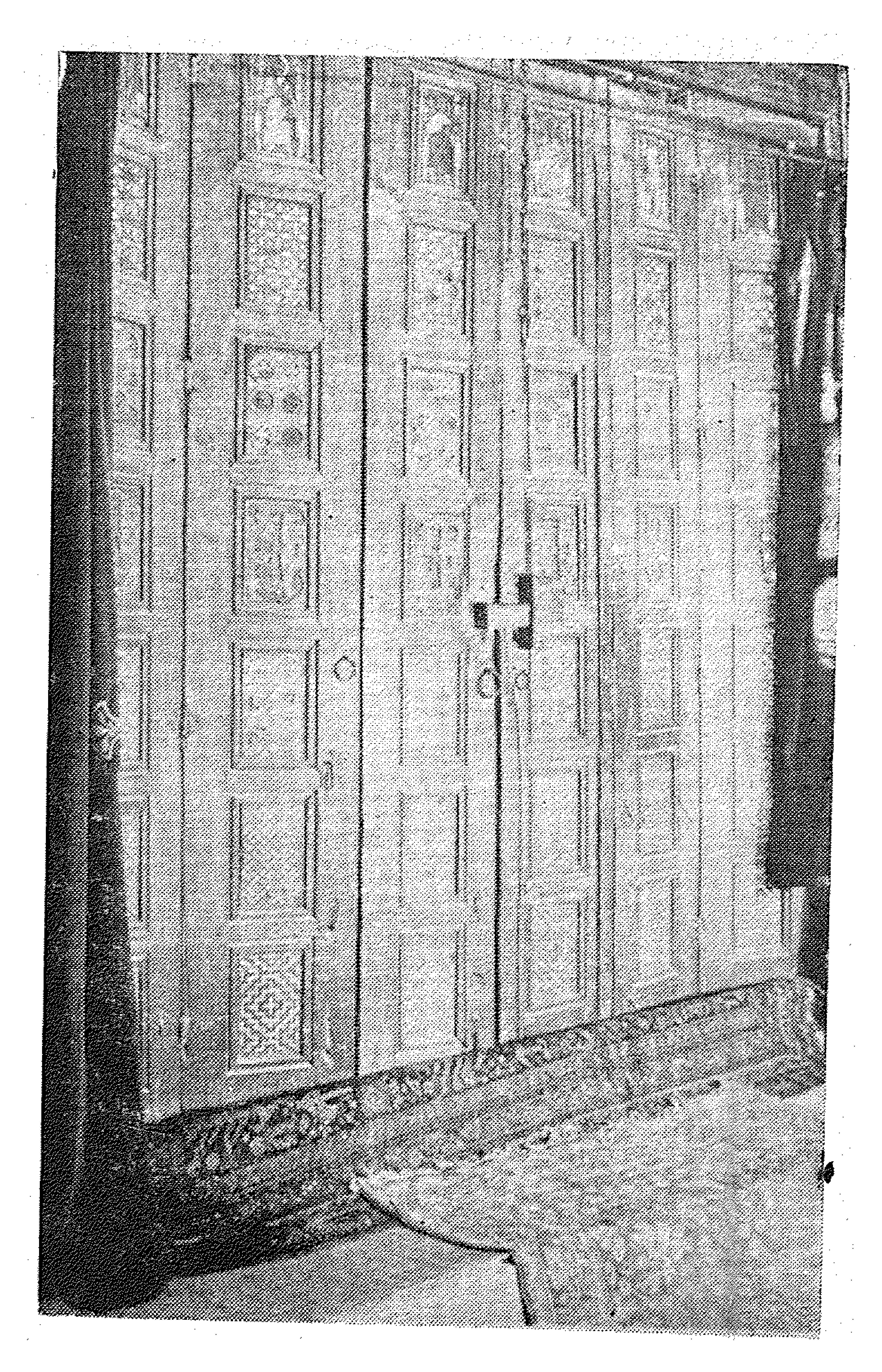
الزوال ، فاجتمعوا فى الكنائس ، وتركوا أعمالهم ، وتفرغوا للعبادة فانبرى لهم بولس الرسول ينقض بدعتهم . ونادى بولس الرسول بقوله المشهور « أن من لا يعمل لا يأكل » وشرح أهمية العمل فى حياة العابد المسيحى فى قوله « أنتم تعرفون كيف يجب أن يتمثل بنا لأننا لم نسلك بلا ترتيب ، ولا أكلنا خبزاً مجاناً من أحد ، بل كنا نشتغل بتعب وكد ليلا ونهاراً ، لكى لا تثقل على أحد منكم ، فإننا حين كنا عندكم أوصيناكم بهذا إن كان أحد لا يريد أن يشتغل فلا يأكل أيضاً »[٣٨] . وأكد بولس الرسول مرة أخرى أهمية العمل فيما تحدث به إلى كهنة كنيسة أفسس فى قوله « أنتم تعلمون أن حاجاتى وحاجات الذين معى خدمتها هاتان اليدان »[٣٩] . وما عرف عن بولس الرسول بالإضافة إلى هذا أنه عندما أقام فى بيت أكيلا وبريسكلا فى كورنثوس ، اشتغل معهما فى صناعتهما وهى عمل الخيام ليكسب عيشه[٤٠] .

وعاش القديس أنطونيوس فى بداية حياته الرهبانية دون أن ينتبه إلى كسب عيشه عن طريق العمل اليدوى[٤١] . فقبل بعض الخبز الذى أحضره إليه بعض الرفاق ، غير أنه سرعان ما شعر بأن الملل بدأ يتسرب إلى نفسه ، ثم قرأ التعاليم المسيحية التى نادت بأن الكسول لا يأكل ، فبدأ يشغل بعض وقته ، فى غير أوقات الصلاة ، فى العمل اليدوى . وانحصر هذا العمل فى صناعة السلال وبيعها بواسطة أحد تلاميذه . ولما كان فرضاً على الراهب ألا يقتنى مالا فإن الأنبا أنطونيوس أنفق جزءاً منه

على قوته وتصدق بجزء آخر .

غير أن ثمة دافعاً كذلك حدا بالقديس أنطونيوس للتفكير فى ضرورة العمل اليدوى ، وهو اعتقاده أن الراهب الذى يشتغل يهاجم بشيطان واحـــد فقط ولـكن الكسول يحاط بشياطين لا حصر لهـا [٤٢] . وبذلك يكون القديس أنطونيوس أول من وضع أساس العمل اليدوى للرهبان . وحذا حذوه فى هذا رهبان وادى النطرون ، وذلك حسب المبادىء المسيحية التى حتمت العمل لسد مطالب الحياة . وهكذا نجد القديس هور يؤكد أنه منـذ دخوله صحراء نتريا وبنائه قلايته التى عاش فيها طيلة حيـاته لم يأكل خبز الكسل ، أو الخبز الذى لم يأت من عمل يديه [٤٣]. ورهبان آمون كسبوا عيشهم من استخراج النطرون وبيعـــه للقوافل . وإذ انصرف آمون وعدد كبير من رهبانه بعيداً عن الفضوليين، وابتعدعن الأماكن التى استخرج منها النطرون ، اشتغل مع عدد كبير من الرهبان فى عمل الحصر والســلال . ومما هو ملحوظ أن جدل الحصير ، أو عمل السلة لم يكن أمراً سهلا فى وادى النطرون ، بل احتاج إلى صبر طويل ؛ فهنـــاك ضرورة الذهاب مسافة بعيـدة إلى حيث ينمو النخيل ، لقطع أغصانه وأليـافه ، ثم حملها إلى صوامع الرهبان ووضعها فى المـاء مدة ليسهل العمل بها [٤٤] .

ثم أنه يلاحظ كذلك أن الشيوخ علموا الشباب وغيرهم من القادمين عليهم والطالبين الرهبانية عندهم طريقة العمل اليدوى [٤٥]؛ فالقديس مكاريوس الكبير علم تلاميـذه طريقـة ضفر السعف



الباب المعروف بباب النبوءات فى دير السوريان
لاحظ ما عليـه من نقوش مطعمة
وهى من صنع الرهبان

والليف لعمل الحبال . وعندما ازداد عدد الرهبان فى كل جماعة وخاصة فى نتريا ، وازدادت تبعـــاً لذلك مطالبهم ، كما تحملوا مطالب المنفردين فى سليـا ، عمل الرهبان فى الأفران كما قاموا بغزل ونسيج الكتان اللازم لصنع ملابسهم . ثم أن بعضهم اشتغل إسكافياً أو فى المطعم لخدمة الرهبان فى الاكلة العـامة ، كما أن الحاجة إلى الخضر والفاكهة دعت إلى قيام الرهبـــان بالزراعة بين صوامعهم أو فى الحديقة التى توسطت قلالى الرهبان . وقام بعض الرهبان بتنظيف الكنيسة أو بخدمة الرئيس فى أثنـاء مرضه ؛ ومثل هؤلاء يوحنا القصير وبيشوى . وتخصص بعض الرهبان كذلك فى بنـاء الصوامع الكبيرة فى نتريا التى استقبلت وفود الرهبان الجدد . وساعدهم فى هـــذا رهبان قاموا بجمع سعف وجريد النخيل والاخشاب والاحجار اللازمة للبناء [٤٦] .

ووضحت أهمية العمل اليدوى فى قول أحد آباء وادى النطرون ينصح أحد الرهبان « اهتم بعمل يديك ، مارسه ان أمكنك ليلا ونهاراً لـكى لا تثقل على أحد ، حتى يكـون لك ماتعطى المسكين حسب ما أمر به الرسول ، ولـكى تصرع شيطان الضجر وتزيل عن نفسك بقية الشهوات ، لان شيطان الضجر منكب على البطالة وهو فى الشهوات كامن »

وقال آخر « ان البطالة هى مصدر رداءة الاعمال لا سيما من أولئك الذين قد عدموا الأدب ، لان اليهود لمـا لم يكن لهم فى البرية عمل يشتغلون به ، خرجوا من البطالة الى عبادة الاوثان ، فعلينا ألا نفارق عمل اليـــدين لانه نافع جداً ومهذب » [٤٧].

وذات مرة سأل راهب الاب بيمين قائلا : « قل لى كلمة » فأجابه قائلا : « واظب على عمل يديك ما استطعت وذلك لتعمل منه صدقة لأنه مكتوب أن الرحمة تطهر الخطايا » .

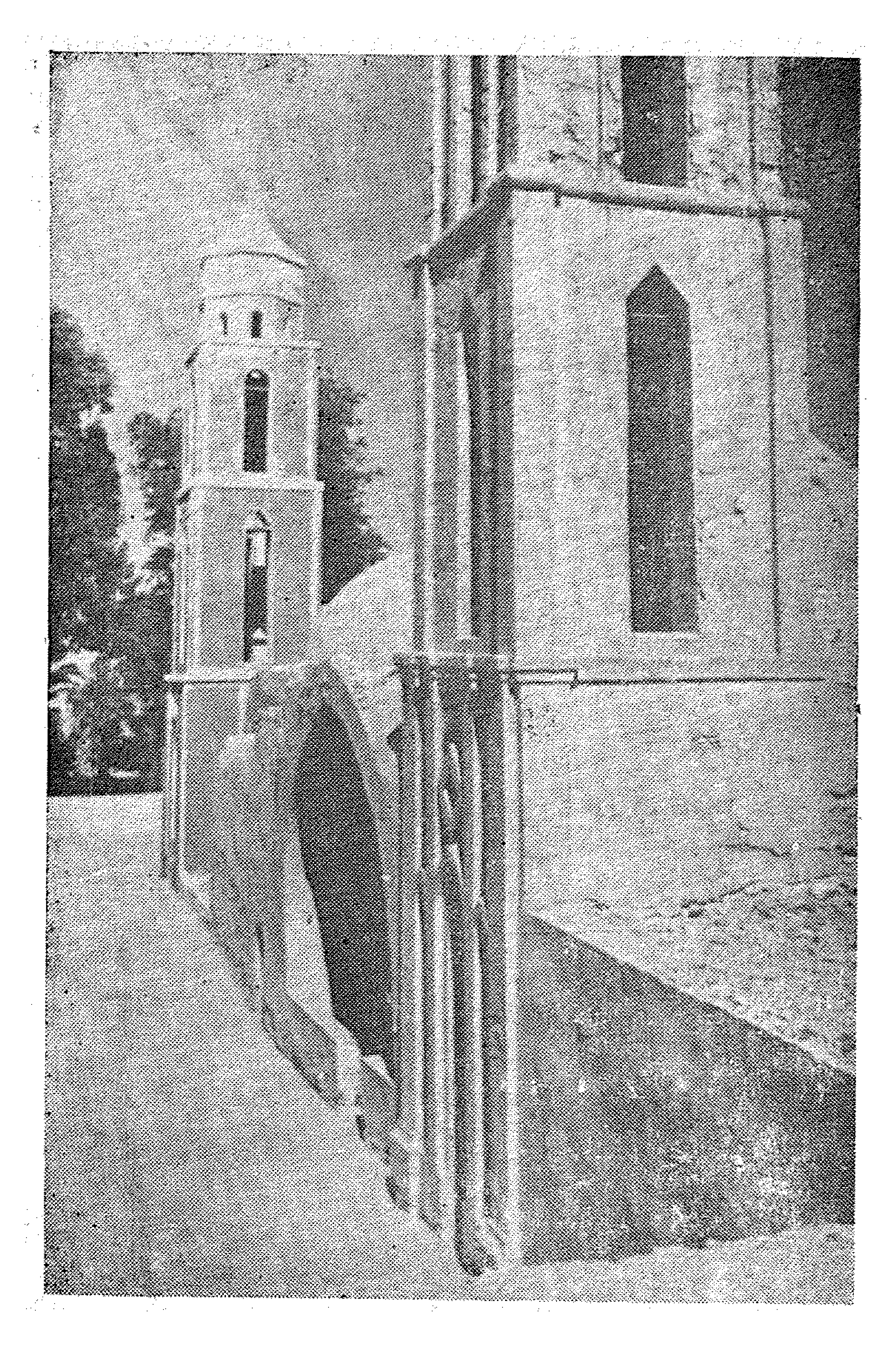
وفى الإسقيط أصبح العمل اليدوى إجبارياً ولعدد أكبر من الساعات وذلك ، بالنسبة لشباب الرهبان ؛ على أنهم لم يعفوا من العمل فى بعض أعيـــاد القديسين التى كان يمكن إعفاء بعض الرهبان من العمل فيها ، ولعل هـذا بسبب ضرورة شغل أوقاتهم حتى لا يفكر الواحد منهم فى إشباع غرائزه الشبابية (٤٨) .

ثم أنه مما يوجب الالتفات كذلك أن العمل لم يكن إجبارياً فى بعض الحالات ، فأعفى منه بعض شيوخ المنفردين الذين عاشوا على ما أنتجته جماعات الرهبان ، غير أنه حرم على الرهبان العمل أيام السبوت والآحاد والأعياد ، وذلك حسب التعاليم المسيحية (٤٩) .

وأصبح لزاماً على جميع الرهبان ســـواء عاشوا جماعات أو فرادى أن يحملوا عملهم اليدوى لتقديمه لرئاستهم ، التى تولت بيعه والانفاق على سائر الرهبان الذين حملوا معهم مؤونة الاسبوع والخامات اللازمة لعملهم اليدوى عند عودتهم إلى قلاليهم بعد نهاية الكنيسة واجتماع الاحد (٥٠) .

المنابع الاقتصادية ووجوه الصرف :

وإذ كسب الرهبان عيشهم عن طريق عملهم اليدوى فإن ثمة مورداً آخر أضيف إلى موارد عيشهم السابقة ، وأصبح أكبر



منارتان عند مدخل الـكنيسة القديمة

في دير الأنبا بيشوي بوداي النطرون

مورد لهم وهو ما كسبوه فى فـــترة الحصاد ؛ إذ عرف عن خروج الراهب هور وتلاميذه والقديس مكاريوس الكبير وثلاثمائة من الرهبان للحصاد فى الضياع القريبة من هذه الجماعات [٥١] . وواضح أن الأنبا هور أقام فى نتريا القريبة من إقليم هرموبوليس بارفا ، والقديس مكاريوس الكبير عاش فى الاسقيط وهى قريبة من غرب الدلتا ، على حين أن رهبان سليبا لم يفكروا فى هذا العمل، لبعدهم عن الأراضى الزراعة نسبياً . وعاد الرهبان بعد الحصـاد حاملين أجورهم ؛ وقيل أن أغلب الرهبان عملوا بنشاط فى فـترة الحصاد حتى بلغ ما حصله الواحد منهم حوالى ثمانين مكيالا من القمح ، وأودعت كميـات القمح التى جمعت فى مخازن الجمـــاعة الرهبانيه [٥٢] . وفى هذا دليل على أن الرهبان تقاضوا أجورهم من عين المحصول .

ثم أن ما حمله نصارى مصر من جـلائل النذور والقرابين ومحاسن التحف [٥٣] ، وما قدمه أغنياء الدولة الرومانية ـ الذين نظروا للرهبـان فى إجلال ـ ، وغـــيرهم من المسيحيين الذين حضروا للزيارة أو طلباً للشفاء ، أصبح مورداً هاماً من موارد الرهبان ؛ فهـــذه عذراء مريضة من تسالونيكى تركت للقديس مكاريوس الاسكندرى كيساً كبـيراً ملأته بالقطع الذهبيـة [٥٤] . ثم أن أحد أغنياء القسطنطينية وضع مبلغاً عظيماً من المـال عند قدمى القديس مكاريوس الكبير [٥٥] .

ومن الموارد الهـامة التى أصبحت ذات أثر كـبير فى إنعاش اقتصاديات الرهبان ما قدمه اليهم بعض أباطرة الدولة البيزنطية

ممن كانوا على المذهب الاثناسيوسى ؛ فإن الإمبراطور أركاديوس أرسل مكتوباً إلى واليه فى مدينة الاسكندرية ، أمره فيه أن يدفع للقديس أرسانيوس ، الذى كان معلماً للإمبراطور قبل ترهبه فى وادى النطرون ، ضريبة سنة ليصرفها كيف شاء فشكره القديس أرسانيوس وأردف بقوله « ما كتبتم به إلى من المال فليأمر جلالتكم أن يقسم على ذوى الحاجة وأبناء الديارات ، ورب المجد يجازيكم عن ذلك »[٥٦] . وتوالت بعد هذا أعطيات الاباطرة المسيحيين للرهبان المصريين حتى أننا نجد فى القرن الخامس الميلادى أمراً من الإمبراطور زينون سنة ٤٧١ - ٤٩١م بأن ينقل إلى دير أبى مقار جميع ما يحتاجه الرهبان من قمح وزيت ونبيذ وغيره مما يلزم إصلاح القلالى[٥٧] .

وثمة منبع اقتصادى آخر ، وهو ما أحضره الراغبون فى الرهبانية من مال باعوا به أملاكهم ، وقدموه إلى شيوخ الجماعة ليصبح تحت تصرف الجماعة ، تقليداً لما فعله المسيحيون الاوائل فى العهد الرسولى ، الذين باعوا أملاكهم وقدموا أثمانها للرسل، ليصبح كل شيء فى حياتهم مشتركاً بينهم ؛ ولذلك فإن الراهب أبولونيوس الذى اشتغل بالتجارة فى المدينة أثناء شبابه ، وربح منها أموالا طائلة ، عندما فضل الحياة الرهبانية باع كل تجارته واشترى بماله بعض حاجات أخذها معه إلى الخمسة آلاف راهب فى نتريا وعاش هناك راهباً مدة عشرين سنة[٥٨] .

وذكر الرحالون الذين زاروا وادى النطرون أن رهبان نتريا صنعوا الكعك وباعوه للزائرين، ولم يكن الكعك سوى

قطع صغيرة من الخبز الذى يخبز بعد تعريضه للشمس [٥٩] . وهو ما نسميه فى بلادنا الآن « العيش الشمسى » . ومن كل هذه الموارد أنفق الرهبان على أنفسهم ، وقدموا لزائريهم الطعام عملا بتعاليم الإنجيل الداعية إلى إضافة الغرباء ، كما أنهم لم ينسوا تعاليم الإنجيل الخاصة باعطاء صدقات إلى الفقراء ؛ فلم يقدموا كميات كبيرة من غذائهم ومن الأقمشة التى نسجوها إلى فقراء المنطقة المحيطة بهم فحسب ؛ بل أنهم أرسلوا سنوياً سفناً إلى الاسكندرية مشحونة بالقمح ، لتوزع على المسيحيين المسجونين فى سجونها ، والغرباء ، والمحتاجين فى عاصمة البلاد [٦٠] . وإلى جانب هذه المعلومات التى أوقفنا عليها الرحالة روفينوس ، الذى زار نتريا حوالى سنة ٣٧٣ م فإنه يذكر أن حالة الجماعات الرهبانية الاقتصادية فى وادى النطرون تقدمت فى النصف الثانى من القرن الرابع تقدماً واسعاً لا سيما عن طريق إضافة المنح والهبات السابق ذكرها إلى الموارد الناتجة عن عمل الرهبان أنفسهم ، حتى أصبحت الجماعات الرهبانية تعطى للكنيسة بسخاء .

غير أنه مما يوجب الالتفات هنا أن موارد رهبان الأديرة عند الأنبا باخوميوس ومصروفاتهم [٦١] ، شابهت موارد ومصروفات الرهبان هنا فى وادى النطرون . بيد أن ثمة اختلافات فى نظام العمل اليدوى بين هؤلاء وأولئك ؛ وأول هذه الاختلافات أن العمل فى الدير الباخومى حددت له أوقات خاصة ، وصار لا يجوز للديرى أن يتعداها ، ولا أن يقوم بعمل أكثر مما هو مطلوب منه ، والحكمة فى هذا أن يصبح القانون الذى

وضعه الأنبا باخوميوس ممكن النفاذ بواسطة أى ديرى ، شيخ أو شاب ، حتى لا يتعرض المخالفون إلى العقاب . ومن هذا ما حدث عندما قام أحد الديريين بعمل عدد كبير من الحصر أكثر مما طلب منه ، رغبة فى كسب رضى الأنبا باخوميوس ونتيجة هذا أهمل رعاية الديريين وتقديم الطعام لهم وهو الأمر الذى أنيط به . وعند رجوع الأنبا باخوميوس بعد غيبته عن الدير ، تقدم هذا الديرى (الراهب) مسروراً يعرض عليه عمله الكثير ؛ غير أن الأنبا باخوميوس كدره أن يرى مخالفة واضحة لأحد أوامره ، وأصر على الرغم من هذا الانتاج الكبير أن تلقى كل الحصر فى النار ، حتى أتت عليها جميعاً على مرأى من كل رهبان الدير ، وأوضح لديرييه أنه كان ينبغى على هذا الديرى أن يطيع الأوامر . وألا ينصرف إلى العمل اليدوى ويهمل الصلاة ورعاية إخوانه (٦٢) . والملحوظ أنه لم تكن مثل هذه الرقابة مفروضة على رهبان وادى النطرون ، بل تركت لهم حرية أكثر . وعلى الرغم من أن العمل قانوناً حدد له فى وادى النطرون من « الساعة السادسة » أى منتصف النهار ، إلى « الساعة التاسعة » أى عصر اليوم ، فإن الرهبان دفعوا عن أنفسهم الملل فى كثير من أوقات صباحهم بالعمل اليدوى . وثمة اختلاف آخر هو أن العمل فى الدير الباخومى قام به رهبان الدير فى غالب الأحيان جماعة (٦٣) ، بعكس وادى النطرون حيث قام الرهبان بعملهم فرادى . ولم يفعل شيوخ الرهبان فى وادى النطرون مثل ما فعل الانبا باخوميوس ، الذى فرض على كل

قلاية نشيطة أن تعاون القلاية الأخرى الضعيفة لتمكنها من إنتاج المقدار المطلوب منها ، وتقف على قدم المساواة مع غيرها ، وبينما أخذ رهبان وادى النطرون الأشيـــاء اللازمة لعملهم الأسبوعى يوم الأحـد من كل أسبوع إذ بالأنبا باخوميوس يشرف على توزيع العمل على دريبه يوما بيوم[٦٤] .

وقد حدث تطوير للعمل اليدوى على أيدى القديس باخوميوس والقديس شنوده ؛ فلم يقتصر العمل على ضفر الخوص ، وإنمـا تعداه إلى تحسين الخطوط ، التى أنشأ لها القديس شنوده مدرسـة خاصة ملحقة بالدير ، وذلك خدمة لمسألة نسخ الـكتب المقـدسة والـكتب الدينية ، وكذلك رعى المـاشية والرى والزرع والحصاد وأعمال المخازن ؛ ممـا يبين أن الأديرة أكدت ضرورة اعتمادها على نفسها فى كل مواردها ، كما وضح أيضاً أنهـا استغلت كثيراً من الأراضى الصحراوية ، واستفادت بها فى الزراعة .

وإذ زاد العبء على رئيس الجماعة الرهبانية فى وادى النطرون بازدياد عدد الرهبـــان ظهرت الحاجة ماسة إلى وجود مشرف اقتصادى ، ليتولى تنمية إيرادات الجماعة وتدبير الصرف عليها . وممن تولى هذه الوظيفة فى نتريا الراهب أوريجن فى عهد رئاسة بامو ، والراهب يوحنـــا فى جماعة مكاريوس الـكبير فى عهد رئاسة بافنوتيوس تلميذ مكاريوس الـكبير ، والذى تولى رئاستهـا من بعده[٦٥] .

أما السياسة الإقتصادية العامة فى الجماعة الرهبانية فهى الإكتفاء الذاتى ، أى ألا تزيد المصروفات على الإيرادات ، مع الحرص التام

على تخصيص جزء من هـــذه الايرادات للتصدق على الفقراء والمساكين .

وتولى المشرف الاقتصادى الاشراف على مخازن الجماعة حيث أودعت كميات الحبوب التى حملها الرهبان بعد عودتهم من الحصاد ، وكذلك كميات الزيت اللازمة للرهبان . وعاون المشرف فى أعماله عدد كبير من الرهبان . ويتضح هذا من أنه عهد إليـه كـذلك إدارة مطابخ وأفران الجماعة الرهبانية . وقامت الأفران السبعة فى نتريا بعمل الخبز اللازم لهذا العدد الضخم من رهبانها (٦٦) ، كما قدمت الخبز للمنفردين الأوائل فى سليا.واستمرهذا الامر مدة طويلة ويبدو أنه توقف بعد رئاسة الأنبا مكاريوس الاسكندرى للجماعة الأخيرة بفترة وجيزة (٦٧) .

تقاليد الضيافة والزيارة عند الرهبان :

ومن الأعمال الهامة التى عهد بها رئيس الجماعة الرهبانية إلى هذا المشرف الاقتصادى ، إستقبال الغرباء والراغبين فى الشفـاء وإيوائهم ببيت الضيافة الواقع إلى جوار الـكنيسة (٦٨) ، وإرشادهم إلى التعليمات الواجب اتباعها فى سلوكهم إزاء الرهبان . وامتاز بيت الضيافة عن سائر القلالى بتجهيزه بوسائل الراحة الضرورية للمرضى خاصة وللزائرين عامة ، وتوفر عدد من الرهبان خصصهم شيخ الجماعة الرهبانية للقيام على الخدمة الطبية لزملائهم وزائريهم (٦٩) . ومن الرهبان الذين قاموا بهـــذه المهمة فى نتريا ، الراهب أبولونيوس ، الذى اتخذ من مهنة الطب خدمة فرضها على نفسه نحو

الآخرين[٧٠] ، وإذ سمح للزائر أن يقيم فى بيت الضيافة مدة لا تتعدى سنوات ثلاث ، فإن الرهبان عامة رحبوا بضيوفهم أيما ترحيب ، إلا أن العرف والتقاليد بين الرهبان قضت بأن يترك الزائر المقيم فى بيت الضيافة فى الأسبوع الاول دون عمل ، وبعد هذا يعهد إليه بالعمل فى الحديقة ، أو فى الفرن ، أو فى المطبخ . أما إذا أدرك الرهبان علو كعب الزائر ، فإنهم يعطونه كتاباً يقرأه . والظاهر أن فرصة الاسبوع الاول أعطيت ليستريح الزائر من مشاق السفر ؛ غير أن شرطاً هاما فرض على مثل هذا الزائر حتى فى هذا الاسبوع ، وهو ألا يتحدث مع واحد من الرهبان من الصباح إلى وقت الظهيرة ، وذلك حتى لا يشغل الرهبان عن التفرغ لصلاتهم وعبادتهم[٧١] ، ويبدو أن مضيفة سليا لم تضع لزائريها كل تلك الشروط نظراً لان أكثر الغرباء لم يفضلوا الاقامة بها مدة طويلة .

أما فى قلالى الرهبان أنفسهم فإن أكثر الرهبان اهتموا بزائريهم ، وخاصة أولئك الذين جاءوا اليهم رغبة فى الاستماع إلى تعاليمهم .

واتسعت بعض قلالى الرهبان فى نتريا وشيهيت ، حتى أصبحت كافية لاستقبال عدد من الزائرين ، وأصبح تقليداً أنه إذا دخل الزائر قلاية الراهب قام لاخير بغسل رجلى الزائر ، وقدم له الطعام فى الساعة التاسعة من النهار ، أما إذا جاء الزائر من مسافة بعيدة فإن الراهب يضع له المائدة حالا[٧٢] . وتحدث روفينوس عن استقبال رهبان نتريا له ولمن معه فى قوله

« عندما كنا نقترب من المكان ، وعندما علم الرهبان أن أخوة غرباء يقتربون ، خرجوا حالا مثل النحل كل من قلايتـــه ، وجروا لاستقبالنـا مرحبين شغوفين ، وحمل أكثرهم جراراً مملوءة بالمـاء ، كما حملوا الخبز ، وبعد أن استقبلونا أخذونا إلى الكنيسة بالتراتيل ، وغسلوا أرجلنـا وجففوها بالكتان ، لكى يخففوا عنا متاعب الطريق ، أما عن تقواهم وتواضعهم ومحبتهم ، فماذا أقول ؟ إذ عندما أخذنا كل منهم إلى قـــلايته لم يقم بواجب الضيافة فحسب ، بل قام به فى تواضع جم ، فهم أكثر النـاس تواضعاً وأرفعهم خلقاً[٧٣] »

ومن عادات الرهبان ؛ احتفاظهم بجزء من طعامهم لأى زائر يطرق بابهم ، فالقـديس موسى الأسود أوصى رهبانه بضرورة الاحتفاظ بنصف تعيين الخبز المعطى لهم إلى ما بعـــد الساعة التاسعة (العصر) ، خشية حضور أحد الزائرين ، كما أوصى بأن يجهز الراهب للزائر حساء من الفول ، ويقـدم بعض الخضر ، وخاصة أوراق الكرنب[٧٤] .

وهكذا قدم للضيوف طعام بسيط ، مكون فى أغلب الأحيان من خبز جاف ولكنه بقـدر محدود ، وحساء ، وبعض الخضر ولم تقـدم الفاكهة إلا نادراً ، إذ أن أكثر الرهبان لم يحتفظوا بالفاكهة لأنهم لم يذوقوها إلا مرات قليـلة فى السنة ، أما فى نتريا على وجه الخصوص ، فإن الرهبان قدموا النبيذ بقدر معين تحية للزائرين[٧٥] .

غير أن بعض الرهبان وخاصة من الساكنين فى سليا رفضوا

مقابلة الناس لاعتقادهم ، أن الراهب الذى يزوره البشر الفانون لا تزوره الملائكة [٧٦] . ولذلك عملوا فى قلاليهم سراديب طويلة ، حتى إذا ضايقهم الفضوليون ، استطاع الواحد منهم أن يسير فى السرداب مسافة طويلة ليخرج من نهايته ، فلا يراه الزائر . ومن هؤلاء القديس مكاريوس الاسكندرى ، الذى قضى مدة الصوم فى قلاية من هذا النوع [٧٧] ، أما زيارات الرهبان لاخوانهم ، فلم تكن شيئاً مستحباً لدى الكثيرين منهم ؛ فالقديسان مكسيموس ودوماديوس قبعا فى قلايتهما ، ولم يحاولا الاتصال بالرهبان أو مقابلة واحد منهم ، كما أنهما لم يزورا القديس مكاريوس نفسه كثيراً ، ولهذا بقيا مجهولين لدى كثير من الرهبان . غير أن مرض بعض الرهبان استدعى عيادة المريض وتقديم اللازم له ، وخصص شيخ الجماعة الرهبانية من الرهبان النشيطين من يرعى المرضى ، ويقوم بخدمة المتوحدين ، وأصبح هذا أمراً هاماً لازماً ، للاطمئنان على حياة المرضى ، الذين استثنوا من النظام الرهبانى ، وأعطى لهم كل ما طلبوه من مأكل ومشرب ، ومن هذا ما حدث عندما زار القديس مكاريوس الكبير أحد الرهبان المرضى ، وطلب منه الأخير أن يرسل له بعض الكعك والعسل فسافر القديس مكاريوس ، غير عابىء بما فى الطريق من تعب ومشقة ، وأحضر للراهب ما طلبه [٧٨] .

وتعود رهبان سليا أنه إذا تخلف راهب ممن تعودوا الحضور إلى الكنيسة لصلاة الأحد ، وأدركوا أنه لا بد مريض ، فيتوجهون إليه على دفعات ويأخذ كل منهم معه ما يظن أنه يدخل عليه

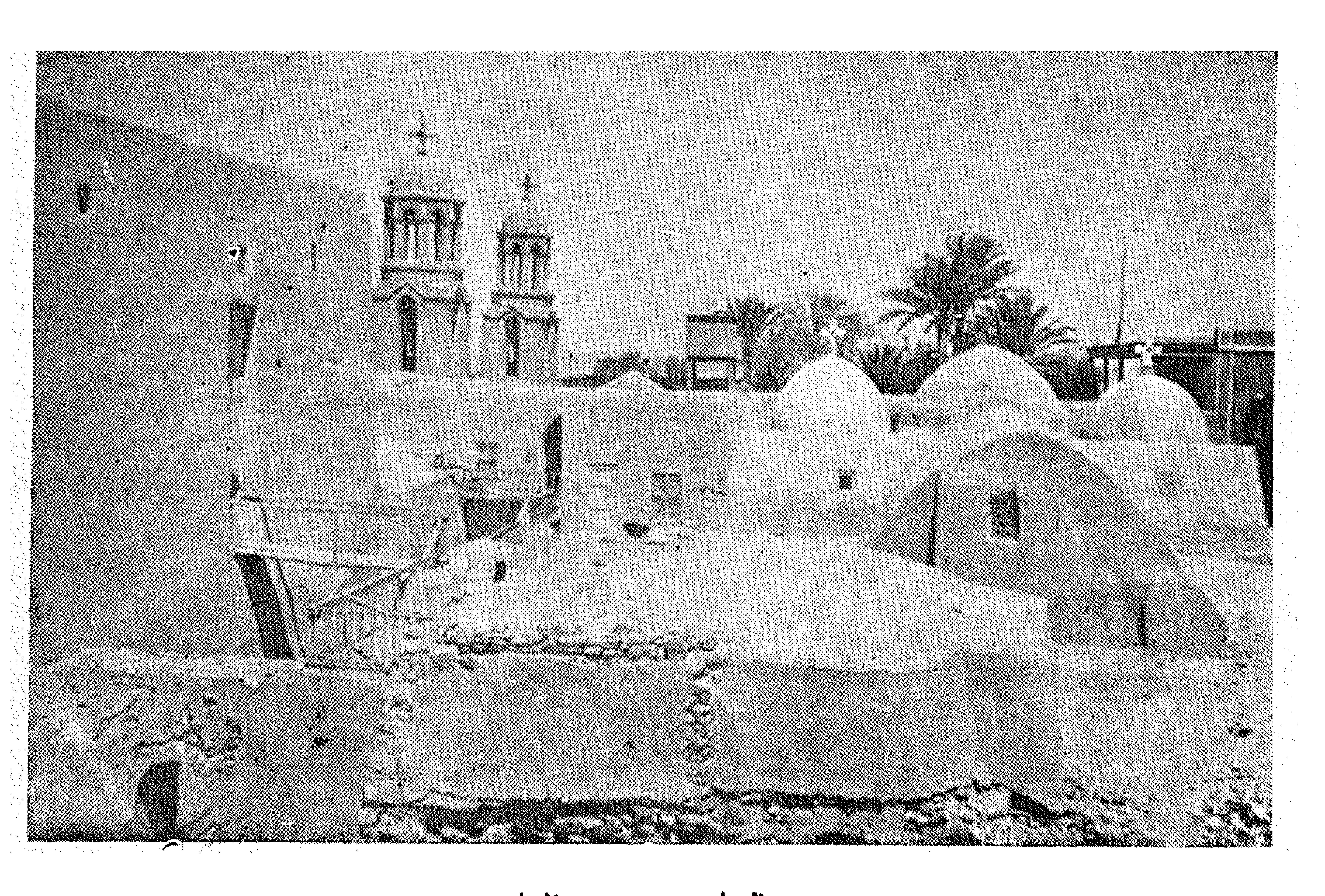
السرور أو ما يظهر نافعاً للمريض (٧٩) . وهكذا حمل الرهبان لزملائهم المرضى هدايا من الفاكهة وأخصها التمر والعنب ، كما حملوا اليهم النبيذ (٨٠) .

وانحصرت أغلب زيارات الرهبان إلى شيوخهم من أجل طلب الارشاد والنصح والمناقشة فى الامور الروحية ،ودراسةالانجيل (٨١) .

كما حرص الشيوخ أنفسهم على زيارة القديس أنطونيوس للتزود من تعاليمه ، حتى إذا ما عادوا إلى وادى النطرون ، تحدثوا عن أعماله وأقواله (٨٢) . ولم ينس بعض الشيوخ افتقاد الرهبان الجدد للاطمئنان على حياتهم الروحية ومدى تنفيذهم الصلوات المفروضة فى مواعيدها ، وهكذا تبادل الرهبان الزيارة ؛ غير أن التقاليد الرهبانية قضت ألا يقوم الراهب بهذه الزيارة قبل الساعة التاسعة من النهار (العصر) ، وتستمر الزيارة لمدة أقصاها نصف الليل ؛ وآنذاك يجتمع الرهبان لصلاة نصف الليل . وإذا أتى الراهب إلى صومعة راهب آخر يخلع عنه رداءه الخارجى ، وإذا كان حضوره لسبب طارىء قبل الساعة التاسعة اشترك مع زميله فى الصلاة ، وبعد انتهائها يجلس كل منهما على الارض فوق حصير (٨٣) ، ويقدم له الطعام عند الساعة التاسعة ، وعلى الراهب أن يراعى حدود اللياقة فى تناول الطعام فلا يمس الطعام قبل أن يرجو زميله الضيف فى البدء فى تناوله (٨٤) ، ثم يقضى الراهب فترة مع زميله يتحدثان فيها عن حياتهما وتداريبهما ، حتى إذا ما انتهت الزيارة ، ودع الراهب زميله بعد أن يطلب منه الصلاة من أجله ، ثم يعود إلى صومعته (٨٥) .

ويتضح مما ذكر عن زيارة القـــديس مكاريوس الكبير لتلميذيه مكسيموس ودومادیوس أن زيارة شيخ الرهبان لتلاميذه لم يكن بها شذوذ عن العرف المتبع فى زيارة الرهبان لزملائهم، إذ أن مكسيموس ودوماديوس بعد انتهاء صلاة الساعة التاسعة قدما له الطعام ، ثم شربا الماء بعده من الجرة ، ونام مكاريوس عندهم جزءا من الليل فوق حصير على الأرض ، حتى إذا ما حلت صلاة نصف الليل قاموا جميعاً لادائها ، ثم غادرهما القديس مكاريوس راجعاً إلى صومعته بعد أن طلب منهما الصلاةمن أجله (٨٦) .

من كل هذا يتضح أن الرهبنة لم تكن حركة غير منظمة ، أو استجابة لبعض الميول البشرية فى العزلة ، وإنما كانت حركة منظمة ، وضع كل قانون فيها بلباقة وحسب ترتيب معين يتفق والاتجاه الكنسى وتعاليم الكتاب المقدس فى شيء من التدقيق حتى يكون سلوك الرهبان مثلا أعلى للسلوك المسيحى الذى دعى المسيحيين ليسلكوا « بالتدقيق لا كجهـــلاء بل كحكماء مفتدين الوقت لأن الأيام شريرة » فنظمت ساعات النهار والليل فى احكام تام ودقة بالغة ، وجرت تعاليم الرهبان النسكية بعضهم لبعض فى تدرج فى سلم الفضائل الروحية ، مع المحافظة على التقاليد الكنسية بشكل واضح ، ومن أجل هذا كله أصبحت هذه الجماعات الرهبانية مكان الأمان لكل طالب للأمان والسلم فى نواحى البلاد التى قاست من الرومان ، بل أضحت أيضاً مكان الأمان والسلام الروحى من خارج البلاد ،فلا عجب أن هرع اليها أفواج من أوربا وآسيا من مختلف بلدانها ومن مستويات الناس الرفيعة والمتواضعة على السواء .



دير البراموس من الداخل
ونلاحظ قباب الكنيسة القديمة

مراجع وشواهد الفصل الثالث

(١) Worrell : A Short Account Of The Copts, P. 12.
أنظر كذلك القوصى ، عبدالعزيز : أسس الصحة النفسية ص ٦٤ .

(٢) White : The Monastries Of Nitria V II. P. 171

(٣) Mackean : Christian Monasticism P. 83.

(٤) O'Leary De Lacy : The Saints Of Egypt P. 72.

(٥) Besse : Les Moines D'Orient. P. 412.

(٦) Migne : Patrologia Latina XXII C 352-353.

(٧) Besse : OP. Cit. P. 413.

(٨) Fowler : Christian Egypt p.p. 32. & 52.

(٩) Workman . The Evolution Of Monastic Ideal. P.P. 19-20.

(١٠) White: OP. Cit. V II P.P. 171-172.

(١١) من اسباب العقاب أن راهباً عوقب لأنه استخدم ثلاثة مكاييل من الزيت فى اعداد الحساء (الشوربة) بدلا من مكيال واحد أنظر

Palladius : The Paradise V I. P. 99.

(١٢) راجع بستان الرهبان جـ ٢ ورقة ١٢٧ .

(١٣) White : OP. Cit V II P. 175.

(١٤) Butler : Lausiac History Of Palladius V I P. 234

(١٥) White : OP. Cit V II P. 177.

(١٦) نخبة من آباء الكنيسة : الصادق الامين فى تاريخ القديسين جـ ١ ص ١٠٠ .

(١٧) راجع ما ذكر عن يوحنا القصير بالفصل السابق .

(١٨) White : OP. Cit. VII P.P. 180-181.

(١٩) بلاديوس بستان الرهبان جـ ٢ ص ١٢٣ - ١٢٤ .

Annan Isho : Wit & Wisdom Of Christian fathers. P. 141.

(٢٠) بلاديوس المرجع السابق جـ ٢ ص ١٣٧ .

(٢١) Palladius : The Paradise V I P. 130.

(٢٢) Ladeuze : Cenobitisme Pakhomien P.P. 288-288.

(٢٣) نخبـــة من آباء الكنيسة : الصادق الامـين فى تاريخ القديسين جـ ١ ص ٩٤ .

(٢٤) Cassien : Institutiones T V P.P. 299-303.

(٢٥) Mackean : Christian Monasticism P. 79.

(٢٦) الرسالة الاولى إلى كورنثوس : الاصحاح السابع : ع٣٢، ٣٤.

(٢٧) Cassien : Institutiones T IV P. 21 .

(٢٨) حبشى ، بانوب : شنوده مقال فى صور من تاريخ القبط رسالة مارى مينا الرابعة ص ١٢١ .

(٢٩) أنظر الفصل السابق عن مكسيموس ودوماديوس.

(٣٠) بلاديوس : بستان الرهبان جـ ١ ص ٦ .

(٣١) Workman : Evolution Of Monastic Ideal P.P. 47-48

(٣٢) Palladius : The Paradise V II P.P. 54-55.

(٣٣) راجع ما سبق بالفصل الثانى عن يوحنا القصير

(٣٤) Ladeuze : OP. Cit. P.P. 279-281.

(٣٥) A. M.G : T XXV - P. 330

(٣٦) بلاديوس : بستان الرهبان جـ١ص ١٠ .

(٣٧) Annan Isho : OP. Cit. P 47.

(٣٨) رسالة بولس الرسول الثانية إلى تسالونيكى : أصحاح ٣:٧-٨ .

(٣٩) أعمال الرسل أصحاح ٢٠ : ٣٤ .

(٤٠) نفس المرجع : أصحاح ١٨ : ١-٣ .

(٤١) Annan Isho : OP. Cit. P.P 38-39.

راجع كذلك ، القديس فيلوكسينوس المنبجى : أخبار الرهبان المصريين ـ مخطوط ورقة ٢٦ ا .

(٤٢) Mackean : Christian Monasticism P. 38.

(٤٣) Palladius : The Paradise V II P. 104.

(٤٤) Besse : Les Moines D'Orient P. 372 .

(٤٥) فيلوكسينوس المنبجى : أخبار الرهبان المصريين ـ مخطوط ورقة ٨٨ا .

(٤٦) Besse : OP. Cit. PP.365-371.

(٤٧) كتاب بستان الرهبان مخطوط جـ ٢ ورقة ٦٧ .

(٤٨) نفس المرجع والجزء ص ١٠٠ .

(٤٩) نفس المرجع والجزء ص ١٠١ .

(٥٠) Cheneau : Les Saints D'Egypte V I P. 119.

(٥١) سرابيون « الاسقف » ، ميمر مكاريوس الكبير ورقة ١٩ ب .

Palladius : OP. Cit V II P. 43 .

(٥٢) Waddell H : The Desert Fathers P 73.

(٥٣) العمرى ، ابن فضل الله: مسالك الابصار فى ممالك الامصار ص ٣٧٤.

(٥٤) Butler : Lausiac History V I P. 150.

(٥٥) طوسون : وادى النطرون ورهبانه ص ١٦٥ .

(٥٦) المسعودى ، القمص عبد المسيح : تحفة السائلين ص ٤٨.

(٥٧) Cauwnberg : Etude Sur Les Moines D'Egypte P.P. 82-83 .

(٥٨) Palladius : The Paradise V I P.P. 30-31

(٥٩) Annan Isho : Wit & Wisdom P. 18.

(٦٠) Waddell H : The Desert Fathers : P. 74.

(٦١) يذكر فى سيرة باخوميوس أن الديريين كانوا يربون خنازير على ما يخرج من غربلة الحنطة ، وعلى فضلات الطعام ، وكانوا يبيعون لحومها ، وتنفق أثمانها فى مصالح الدير ، ولم يكن هذا الأمر معروفاً فى وادى النطرون - راجع سيرة باخوميوس ص ٢٣ .

(٦٢) أصبح فى دير باخوميوس فى تابنيسى خمسة عشر حائكا ، وسبعة حدادين ، وأربعة نجارين ، وخمسة عشر صباغاً ، وعشرون دباغاً ، وخمسة عشر إسكافيـــاً ، وعشرون بستانياً وعشرة نساخ - سيرة باخوميوس ص ٢٢-٢٣.

(٦٣) Ladeuze : Cenobitisme Pakhomien P. 294.

(٦٤) Ibid : P.P. 295-296.

(٦٥) White : The Monastries Of Nitria V II P. 174.

(٦٦) Camb. Med. Hist. V I P.P. 522-523.

(٦٧) White : OP. Cit. V II P.P. 177-178. & P. 187.

(٦٨) Cabrol : Dict. D'Arch. Chret. T II P. 3126.

(٦٩) فيلوكسينوس المنبجى : أخبار الرهبان المصريين ورقة ٦٨ ا.

(٧٠) Camb. Med. Hist. V I P. 523.

(٧١) Palladius : The Paradise V I P. 99.

(٧٢) Mackean : Christian Monasticism P. 84.

(٧٣) Waddell,H : Desert Fathers P.P. 74-75.

(٧٤) White : OP. Cit. V II P.P. 206 – 207.

(٧٥) Makean : OP. Cit. P. 83.

(٧٦) Workman : Evolution Of Monastic Ideal. P. 35.

(٧٧) Cheneau : Les Saints D'Egypte V I P.P. 16 – 19.

(٧٨) Ibid : P. 126.

Annan Isho : Wit & Wisdom P. 121

(٧٩) Waddell : Desert Fathers P.P. 66-67.

(٨٠) Mackean : Christian Monasticism P. 90.

(٨١) Butler : Lausiac History. V I P. 234.

(٨٢) Annan Isho : Wit & Wisdom P.P. 6-7.

(٨٣) White : OP. Cit. V II P. 205.

(٨٤) Besse : Les Moines D'Orient. P. 317.

(٨٥) White : OP. Cit V II P. P. 206-207.

(٨٦) Ibid. P.P. 206-207.

الفصل الرابع

الحياة العامة وأنماط السلوك عند رهبان وادى النطرون

أثر النظام الرهبانى الانطونى فى رهبانية وادى النطرون ــ الحياة العامة فى الجماعات ــ القلاية ، بناؤها ومحتوياتها ، الحياة الرهبانية الانفرادية ــ أركان الحياة الرهبانية : الفقر الاختيارى ، الانضاع ، من هم الذين اختاروا حياة الرهبانية ــ الحياة اليومية للرهبان ــ الصمت ــ الصلاة ــ النوم ــ الصوم ــ الطعام ــ الشراب .

أثر النظام الرهبانى الأنطونى فى رهبانية وادى النطرون :

ظهر أثر النظام الأنطونى واضحاً فى الحياة الرهبانية التى تكونت بفضل إرشادات الأنبا أنطونيوس ، وبخاصة جماعات وادى النطرون [1] ؛ فإن الأنبا أنطونيوس على الرغم من بعد المسافة بينه وبين وادى النطرون ، أصبح المرشد الأول لهذه الجماعات فى كل أحوال حياتهم . وفضلا عن تتلمذ مؤسسى هذه الجماعات على يديه ، سعى أنطونيوس كذلك لافتقاد هؤلاء الرهبان ، وأصبح المرجع الأول فى كل صغيرة وكبيرة حتى فى اختيار أماكن إقامة الرهبان ، ويتضح هذا من استشارة الأنبا آمون للقديس أنطونيوس ، حين زاره فى نتريا عن مدى صلاحية سليا لحياة رهبانية انفرادية [2] .

ومما يوجب الالتفات أنه لم تكن لدى القديس أنطونيوس

فى بداية حياته الرهبانية فكرة إيجاد نظام رهبانى ، يخرج به على الناس ويدعوهم له ، إلا أن الظروف التى مر بها باعتباره زعيم روحى للجماعات التى التفت حوله هى التى أجبرته على أن يضع نظاما للرهبان ، حرص على أن يوجههم ، حسب ما ورد فيه ، للسير على نهجه . غير أن النظام الذى وضعه القديس أنطونيوس لم يكن نظاما مكتوباً وقتذاك على الرغم مما أشار اليه بعض المحدثين عن عثورهم على نظم أو قوانين القديس أنطونيوس المكتوبة فى عهده[٣] . ويبدو أن هذه القوانين دونت فى عصر متأخر ، إذ أن ما ذكر عن هذه القوانين يخالف الواحد منها الآخر فى عدد مواده ، كما أنه لو كانت لأنطونيوس قوانين مكتوبة ، لأشار إليها القديس أثناسيوس فى كتابه عن « سيرة أنطونيوس » ثم أن جيروم ، وبلاديوس ، وروفينوس ، ويوحنا كاسيان لم يشيروا إليها فى كتاباتهم .

وكيفما كان الأمر فإن النظام الأنطونى أضحى تقليداً تناقله الرهبان عن القديس أنطونيوس نفسه ، وما لبث هذا التقليد أن صب فى قالب محكم من التعاليم والنظم المتوارثة ، فأغنى الرهبان عن القانون المكتوب ، وبمضى الوقت أخذ بعض الرهبان فى تسجيله حتى لا يصيبه التغيير . ولعل السبب فى هذا أن هذا التنظيم بسيط بعيد عن التعقيد وكله يتصل بالتعاليم المسيحية الأصيلة . ثم أن الرهبان خاصة ، والمسيحيين ، عامة حرصوا على الاحتفاظ بالتعاليم « بالتقاليد » المسيحية ، التى نص الرسل على ضرورة التمسك بها ؛ ومن هذا قول بولس الرسول « فاثبتوا إذن أيها

الأخوة ، وتمسكوا بالتعاليم التى تعلمتموها ، سواء كان بالكلام أم برسالتنا »[٤] .

وأساس نظم القديس أنطونيوس عزلة الانسان التامة عن الحياة المدنية ، والحياة فى وحدة تامة أيضاً ، تحت إرشاد شيخ من الرهبان فى حياة الفقر الاختيارى .

غير أن هـذا الأساس لم يوافق أكثر الرهبان فى وادى النطرون لسببين : أولها كثرة عدد الرهبان ، وثانيهما ، ميل الإنسان بطبيعته إلى الحياة الإجتماعية ، فاضطر الراهب إلى نوع من الإختلاط بزملائه ، فنتج عن هذا تقارب قلالى الرهبان وتكوين الجماعات الرهبانية ، مع ما فى هذا التقارب من اختلاف عن النظام الأنطونى الاصيل فى مظهره لا فى جوهره .

ولذلك فإن وادى النطرون شهد فى القرن الرابع الميلادى ثلاثة أنواع من الحياة النسكية ، وأولها حياة السواح الذين هاموا على وجوههم فى بعض جهات الصحراء ، ينتقلون من بقعة إلى أخرى ، ويقيمون فى كهوف يحفرونها فى الصخر لأنفسهم . ولم يخضع أولئك الرهبان لنظام رهبانى خاص ؛ بل عاش الواحد منهم حياة نسكية قاسية ، حسب ظروف البيئة التى وجدها ؛ فلم يرتبط الراهب السائح بالصلاة فى كنيسة معينة أو أوقات معينة . وإذ اعتبر بعض المؤرخين القديس بولا أول السواح الذين عاشوا فى الصحراء الشرقية ، فأول السواح المعروفين الذين عاشوا فى وادى النطرون هو بطليموس المصرى بالإضافة إلى اثنين لم تذكر المراجع اسميهما ، وإنما ذكرت أن القديس

مكاريوس الكبير رآهما فى إحدى جولاته فى صحراء شيهيت ، فوجدهما شبه عاريين [٥] . أى أنهما اكتفيا من الملابس بما ستر العورة .

وأما النوع الثانى فهو الجماعات الرهبانية ، التى التفت كل منها حول أحد شيوخ الرهبان ، ومن هذه جماعة نتريا التى ذكرها روفينوس الذى زار نتريا حوالى سنة ٣٧٣ م ، وذكر أن عدتها حوالى خمسين وحدة رهبانية « جماعة رهبانية » [٦] وقدر المجموع الكلى لها كلها بثلاثة آلاف راهب [٧] . وزاد بلاديوس على هذا العدد ، فأصبح على تقديره بعد زيارته لهذه البقعة سنة ٣٩٠ م خمسة آلاف راهب ، وأطلق روفينوس على مواضع هذه الوحدات كلمة أديرة ، مع أنها لم تكن كذلك ، إذ أن كل وحدة رهبانية تكونت من عدد من القلالى يلاحق بعضها البعض وأحيطت كل واحدة بسياج غير مرتفع من اللبن ، وسكن الوحدة الأولى من هذه الوحدات الراهب آمون وجماعته . وأخذت هذه الوحدات أو الجماعات فى النمو إذ كلما ازدحمت وحدة من هذه الوحدات بالرهبان تأسست إلى جوارها وحدة أخرى من القلالى ، وهكذا حتى أصبحت خمسين ، تختلف كل منها عن الأخرى فى عدد قلاليها ورهبانها . غير أنه يبدو أن الوحدات الكبيرة فى هذه الجماعة بلغت سبعاً وأشرف على تدبير رهبان كل وحدة منها قسيس [٨] . وخضع القسيس لرئاسة واحد منهم ، وهو فى الأغلب أكبرهم سناً أو أقدمهم فى الرهبانية [٩] .

وتوسطت وحدات القلالى مساحة واسعة من الأرض ، زرع

الرهبان جزءاً منها ، وجعلوا منه حديقة ، تروى بماء من بئر ، وفى جانب من الحديقة بنيت كنيسة واسعة تكفى لهذا العدد الكبير من الرهبان . وليس هناك ما يشير إلى فخامتهما [١٠] ، بل يبدو أنها كانت غاية فى البساطة على نحو ما ألف الرهبان .

ولم يكن هناك قانون واضح لاختيار أماكن إقامة هذه الصوامع أو القلالى ، بل أن ظروف البيئة ورغبات شيوخ الرهبان هى التى حددت المكان [١١] . أما بناء القلاية فى هذه الجماعة فقام على مبدأ التعاون . وبنى أغلب الرهبان قلاليهم بمساعدة إخوانهم السابقين ، فإذا احضر راهب جديد ، دعى رئيس الجماعة رهبانه لمساعدته فى بناء القلاية ؛ فالبعض يحمل الآجر ، والآخر الملاط وآخرون المياه ، وغيرهم يسعون لإحضار الأخشاب اللازمة ، وفى نهاية اليوم ينتهى الرهبان من بناء القلاية على هذا النحو البسيط . أما إذا حضرت أعداد كبيرة من الرهبان أصبحت الحاجة ماسة إلى بناء قلالى كبيرة تشتمل كل منها على عدد من الحجرات يجاور بعضها البعض الآخر ، لتكون مخصصة لسكن القادمين ، كل فى حجرة خاصة ، ومن أجل هذا اتخذ بعض الرهبان بناء القلالى وظيفة لهم يؤدونها دون غيرها من الأعمال[١٢] .

ومهما يكن من أمر فإن هذه القلالى لم تختلف كثيراً عن منازل الفلاحين فى مصر ؛ فلم تكن مرتفعة عن الأرض ، كما بنيت من طوب خشن وسقفت بأغصان النخيل ، التى احتفظ بها الرهبان أحياناً لهذا الغرض[١٣] . وأضاف الرهبان إلى قلاليهم

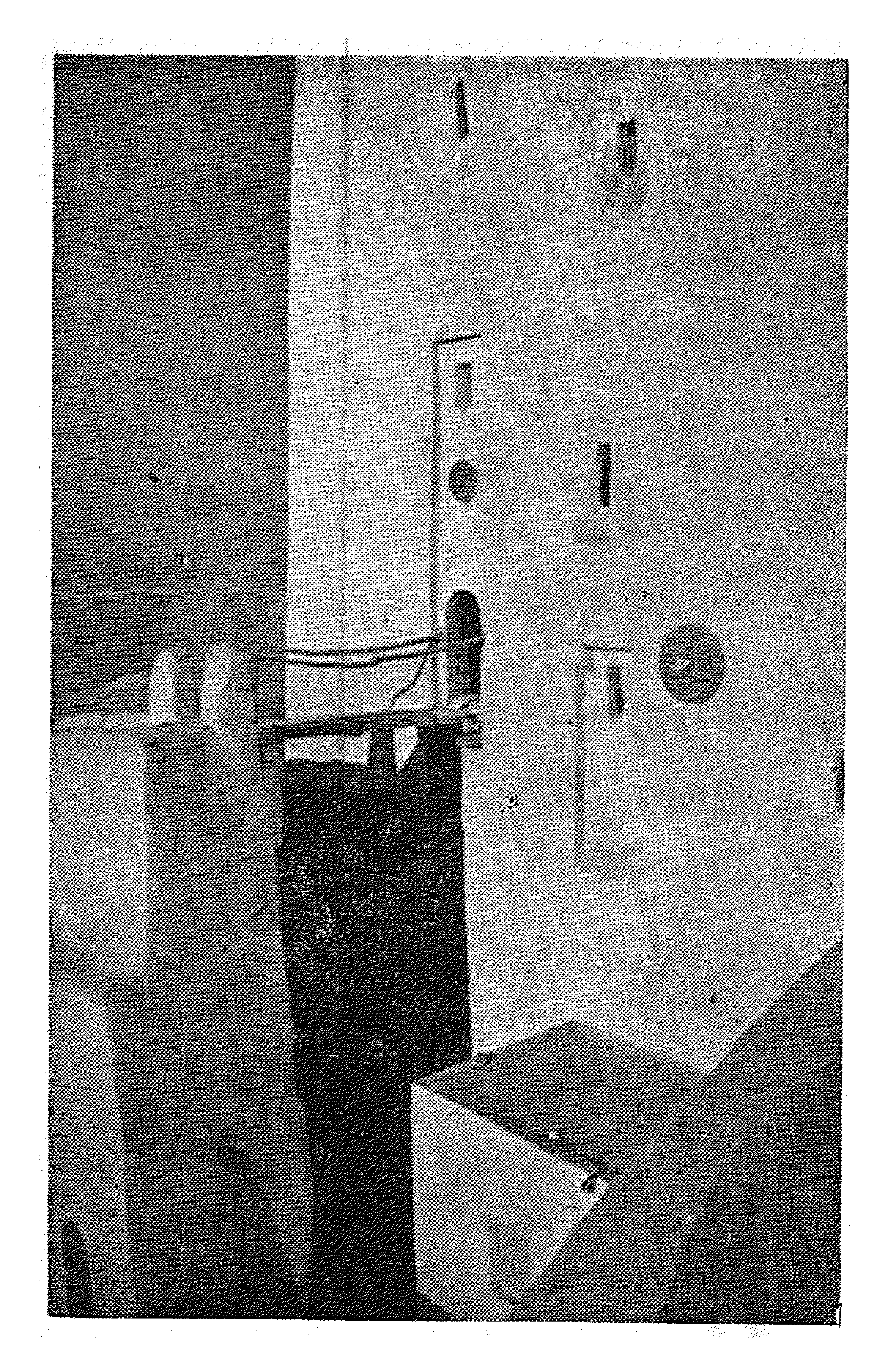
عدة قلالى مستقلة لاستقبال الزائرين ، أقيمت إلى جوار الكنيسة وسميت ببيت الضيافة[١٤] .

أما فى الإسقيط فإنه تكونت أربع جماعات رهبانية ، كل قائمة بذاتها منفصلة بكنيستها — التى سميت باسم رئيس الجماعة[١٥] وإدارتها المستقلة بحكم المسافة بين الواحدة والأخرى ، وقدر عدد رهبان الإسقيط فى أواخر القرن الرابع حوالى ألفين وأربعمائة راهب[١٦] . وبدأت هذه القلالى مغاوراً وكهوفاً حفرها الرهبان فى الصخر . ويلاحظ أن الحياة الرهبانية فى الإسقيط بدأت انفرادية ، ولذلك فإن شيوخ الرهبان علموا تلاميذهم حفر القلالى فى الصخر وتسقيفها بأغصان النخيل وفروع الأشجار ، أما الكهوف ، فلم يصل وصف عن شكلها ؛ غير أنه يبدو أنها لم تختلف كثيراً عن كهف القديس بولا بالصحراء الشرقية ، والذى امتاز بنظافته الفائقة وانبساط أرضه ونعومة التراب المنثور على أرضه ، كما أنه أغلق بحجر كبير[١٧] . ويبدو أن تحويل القلالى هنا فى الإسقيط إلى النحو الذى رأيناه فى نتريا استحدثه الرهبان عندما تطورت الحياة الانفرادية فى الإسقيط إلى حياة الجماعات ، وأصبح حفر المغارة أمراً صعباً . واحتوت كل جماعة كذلك على حديقة ومخزن لإيداع مؤونة الرهبان ومضيفة لإيواء الغرباء[١٨] . ولعل فى المقارنة بين قلالى الجماعة الرهبانية فى نتريا أو الاسقيط ، وبين الدير الباخوى ما يبين أوجه الخلاف ، فالدير الباخوى بنيت قلاليه فى شكل متقارب وسكن كل قلاية ثلاثة رهبان[١٩] . وكانت كل أربعين قلاية تكون

منزلا . واختلف عدد المنازل بحسب عدد الرهبان . وأحاط الدير كله حائط ضخم مرتفع يعزل الديريين عن العالم . ويمكن القول بأن الدير أصبح مثل المدينة المسورة المعروفة فى العصور القديمة وفى الدولة الرومانية[٢٠] . وبجانب باب الدير أقيم منزل للرهبان المنوط بهم شؤون باب الدير ، كما أقيم إلى جوار الباب بيت للضيافة أثث بالفراش اللازم . وفى الدير كذلك ، وعلى مقربة من بابه مكان آخر لاستقبال الحريم الوافدين على الدير للزيارة السريعة . أما الكنيسة مكان اجتماع الديريين والمطعم والمطبخ والمخازن والمكتبة وغيرها من المبانى اللازمة لأعمال الديريين فكانت فى الداخل ، وفى وسط الدير فناء متسع وحديقة[٢١] .

وإذ أصبح الدير الباخومى فى مأمن من الغارات الخارجية بسبب هذه الأسوار الضخمة التى أحاطت الأديرة ، وبسبب موقع هذه الأديرة بعيداً عن طرق البرابرة ، فإن جماعات نتريا والإسقيط ظلت عرضة لغارات البرابرة وتخريبهم بسبب عدم وجود تلك الأسوار ، وعدم وجود حصون يلجأ اليها الرهبان للحماية[٢٢] .

وأول غارة لهؤلاء البرابرة على رهبان شيهيت يمكن تحديدها من دراسة سيرة القديس أرسانيوس[٢٣] ، الذى تنسك بها ، إذ ذكر أنه توفى عام ٤٤٥م ، وقضى قبل وفاته عامين فى دير تروجا - وهى طرا الحالية - وقضى قبلها ثلاثة فى جزيرة كانوب وعشرة أخرى فى دير تروجا نفسه ، وأنه قضى هذه الأعوام كلها بعد الغارة الثانية للبربر ، التى وقعت بعد غارتهم الأولى

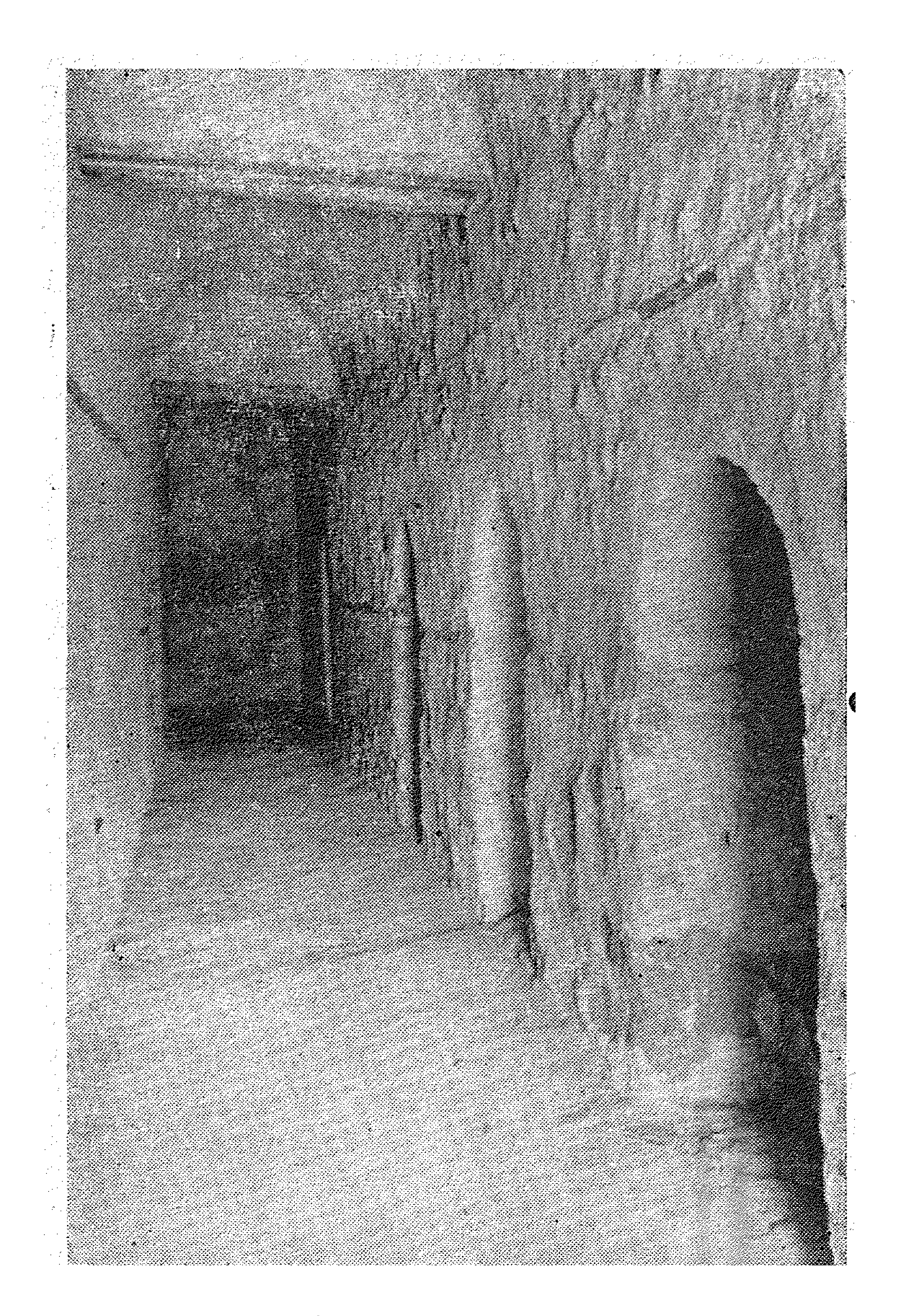


حصن فى أحد الاديرة

ونلاحظ القنطرة التى كانت تشد فتغلق باب الحصن

تماماً والباب مرتفع عن الأرض ولا يمكن للمهاجم الدخول

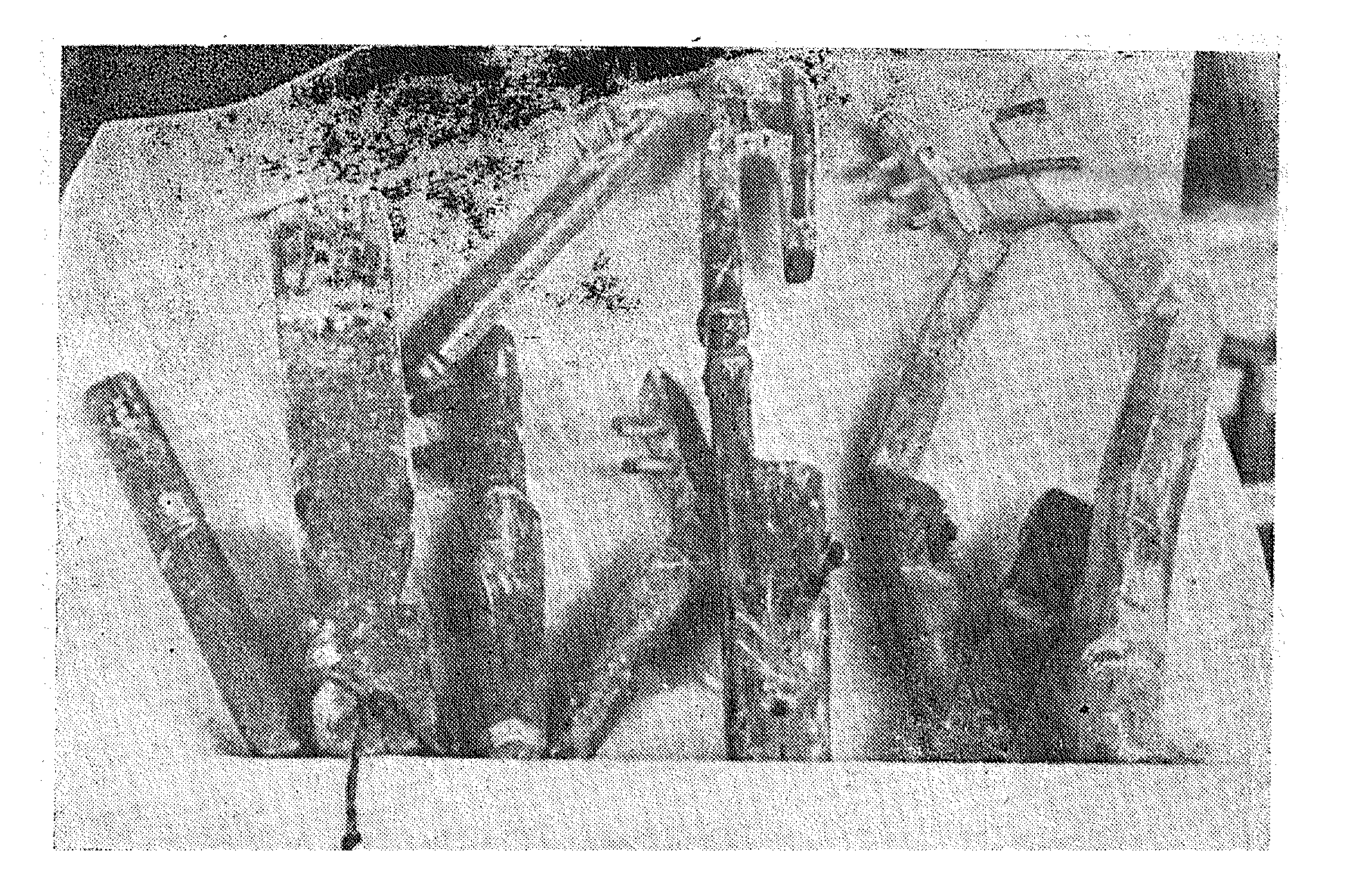
بعشرين عاماً ، فتكون أول غارة لهم حدثت قبل وفاة أرسانيوس بخمسة وثلاثين عاماً ، أى سنة ٤١٠ م ، أى فى أوخر عهد الأنبا ثاوفيلس البطريرك الثالث والعشرين (٣٨٥م - ٤١٢م) . والظاهر أن أكثر الرهبان رحلوا عن هذه الصحراء عند ظهور البربر بها ، ولم يبق على الأرجح سوى القديس أرسانيوس ، الذى أقام مع قليل من الرهبان اختفوا فى سراديب أو آبار . وإذ عاد بعض الرهبان ممن فروا ، بعد مدة وجيزة فإن الغارة الثانية للبرابره حدثت حوالى سنة ٤٣٠م ، ويظهر أن أكثر الرهبان انزعجوا انزعاجاً شديداً فى هذه المرة التى قتل فيها البربر تسعة وأربعين شيخاً من الرهبان . وفر أرسانيوس نفسه ليقيم فى دير طرا إلى نهاية حياته . وتوالت الغارات البربرية بعد هذا فى القرنين الخامس والسادس الميلاديين ، إذ حدثت الغارة الثالثة فى عهد البطريرك ديسقورس الخامس والعشرين (٤٤٢م - ٤٥٨م) وغارة أخرى فى عهد البطريرك دميان الخامس والثلاثين فى عداد البطاركة ، وذلك حوالى سنة ٥٢٥ م . ومما يذكر عن هذا البطريرك أنه أعاد فى أول عهده بناء قلالى الرهبان التى أطلق عليها منذئذ الأديرة الأربعة . غير أن البرابرة انقضوا عليها مرة أخرى ، وأحلوا بها هذا الخراب بدرجة اطالت تأثير هذا الحادث فى النفوس ، وأحزن هذا البطريرك كثيراً [٣٤] . وفى هذا ما يشير إلى أن الحصون بشكلها ، الذى يشاهد الآن فى الأديرة الحالية ، لم تكن أنشئت حتى القرن السادس الميلادى . ولو كانت هناك حصون فى القرن الرابع لذكرها الرحالون الذين زاروا



قلالى الرهبان فى داخل الحصن

هذه المنطقة وقتذاك . ولعل السبب فى تفكير جماعات الرهبان ، فيما بعد ، فى بناء الحصون ، هو ضعف الحكومة الرومانية ، وعدم مقدرتها على حماية الرهبان [٣٥] ؛ مما حدا بهم إلى العمل على تأمين أنفسهم من هـذه القبائل البربرية التى عرفت باسم قبائل المازاكى والمريوطيين [٣٦] . ومن الطريف أن تذكر المراجع أن مجىء تلك القبائل ودخولها إلى قلالى الرهبان فى بادىء الأمر لم يكن يقابل باكتراث كثير ، إذ تركهم الرهبان يحملون ما يريدون حمله من متاعهم الفقير وغذائهم القليل [٣٧] .

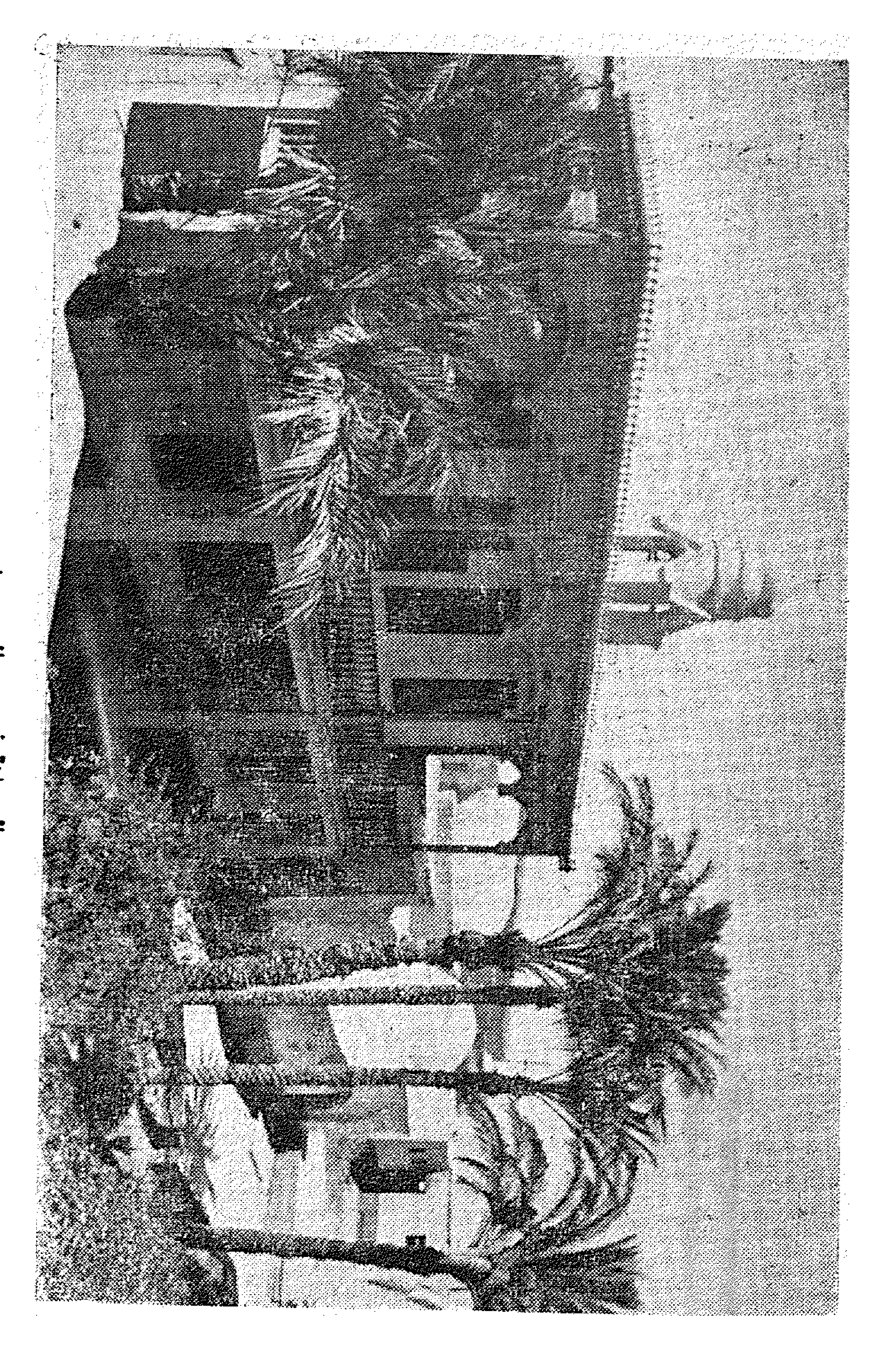
أما النوع الثالث من الحياة الرهبانية الذى شهده وادى النطرون فهو فى سليا ، التى عاش بها الرهبان المنفردون فى قلاليهم المبعثرة المتباعدة . وفى تلك الحياة القاسية بلغ عدد الرهبان أواخر القرن الرابع حوالى ستمائة راهب [٣٨] ، لم يحاول واحد منهم أن يعكر صفو وحدة الراهب المجاور ، اللهم إلا إذا أراد واحد أن يستشير الآخر فى أمر من الأمور الروحية ، غير أن كثيرين من هؤلاء الرهبان تكبدوا عناء السير مسافة ثلاثة أو أربعة أميال لحضور الكنيسة الوحيدة، التى بنيت فى أوائل القرن الرابع فى وسط القلالى [٣٩] . ومع بعد الكنيسة الوحيدة التى تبعد عن أكثر القلالى المحيطة بها فإن أكثر الرهبان أسرعوا يوم السبت اليها للاشتراك فى صلاة القداس . ومع هذا وجد من الرهبان من بقى فى قلايته مدداً طويلة ، شعوراً منه بعدم استحقاقه للاشتراك مع الرهبان الآخرين فى مثل هذه الصلاة الجامعة .



بعض مفاتيح الأديرة والقلال القديمة

ولم تكن الانفرادية التى رغب فيها هؤلاء الرهبان عن غير قصد ، بل أن هذا الانفراد أضحى من أجل هدف خاص ؛ وهو أن يعرف الفرد نفسه ، وأن يصل إلى درجة التأمل العميق فى الأمور السماوية[٣٠] . غير أنه اشترط ألا ينفرد الراهب إلا بعد أن يشعر أنه تخلص من أخطائه فى الحياة مع الجماعة وهو نفس النظام الذى اتخذه الأنبا شنوده وحاول تطبيقه . وفى سليا حتمت التقاليد الرهبانية أن يقوم الراهب الشاب مع الجماعة مدة ثلاث سنوات على الأقل ، ليتدرب على الأعمال الظاهرة تحت إرشاد الآباء والشيوخ[٣١] . أما الذين هم فى سن الصبا ، واحتاجوا إلى تدريبات أوسع فى المعرفة والنشاط الروحى ؛ فإنه حتم عليهم البقاء مع الجماعة مدة تتراوح بين ثمانى وعشر سنوات، وحينئذ على حد قول شيوخهم « يستحسن الهدوء فى القلاية »[٣٢]

واستعان هؤلاء المنفردون بشيوخهم لإرشادهم فى هذه الحياة القاسية ؛ فهذا أحد المنفردين يسأل شيخه « ما معنى اجلس فى قلايتك ، وهى تعلمك كل شيء ؟ » فيجيب بقوله : « فى أول مقامك فى القلاية ، (قلاية الانفراد) إعمل ما كنت تعمل فى تدبير الجماعة زماناً معروفاً فى الصوم والصلاة والقراءة وغير ذلك وبعد هذا يدفع لك الترتيب الذى يوافق مثلك من زيادة ونقص[٣٣] ». ثم أنه حرم على هؤلاء المنفردين مغادرة قلاليهم طوال أيام الأسبوع وذلك بعد أن انتشرت تعاليم القديس أنطونيوس ، التى شبهت موت الراهب الذى يغادر قلايته بموت السمك الخارج من الماء[٣٤] .



بيت الضيافة فى دير السوريان

القلاية ، شكلها ومحتوياتها :

وامتازت قلالى سليا بصغر حجمهما ؛ فلم تعد القلاية أصلا إلا ليسكنها راهب واحد ؛ فكانت بسيطة وغير مرتفعة . وقام الرهبان أنفسهم بحفر القلاية فى الصخر أو بنائها من الطوب ، وأحيطت من الخارج بحائط صغير . وسد القلاية باب من الخشب أغلق بمفتاح من الداخل ، وصار معروفاً أن الزائر لا بد أن يطرق الباب عدة طرقات حتى يؤذن له بالدخول[٣٥] .

وأصبح من عادة رهبان سليا أنه إذا وفد راهب جديد من الراغبين فى الانفراد على شيخ جماعتهم ، فإنه يترك للراهب الجديد قلايته ، ويذهب الشيخ بعيداً ويبنى قلاية أخرى لنفسه . غير أنه عندما بدأت سليا تزدحم بالرهبان ، وحضر عدد كبير منهم إليها ، فإن هذا الشيخ أصبح يجمع الرهبان ليتعاونوا جميعاً فى بناء أو حفر عدد من القلالى فى يوم واحد . وعندما يتم بناء القلالى يدعى من سيعيشون فيها إلى الكنيسة للاحتفال بهم ، ويحضر كل راهب من قلايته ما يستطيع إحضاره من لوازم الطعام ليقدمه للرهبان الجدد ، كما أن الرهبان يجهزون القلالى الجديدة بكل ما تحتاجه من أثاث بسيط ، بدون أن يعلم الرهبان الجدد عمن أحضر لهم تلك الأشياء . وعند رجوعهم فى مساء الأحد إلى قلاليهم ، يجدونها مهيأة مزودة بكل ما يحتاجونه[٣٦] .

ومما هو جدير بالذكر أن بعض القلالى كان واسعاً فاشتمل على حجرتين[٣٧] ؛ على حين أن أكثرها عمل بدون نافذة ، كما

بنيت ضيقة بحيث تعذر على الراهب أن يمد رجليه ، ومن هذا النوع قلاية القديس مكاريوس الاسكندرى التى بناهـــا لنفسه ليقضى بها بعض الأيام ، وخاصة صوم الأربعين المقدسة [٣٨] .

وفى أواخر القرن الرابع صار واضحاً أن مجموعة القـلالى فى سليا إزداد عددها بشـكل ملحوظ ، فبنى الأنبا إسحق الذى دبر هذه المجموعة بعد مكاريوس الاسكندرى — بيتاً ضخما للضيوف ، وجهزه لاستقبال الغرباء وإقامة المرضى . ويمكن تحـــديد تاريخ بناء هذه المضيفة بين سنتى ٣٩٥ — ٤٠٠ م [٣٩] . غير أن بناء هذه المضيفة فى وقت متأخر يبين بوضوح تأخر سليا فى السير نحو حياة الرهبانية الجماعية . وإذ بنيت هـذه المضيفة إلى جوار الـكنيسة ، فإنه أضيف إلى جوارهـــا مخزن لايداع مؤونة الرهبان .

واحتوت قـلاية الراهب سواء عاش مع الجماعة أو منفرداً على حصير وغطاء من جـــلد الحيوان أو الصوف ، كما حفر صوان فى الحائط ، احتفظ فيه الراهب ببعض الـكتب الدينية ، وغيرها مما احتوى تعاليم الـكنيسة ، وأخبار زعمائها من الآباء الأولين . وخزن الراهب المـاء اللازم له طول الأسـبوع فى جرة من الفخار ، كما وجدت بالقـــلاية ، إبر ، وحبال ، وخيوط ، وسعف النخيل ، وغيرها من الأدوات اللازمة لعمل السلال . وفى بعض القلالى شوهدت أنوال يدوية للنسيج ، كما احتفظ الراهب بسلة للخبز وعلبة للملح وبعض زجاجات الزيت وبعض أوانى الطعام من الفخار [٤٠] .

أركان الحياة الرهبانية :

وإذا عاش الراهب حياة نسكية فإن الفقر الاختيارى أصبح ركناً هاماً من أركان الحياة الرهبانية ؛ ذلك أن الرهبان طبقوا تعاليم السيد المسيح والرسل فى حياتهم النسكية هذه ؛ فالسيد المسيح يعلم الناس ألا يهتموا بالحياة الدنيا فى هذه الآية « أنظروا إلى طيور السماء فإنها لا تزرع ولا تحصد ولا تخزن فى الاهراء وأبوكم السماوى يقوتها[٤١] » . وأظهر السيد المسيح موقف الأغنياء — الحابسين أموالهم عن فعل الخير — من ملكوت السموات فى قوله « دخول جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت السموات » وبولس الرسول كتب فى رسالته إلى العبرانيين « لتكن سيرتكم خالية من محبة المال . كونوا مكتفين بما عندكم لأنه قال لا أهملك ولا أتركك[٤٢] » .

وسار القديس أنطونيوس على تعاليم السيد المسيح ، فباع ممتلكاته ووزعها على الفقراء ، وأبت نفسه إلا أن يحتفظ لأخته بشىء من ثروة أبيه ؛ غير أن دخوله الكنيسة مرة أخرى ، وسماعه الآية القائلة « لا تهتموا للغد » جعله يتخلص من كل ما احتفظ به من مال . ثم أودع اخته فى رعاية أحد بيوت العذارى آنذاك ، وخرج إلى الحياة الرهبانية خالى الوفاض ، مظهراً أن الفقر لم يصبح دليلا للعبودية[٤٣] . ونهج على منواله رهبان وادى النطرون ، إذ احتوت أكثر تعاليمهم على الحث على كراهة المال . وهذا هو القديس مكاريوس الكبير يحث

تلاميذه على هذا فى قوله « قولوا لى يا آبائى ، هل الملائكة فى السماء تجمع ذهباً وفضة وتسجد لله ؟ فنحن يا إخوتى عندما لبسنا هذا الزى ، أترى لنجمع مقتنيات وحطاما أم لنصير ملائكة ؟ فإذا كلنا يا اخوتى قد هجرنا العالم ورفضاه ، فلماذا نتراخى أيضاً ويردنا إبليس عن طريق المسكنة ؟ أما فهمتم أن الخمر ونظر النساء والذهب والفضة والنياح الجسدى وقربنا عن العلمانيين هذه كلها تبعدنا عن الله لأن أصل الشرور كلها محبة الفضة . . أما سمعتم قول يوحنا الرسول « لا تحبوا العالم ولا شيئاً مما فى العالم فمن أحب العالم فليست فيه محبة الله »[٤٤] . إن الله لا يريدنا نحن الرهبان أن نقتنى ذهباً ، أو فضة ، أو ملابس أو أموراً هيولانية ، إن الراهب المقتنى ذهباً وفضة لا يثق بأن الله قادر على أن يعوله وإن كان لا يعوله فلن يعطيه ملكه ، إن الراهب الذى عنده حاجته وينتظر من يحضر له فهو شريك ليوداس (يهوذا الأسخريوطى) الذى ترك النعمة وسعى طالباً محبة الفضة[٤٥] » .

ولم يشمل الفقر الاختيارى ممتلكات الراهب فحسب ، وإنما ملابسه أيضاً ، فلم يملك الراهب شيئاً حتى ملابسه ، التى رأى الشيوخ أنها ينبغى أن تكون رثة قديمة إمعاناً فى مضايقة الجسد[٤٦] . ونصح الشيوخ شباب الرهبان فى هذا الصدد بقولهم « لا يكن لك فى قلايتك ثوب زائد عن حاجتك ، ولست فى إحتياج اليه لأن هذا هو موتك ، ولأن هناك قوماً آخرين غيرك يؤلمهم البرد وهم أبر منك وأحق ، وأنت الأثيم عندك ما يفضل عنك .

ثوباً جديداً لا تلبسوه ، لأن جميع هذه تمنع من النوح ، وبلا جمال ليكن جميع ما هو لك وبما لا تتألم عل فقدانه . ثيابك وحذاؤك لتكن هكذا ، حتى لو جاء قوم ليسرقوها لا يرغبون فيها ولا يعجبهم شيء منها [٤٧] ، وهكذا صار محرماً على الراهب العادى أن يتدثر بعبـــاءة وسمح فقط لشيوخ الرهبان بعباءة قديمة باليـــة .

ثم أن الغرض من الدعوة إلى الفقر الاختيـارى ، هو أن يتعلم الراهب كذلك حياة الاتضاع حيث أن القديس أنطونيوس نفسه غالى فى مدح هذه الفضيلة فى قوله « أنه المبعد والمخاص من فخاخ الشيطان [٤٨] » بل أنه أكد أهميـة الاتضاع كوسيلة للوصول إلى درجة القداسة فى قوله « كما أن الكبرياء والعظمة أهبطتا إبليس من العلو إلى الثرى ، هـــكذا الاتضاع والهدوء يرفعان الانسان من الأرض إلى السماء [٤٩] » وأما الأنبا آمون فانه سمى الاتضاع « عظمة الانسان » ، وعنـدما سئل القديس مكاريوس الكبير عن رأيه فى الاتضاع قال « أنه ختم جنـديه للمسيح [٥٠] » فلا غرو أن تبارى الرهبـان فى وادى النطرون فى نسكهم الزائد ، وزهدوا فى امتلاك الأشياء وأمعنوا فى حياة التقشف ، حتى أن بعضهم لم يستحم ، ومع هـذا فإن واحـداً من الرحالين لم يشر إلى أن واحـداً من الرهبان كانت رائحـه بدنه غـير مقبولة [٥١] . ثم أن الرهبـان تواضعوا فى مسكـنهم ومأكلهم وملابسهم ، ليصلوا إلى أعـــلى مراتب القداسة التى دعاهم أليها شيوخهم .

ملابس الرهبان :

ثم أن الرهبان اتخذوا زياً خاصاً عن سائر الناس ، ولكنه ما لبث أن أصبح عاما بين الرهبان والديريين فى مصر كلها . ولما كان الغرض من ملابس الراهب أن تكون كافية لتغطية جسده وستره من حرارة الشمس ووقايته برد الشتاء ، فإنها أصبحت بسيطة غير لامعة [٥٢] .

والملاحظ أن ملابس الرهبان تطورت تطوراً ظاهراً بعد أن تطورت الحركة النسكية إلى حركة رهبانية ثابتة الأركان ؛ فالقديس بولا باعتباره أحد النساك اكتفى من الدنيا برداء من ليف النخيل ، على حين أن الأنبا أنطونيوس باعتباره مؤسس الرهبنة هو أول من لبس أردية من جلد الغنم [٥٣] ، وجعل منها قميصاً له ، ثم لبس من فوقها مسحاً من الكتان [٥٤] . واتخذ من الوبر قلنسوه لغطاء رأسه . وإذ أصبح هذا الزى عاماً ، فإن الأنبا أنطونيوس عندما حضرته الوفاة ، ولم يكن له من عتاد الدنيا سوى هذه الملابس ، فانه أوصى بجلد الغنم ومسح الكتان إلى البطريرك أثناسيوس ، وأوصى بغطاء الرأس إلى الأسقف سيرابيون الذى تتلمذ على يديه ،وأوصى بعكازه إلى مكاريوس الكبير . ومما يلقى الضوء على هذه الحقائق أيضاً أن الراهب هور الذى عاصر آمون فى نتريا لبس ملابس من جلد الغنم محافظة على هذا التنظيم الرهبانى [٥٦] .

غير أن الملابس الرهبانية التى لبسها الرهبان من تلاميذ الأنبا أنطونيوس وخلفائهم لحقها بشىء من التعديل ، ربما تحت ضغط الأحوال الاقتصادية . غير أنها لم تختلف كثيراً عن ملابس الانبا

أنطونيوس ، إذ لبس الراهب قميصاً من الكتان بدون أكمام ، بحيث يصل إلى أسفل مرفقيه ، ثم غطى كتفه ورقبته بفروة مدبوغة من جلد الغنم أو الماعز ، وفوقها ما عرف باسكيم الرهبان وهو رداء قصير من الكتان تمر فوقه خيوط صوفية مجدولة ، تنزل من أعلى العنق ، وتتفرع على جانبي الرقبة وتحيط بأسفل الابطين بحيث يعقد طرفاها وتترك الايدى طليقة . ويتصل هذا الرداء الثانى بقلنسوه من الوبر تغطى الرأس ، رسمت عليها بعض الصلبان . ثم عمد الراهب إلى وسطه فشده بمنطقة من جلد [٥٧] . ومن المقطوع به أنه ليس هناك ما يشير إلى اتصال هذا الزى بزى الكهنة فى مصر القديمة ؛ ففى عهد الدولة الحديثة نلاحظ أن كهنتها لم يلبسوا شيئاً على رؤوسهم ليحميهم من حرارة الشمس مثل ما فعل الرهبان ، ثم أنه ليس هناك كذلك علاقة بين جلد الغنم أو الماعز الذى وضعه الرهبان على أكتافهم وما عليه من صوف لم يسبق لكهنة مصر القديمة لبسه . ثم أنه ليس هناك علاقة بين هذا الجلد وبين جلد الفهد الذى وضعه بعض كبار كهنة هليوبوليس وغيرهم على أكتافهم فى الاحتفالات الجنائزية [٥٨] ، إذ الواقع أن كل هذه الملابس لها أسانيدها فى الكتاب المقدس، فلبس جلد الغنم أو الماعز إشارة إلى الآية القائلة عن المضطهدين فى العهد القديم أنهم « طافوا فى جلود غنم ومعزى ولم يكن العالم مستحقاً لهم [٥٩] » . ثم إذ ترك الرهبان أعمال العالم والاهتمام العالمى ، فانهم رمزوا لهذا بلبس القميص بدون أكمام [٦٠] . ورأى كاسيان أن القميص صنع من الكتان إشارة إلى موت

الرهبان عن العالم ، لأن الكتان كان هو القماش الذى تلف به أجسام الموتى ؛ أما لبس منطقة الجلد فإشارة إلى أن الرهبان اعتبروا أنفسهم جنود السيد المسيح فى الجهاد الروحى ولذلك فعلوا كإيليا ويوحنا المعمدان، اللذين لبسا منطقة من جلد على حقويهما [٦١] . ثم أن الرسل أشاروا إلى ضرورة لبس هذه المنطقة حيث يشير الكتاب المقدس إلى أن الرسول بطرس لبسها . وفى هذه المنطقة كذلك ما يشير إلى موت أعضاء الراهب الذى لبسها لأنها من جلد ميت [٦٢] . على أن أكثر الرهبان لم يلبسوا كل هذه الملابس داخل قلاليهم ، بل راعوا أن تكون ملابس القلاية مختصرة فاكتفوا بالقميص بدون أكمام ، كما ساروا حفاة الأقدام ، غير أن شدة الحرارة فى الصيف دعت إلى أن يحتذى الراهب صندلا ، إذا ما أزمع السير خارج القلاية ، أو السفر إلى مكان آخر [٦٣] .

وعلى أى الأحوال أصبح الغرض من ملابس الرهبان على حد قول أحد شيوخهم « ثوب بقدر الجسد لأن الغرض شىء واحد هو ستر الجسد من الحر ، والبرد ولا تطلب ازدهار الصبغ وحسنه ولا نعومه الثوب ولا ليونته ، لأن الميل إلى ذلك من صفات النساء . كما يجب أن يكون الثوب سميكا حتى لا يحتاج الأمر إلى وشاح ليدفىء لابسه ، وليكن الحذاء بسيطاً يتمم الحاجة الداعية اليه فقط [٦٤] » .

ومما يوجب الالتفات أن الرهبان حرم عليهم كذلك تغطية رؤوسهم أو لبس الصنادل أو السراويل التى تغطى القميص فتصل إلى الأرض وذلك حين حضورهم القداس فى الكنيسة أو التقدم

للتناول من الأسرار الربانية (٦٥) .

ومهما يكن من أمر فإن هـذه الملابس أثارت اهتمام يوحنـا كاسيان ووجه اليها نقده فى قوله « واضح إننـا لا نستطيع أن نلبس مثلهم هذه التونية (الرداء الخارجى) أو تلك الصنادل لأن الجو عندنا لا يسمح بذلك ، أما الفرو أو الصوف الذى يوضع عـلى الرقبة فهذا ربما يثير الضحك عنـــدنا ، ولذلك فإننا بطبيعة الحال اتخذنا زياً يلائم طبيعة مناخنا » (٦٦) .

وتوكأ الراهب على عكاز اعتقد أنه رمز لسلاحـه الروحى واعتبره تقليداً لا غنى عنه ، كما فعل أنبياء العهـد القديم ؛ إذ ورد أن اليشع النبى أوصى تلميذه جيحزى أن يأخـــذ عكازه ويذهب سريعاً ليضعه على ابن المرأة الشونمية ، الذى مات ليبعثه حياً . ولم يكن اليشع هو الوحيد الذى مسك فى يديه عصا ؛ بل أن موسى النبى توكأ عـلى عصا كذلك واستخدمها فيما أمره الله به فى مسألة تحويلها إلى ثعبـان ، وفى موضوع شق البحر الأحمر (٦٧) . وهكذا اعتقـــد الراهب فى عصاه كرمز للسلاح الروحى الذى يتغلب به على قوة الشيطان كما يرتـكز عليهـا وقت وقوفه فى الصلاة فلا يتغلب عليـه « شيطان النوم ».

وإذ أصبحت هـذه هى الملابس العادية للراهب ، فإن بعض المنفردين والسواح قلدوا الأنبا بولا ، فلبسوا ملابس من سعف النخيـل وأليافـه وبعضهم هاموا فى الصحراء شبه عرايا (٦٨) . ومـا هو ملحوظ كذلك أن الرهبان لم يعيروا ملابسهم الاهتمام الـكافى ، فإلى جانب رخص ثمنها وبساطتها فانها حيكت بغـــير

عناية [٦٩] . ثم أنه لم يكن للراهب سوى حلة واحدة ،فاذا غسلها بقى فى قلايته حتى تجف [٧٠] ، كما أن هذه الملابس بقيت لديه فترة طويلة وربما توارثها البعض تبركاً ، ولذا أصلحت الملابس عدة مرات ، وأضيف اليها من الرقع ما جعلها تبدو على هذا النحو المهلهل فتعافها النفس العادية [٧١] ؛ ولبسها الرهبان على هذا النحو إمعاناً فى النسك والاتضاع ، ومحاربة شهوات الجسد ، وكره العالم وكل ما فيه .

من هم الذين اختاروا حياة الرهبانية ؟ :

ولم يرغب فى الرهبانية أناس من طبقة بعينها فى مصر ؛ غير أنه يلاحظ أن عدداً كبيراً من طبقة العامة هرع إلى الصحارى والقفار تحت ضغط الظروف السياسية والاقتصادية ؛ ومن هؤلاء من ارتكب جرائم فظيعة فى شبابه ، وهم قلة نادرة على أى الأحوال [٧٢] . وليس من شك فى أن مثل هذه الجرائم حدثت بسبب ضغط الظروف الاقتصادية السيئة التى مرت بها مصر تحت الحكم الرومانى ، وخاصة فى القرنين الثالث والرابع الميلاديين . ومع هذا فإن من العجيب أن هذه الحياة الدينية التى اعتبرت مثلا أعلى للمسيحية جذبت أول ما جذبت أحد أغنياء مصر ، وهو أنطونيوس ، لتجعل منه زعيما للرهبانية ، مما حدا بعدد من الأغنياء الزاهدين فى الحياة الدنيا الى تقليده . وهذا وادى النطرون يمتلىء على سعته بكثير من الأغنياء ، لا من مصر فحسب وإنما من وراء البحر . ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر

ايفاجريوس الكبادوكى ، ومكسيموس ودوماديوس اللذين تربيا فى القصر الإمبراطورى ، وأرسانيوس معلمها . ومنهم من احتقر منصب الامبراطورية وغيرها من مناصب الدولة العليا ومنهم من زاول أكبر مناصب الدولة فى بلاط الامبراطورية الرومانيه ثم تركها ليحضر إلى وادى النطرون فيلبس المسوح ويعيش هـذه الحيـاة التى أرادها لنفسه طائعاً مختاراً !! (٧٣) .

الحيـاة اليومية عند الرهبـــان :

وقضى الرهبـان حياتهم فى نظام محكم إذ أنه فى خمسة أيام من الأسبوع تبدأ من الاثنين حتى يوم الجمعة ،أمضاها الرهبـان فى قلاليهم قائمين بالتداريب التى فرضها عليهم شيوخهم من الرهبان فى ترتيب خاص ؛ فسبحوا بعقولهم فى الأمور الإلهية ، وحرصوا على أداء فروض الصلاة الانفرادية أو الاجتماعية فى أوقاتهـا ، دون التحدث مع الآخرين . واقتصروا فى اتصالاتهم على بعض الشيوخ المشهود لهم بالتقوى ، وقاموا بعملهم اليـــدوى مرتلين المزامير ، حتى إذا ما انتهت أصبح الصمت من أوجب الأمور لحياتهم الروحية . ووضع القديس مكاريوس الكبير نظاماً يومياً لتلاميذه فى قوله « وإذا بلغت الساعة الثالثة (حوالى التاسعة صباحاً) قف قدام الصليب واجمع أفـــكارك من فهم القراءة التى قرأت واسجد بتخشع لربنا بوجع ودموع ، ليعطيك فهم مزمور داود . وإذا ابتدأت بالقراءة فلا تستعجل ، بل افحص المعرفة المخفية فى المزامير . وإذا أكملت صلاة الساعة السادسة كالعادة والقـانون

الموضوع عن الآباء، اقرأ فى كتاب الآباء إلى الساعة السادسة (منتصف النهار) ، وافهم ما تقرأه ، ثم ضع الكتاب وقدم التسبيح واسجد قدام الصليب وانظر بعقلك إلى يسوع المسيح . ومن الساعة السادسة إلى الساعة التاسعة (الثالثة بعد الظهر) ، إن كان لك عمل يد فاصنع ما تريد ولا تترك قانون المطانية (السجود) ، من أجل عمل يديك لأن الآباء عملوا فى القلاية بمخافة الله من غير شره [٧٤] » .

وفى فترة العمل اليدوى حرص الراهب على أن يقاوم الأفكار العالمية وألا يفقد نشاطه الروحى ، أو الجسدى ؛ فسبح كذلك بعقله فى السماء وتأمل فى أعمال الملائكة ، حتى أن يوحنا كاسيان علق على هذا النشاط الرهبانى الفائق الحدود بقوله « أرى عينى مفتوحتين أمام محيط ليس له نهـــاية . وأريد أن أكتب عن حياة وسياسة هؤلاء الرجال العظام ، فان الوحدة المهيمنة عليهم ، والحياة النشيطة فى الجماعة ، والتأمل فى الله ، قام به هؤلاء الناس الممتازون بدون انقطاع [٧٥] » .

الصمت :

وحرصاً على السلام الدائم بين هذه الجماعات ، أو بين الرهبان المنفردين قرر الرهبان ضرورة الصمت الدائم . ومن التعاليم التى ألقيت على الرهبان فى هذا الصدد ، أنه « يجب على الراهب أن يكون فى سكون فى كل حين ولا يسمح لأفكاره التى توعز اليه بكثرة الكلام ، الذى يضعف النفس ، بل ليمسك عن الكلام

حتى ولو نظر أناساً يضحكون أو يتحدثون بكلام لا منفعة له ، وذلك لجهلهم ؛ لأن الراهب الحقيقى يجب أن يتحفظ من لسانه، كما هو مكتوب فى المزمور (اللهم اجعل لفمى حافظاً وعلى شفتى ستراً حصينـــاً) . فالراهب الذى يسلك هـكذا لا يعثر أبداً بلسانه (٧٦) » .

واعتبر الراهب الصامت حائزاً على أعظم الفضائل التى إذا اضيف اليها الصيام الدائم « برتبة واتضاع ومحبة » (٧٧) ، ولم يجتمع بآخرين سوى من يأخذ مشورتهم ، أصبح قريباً من عداد القديسين . ومن أجل هذا قسى الرهبان على أنفسهم لحفظ صمتهم؛ فالراهب أغاثو وضع حجراً تحت لسانه ، حتى لا ينسى ويتحدث مع آخرين (٧٨) ؛ والقديس مكاريوس الكبير قال لتـــلاميذه عقب الصلاة بالـكنيسة « اهربوا أيها الأخوة ! » فتعجبوا من هذا القول مستفسرين عن معنى هذا الهروب . فأشار إلى فمه قائلا « اهربوا من هذا !!! » ثم ذهب سريعاً إلى قلايته وأغلق بابهـا (٧٩) .

الصلاة :

وإذ استقرت الرهبـانية بعـــد انقضاء فترة الاضطهـــاد الأولى ، وبعد أن اعترفت الدولة بالديانة المسيحية ، فان الـكنيسة رفعت شهداءها إلى مرتبة القديسين ؛ ولذلك بدأ الرهبـان يسعون إلى تحقيق المثل العليـا التى سادت العصر السابق فـكانت الوسيلة إلى هذا هى التضحية ، لا عن طريق الاستشهاد ولـكن عن طريق إماتة الشهوات ، بالصلاة والصوم (٨٠) .

وهكذا وجه الرهبان عنايتهم الفائقة إلى الصلاة ، ماعتبروها

كذلك وسيلة من وسائل « محاربة الشيطان ودفع الملل »[٨١] وكذلك من أجل الوصول إلى هذه الغاية التى شرحها أحد شيوخ الرهبان ليوحنا كاسيان فى قوله « إن كل فن وكل مهنة لها غايتها ونهايتها الخاصة بها ، التى تسعى إلى تحقيقها بجدارة ، وبدون توقف . وفى هذه الحياة نقاسى كل الجهود ، ونتعرض للأخطار والخسائر بروح ثابتة فرحة . وإن مثل الراهب كالعامل الذى يفلح الأرض ويقلبها فإنه يزرع على رجاء ، مخلصاً لغايته ، فيسعى لتنقيــة الأرض من الحشائش الضارة بالنبات من أجل إنماء رزقه وتوسيع دخله ، ومثل ذلك أيضاً التاجر الذى لا يخشى مخاطر البحر ويسعى لزيادة ثروته »[٨٢] ، وأضاف إلى ذلك قوله « فنحن نقاسى كأى مهنة أخرى بدون مجافاة عملنا ؛ وأكثر من هذا فالأصوام لا يهمنا فيها الجوع ، ونجد سروراً فى تعب السهر والمداومة على الصلاة والتأمل فى المكتوب بدون ملل ، والعمل لا ينقطع ، ولا يهمنا أن نحرم من كل شىء ؛ علماً بأننا سوف لا نكون بعيدين عن النهاية المطلوبة ، إذ أن نهاية العمل هى الحياة الهادئة ، والغاية من الرهبانية هى ملكوت السموات الذى لن يصل اليه المرء إلا بنقاء القلب »[٨٣] .

ومن أجل هذا خصص الرهبان أكثر ساعات النهار والليل للصلاة وامتزجت هذه الصلوات أحياناً بالبكاء ، أملا فى غفران خطاياهم[٨٤] . فالقديس مكاريوس الكبير عندما زار رهبان نتريا ليصلى معهم لم ينس أن يذكرهم بالتعاليم المسيحية الخاصة بكيفية



راهب يصلي ويقرأ على ضوء الشموع

الصلاة ، ثم أنه أجهش بالبكاء ، وقال لهم « أيها الأخوة لنبكى ولتذرف عيوننا الدموع قبل أن نذهب إلى المكان حيث تحرق دموعنا أجسادنا » فبكوا جميعاً وسقطوا على وجوههم وطلبوا منه الصلاة من أجلهم(٨٥) .

وإذ وضع الرسل أساس عدد صلوات المسيحيين ، وهى ثلاث صلوات بالنهار وأربعة بالليل ، فإن لهذه الصلوات سند تاريخى قديم ، إذ المعروف أن داود النبى ذكر فى المزامير التى رتلها لله « سبع مرات فى النهار سبحتك على أحكام عدلك »(٨٦) ثم أن المسيح كثيراً ما أمضى أوقاته مصلياً منفرداً ، أو مع تلاميذه ، باكراً جداً ، وبعد العشاء ، وفى الليل على الجبل ، وفى البرارى ، وفى بستان جثيمانى ، ولذلك فإن الرهبان حرصوا على أن يؤدوا هذه الصلوات السبع .

أما الصلوات الليلية فشملت صلاة الغروب والنوم ونصف الليل وباكر . وأدى الرهبان صلاة الغروب وقت المغرب ، كما أدوا صلاة النوم قبل أن يركنوا إلى فترة قليلة من النعاس فى النصف الاول من الليل ، حتى إذا ما انتصف الليل ، استيقظ من نام من الرهبان ، لتأدية صلاه نصف الليل . وكانت صلاة نصف الليل ذات أهمية خاصة ، لاستنادها على قول داود النبى « فى نصف الليل أقوم لاشكرك على أحكام برك »(٨٨) ، وكان لهذه الآية أثر كبير فى نفس كل راهب إذ اعتبر المتخلف منهم عنها نفسه مقصراً فى شكر الله .

ثم أن هذه الصلوات الليلية جميعها قصد بها من وراء

هذا كله أن يسهر الراهب على حياته منفذاً بهذا أمر السيد المسيح حين قال « فاسهروا إذاً لانكم لا تعرفون اليوم ولا الساعة التى يأتى فيها ابن الانسان »[٨٩] ، وعند الفجر قام الرهبان لاداء صلاة باكر ، التى ذكر يوحنا كاسيان أنهم أدوها فى الصيف قبل صياح الديك الاول ؛ كما ذكر أن هذه الصلاة تأخر الرهبان فيها حتى صياح الديك الرابع بسبب برودة الجو فى الشتاء[٩٠] . وحرم على الراهب النوم بعد صلاة باكر ، بل رجع الراهب إلى قلايته ليرتل بعض المزامير ويكمل صلواته النهارية الانفرادية[٩١] .

أما هذه الصلوات النهارية ، فأولها صلاة الساعة الثالثة ؛ وقام بها الراهب بعد مرور ثلاث ساعات من النهار ، ووضع الراهب أمامه أن يتأمل فى كيفية تألم المسيح قبل صدور حكم بيلاطس عليه بالموت فى هذه الساعة ؛ فكان عليه أن يشعر بالألم ويبكى على خطيئته . ثم أدى الراهب صلاة الساعة السادسة فى منتصف النهار باعتبار أن هذه الساعة شرب فيها السيد المسيح كأس الخل ؛ وتألم لمرارته[٩٢] . وختم الراهب صلواته النهارية فى الساعة التاسعة أى الثالثة بعد الظهر ، والملاحظ أن الكنيسة نفسها رتبت هذه الصلوات لكل المسيحيين منذ العصر الرسولى تذكاراً لما حدث فيها للسيد المسيح من مراحل الآلام . وهذه الصلاة الاخيرة رتبت بسبب ما حدث عندما صرخ المسيح بصوت عظيم قائلا « يا أبتاه فى يديك أستودع روحى » ولما قال هذا أسلم الروح وانشق حجاب الهيكل إلى اثنين من فوق إلى أسفل

والأرض تزلزلت والصخور تشققت والقبور تفتحت » (٩٣) .

وإذ رتب الرسل صلوات الليل والنهار على هـذا النحو ، فإنه مما يوجب الالتفات حقاً أن هـذه الصلوات شملت مزامير داود النبي ، ولكن عدد المزامير الواجب ترديدها فى كل صلاة اختلف فى بادىء الأمر بين مكان وآخر . ثم أصبح ترديد إثنى عشر مزموراً فى كل صلاة ، فى كل الجماعات الرهبانية ، أمراً مقرراً (٩٤) . غير أن هذا العدد ارتفع حتى بلغ حوالى ستين مزموراً فى كل صلاة عنـــد النساك المنفردين وخاصة المقيمين فى سليا (٩٥) .

وتبدأ الصلاة حينما يتقدم رئيس الجماعة الرهبانية فى الصلوات الاجتماعية ، وهى الصلوات الليلية ، فيوزع هـذه المزامير على الرهبان ليقرأ كل راهب جزءاً منها ترتيـلا ـ بعكس ما يحدث الآن ـ أما باقى الرهبـــان فصامتون حريصون ألا يبصقوا أو ينعسوا وإنما ينصتون متـأملين فى ترتيل زميلهم . وهكذا لا يسمع سوى صوت الراهب المرتل للمزمور ، وهو واقف ويداه مبسوطتان (٩٦) ، حتى إذا ما انتهى من هذا الجزء ردد عبـارة « المجد للآب والابن والروح القدس » ، ثم يسجد معـه باقى أفراد الجماعة سجوداً ، لا يجوز للرهبان القيام به ليلة الأحد لأنها ليلة فرح وبمثابة عيد ، بسبب قيامة المسيح من الأموات (٩٧) .

ويلاحظ أن الصلوات الليلية أداها رهبان نتريا وشهيت كل فى كنيسة جماعته ؛ أما رهبان سليا فإنهم لم يؤدوها فى كنيستهم لبعدها نسبياً عن قلاليهم . وقـــد بالغ بلاديوس فى وصف صلوات

الرهبان التى أدوها فى صوامعهم ؛ فذكر أنه فى أثناء تجواله بين هذه الصوامع أحس وهو يسمع ترتيلهم كأنه فى الفردوس [٩٨].

ولما كانت صلوات المزامير تصلى فى المساء على أضواء خافتة من فتائل الزيت ، فإن أكثر الرهبان حفظوا المزامير عن ظهر قلب ، بل حفظوا كذلك من أسفار الإنجيل بعضاً ، وذلك لأنهم تعودوا أن يختموا صلواتهم بقراءة أصحاحين ، واحد من العهد الجديد ، والآخر من العهد القديم . أما ليلة الأحد ويومه فلم يقرأ الرهبان إلا من العهد الجديد ، إشارة إلى أن المسيح حرر المسيحيين من عبودية الناموس القديم . وأصبح مفروضاً كذلك على الرهبان فهم معنى المزامير التى يحفظونها ، ويرتلونها [٩٩] . أما ترتيل المزامير فقصد به أيضاً ألا يداعب النوم أجفان الرهبان [١٠٠] .

ولما أن أصبحت الصلاة الاجتماعية مرتبطة بحضور الرهبان جميعاً فى كنيسة الجماعة الرهبانية فإنه عهد إلى أحد الرهبان بإيقاظ إخوانه ، ونبه عليه بعدم التأخير عن الساعة المحددة [١٠١] ولذلك فإن فى الجماعات الرهبانية ، إذا تأخر راهب عن الصلاة الاجتماعية — وخاصة صلاة الأحد — التى احتلت مركزاً هاماً فى حياة الرهبان [١٠٢] ، عرض الراهب نفسه لتأنيب الرئيس أو المدبر ، ولا يسمح له الرهبان بأن يصلى معهم مرة أخرى قبل أن يندم على تأخيره ويقدم عذره ، الذى ينبغى أن يكون مقبولا ، ولم يكن هذا العذر المقبول سوى مرض شديد [١٠٣] ، ولذا فإن بعض رؤساء الجماعات الرهبانية اضطروا إلى توقيع

عقوبات شديدة على شباب الرهبان إذا تكرر تأخيرهم عن الصلاة ، وذلك بفرض تدريبات خاصة من شأنها اعطاء فرص للرهبان المقصرين لإذلال أجسادهم . فإذا تمادى هؤلاء فى التأخير ضربوا بالسياط(١٠٤) . أما ليلة الأحد فإن الرهبان المنفردين أو الساكنين جماعات أسرعوا إلى كنائسهم استعداداً لصلاة القداس . وأمضى بعض الرهبان هذه الليلة واقفين يصلون من غروب شمس السبت حتى شروق شمس الأحد ؛ ومن هؤلاء القديس أرسانيوس (١٠٥) ، وحرصاً على أن يكون فكر الراهب بعيداً عن الأمور العالمية ، نصح الشيوخ رهبانهم بأن يحصروا فكرهم فى الصلاة ، ومن قول القديس مكاريوس الكبير فى هذا الصدد « إذا أقدمت على الصلاة فأحرص أن تكون ثابتاً لئلا تسلم إناءك بيد أعدائك ، لأنهم يشتهون اختطاف آنيتك ، التى هى أشواق نفسك ، وهى الأشواق الصالحة ، التى يجب أن تخدم بها الله نهاراً وليلا ، لأن الله لا يطلب أن تمجده بشفتيك فقط بينما تطيش أفكارك بأباطيل العالم »(١٠٦) .

ويلاحظ أن الديريين (رهبان الأديرة) اختلفوا عن الرهبان فى صلوات الجماعة ؛ إذ صاروا يجتمعون بالكنيسة فى الصلوات النهارية ، التى أداها رهبان وادى النطرون منفردين . والشىء الثانى ، هو أن صلاة القداس وخاصة يوم الأحد أداها فى دير الأنبا باخوميوس كاهن من المتزوجين من إحدى القرى المجاورة (١٠٧) ، حيث أن الأنبا باخوميوس حرص على أن يبعد الديريين عن الوظائف الكهنوتية ، على حين أن هذه الصلاة فى وادى النطرون

أداها قسيسون من الرهبان أنفسهم ، ولعل هذا بسبب قرب الأديرة الباخومية من الأماكن العامرة بالسكان ، مما جعل أمر حضور كاهن متزوج إلى الدير سهلا .

النـــوم :

وسمح للرهبان أن يناموا بعد الانتهاء من صلاة نصف الليل ، لساعات قليـلة حتى بداية صلاة الفجر ، بمعنى أنهم ناموا فترة قصيرة قبل الفجر[١٠٨] ؛ غير أن هذه الفترة لم ينمها كل الرهبان فى صحراء شيهيت ، إذ لم يذهب واحد منهم إلى مخدعه قبل أن يكون له دوره فى الحراسة ، أو القيام ببعض التسبيحات الخاصة ، التى تتلى عقب صلاة نصف الليل ؛ وجرت العـــادة على أن يوزع هـذا العمل على رهبان كل جماعة[١٠٩] . والمتتبع لأخبار رهبان وادى النطرون فى نسكهم وإضعاف جسدهم وإماتة شهواتهم يلمس كيف تمادوا فى هذا الشأن بالنوم على الأرض على حصر من البردى ، أو سعف النخيل . وتوســـد الراهب حزمة من البردى أو قطعة من الصخر[١١٠] . وبينما حتم على رهبان أديرة باخوميوس أن يناموا على مقاعد منخفضة قصـــيرة بحيث لا تسمح لهم أن يمدوا أجسامهم[١١١] ، فإن هذه القاعدة لم تكن مرعية بين الرهبان السـائرين على النظام الأنطونى ؛ إذ تركت للراهب حرية النوم بالوضع الذى أراده ؛ فأمضى بعضهم لياليهم واقفين مقـــلدين القديس أنطونيوس الذى أمضى الليالى العديدة ، دون أن يرقد أو يغمض له جفن ، وكان الراهب أرسـانيوس يقول « أن ساعة

من النوم كافية للراهب لتجعله نشيطاً واعياً »[١١٢] .

ونقلت إلينا المصادر المعاصرة كيف أمعن الكثيرون فى إرهاق أجسامهم وإبعـاد النوم عن عيونهم ؛ فالقديس بيشوى ربط شعره فى الصخرة وراءه حتى لا يداعب النعـاس جفنيه[١١٣] . وبهذا أصبح شيوخ الرهبان مثلا أعلى لتلاميذهم ، فعلموهم النشاط الروحى وعدم الاستسلام إلى النعاس . ثم ها هو القـديس مكاريوس الكبير يتحدث لتلاميذه عن النوم فى قوله « وأما من جهة النوم فإنى كنت أستنـد إلى الحائط واختطف يسيراً منه »[١١٤] . هذا ويلاحظ أن الرهبان كالديريين ناموا لابسين قيصهم الذى خلا من الاكمام .

الصوم والطعـام والشراب :

ولما كانت الحياة الرهبانية تعمل على إماتة الشهوات الجسدية للوصول إلى الحياة الابدية ، فإن الوسيلة الثانية إلى هـذا هى الصوم . وغاية الصوم ـ كما حددت الكنيسة ـ هى التكفير عن الخطيئة وإماتة الشهوات الجسدية ليخضع الجسد للروح ؛ ذلك أن الرسل قرروا فى اجتماعهم بأورشليم « أن الذين يخطئون فعلى راعيهم أن يعلمهم ويؤدبهم ويفرض عليهم صوماً »[١١٥] ، ثم أن الكنيسـة منذ العصر الرسولى حددت أصواماً فرضتهـا على المسيحيين . وهذه الاصوام وإن تطورت تطوراً ضئيلا بعد العصر الرسولى ، إلا أنها ما لبثت أن استقرت فى الكنيسة الارثوذكسية . وأول هذه الاصوام هو صوم الاربعين يوماً المقدسة ، ويكون هـذا

الصوم قبل الفصح وقد ورد فى « الدسقولية » وهى قوانين الرسل أن بدايته « من يوم الاثنين الثانى من السبوت وكماله يوم الجمعة الذى قبل الفصح » وأضيف إلى هذه الاربعين يوماً أسبوع آخر هو أسبوع فصح العبرانيين ؛ إذ حتمت الكنيسة على المسيحيين أن يصوموا أسبوع الفصح « بفزع ورعده »[١١٦] . بل أن الرسل تشددوا فى صوم هذا الاسبوع حيث يتضح هذا مما ورد فى الدسقولية « وأيام الفصح ستة أيام ، تتناولون فيها الخبز والملح والماء فقط ، وأما الخمر واللحم فانتهوا عنها فى هذه الايام لانها أيام حزن ، وليست أعياداً ، وأما يوم الجمعة والسبت فصوموهما معاً لمن يقدر ألا يذوق شيئاً إلى وقت صياح الديك بالليل . وإذا لم يقدر الانسان أن يصوم اليومين معاً فليحفظ يوم السبت »[١١٧] .

وأصبح هذا الاسبوع الذى أضيف إلى صوم الاربعين يعرف فى الكنيسة بأسبوع الآلام حيث تتذاكر الكنيسة مراحل المؤامرة اليهودية لصلب المسيح كما يطلق عليه « البصخة » أى الفصح . وحرصت الكنيسة على أن يصوم المسيحيون هذا الاسبوع الزائد ، ليكون عيد القيامة بعد الفصح اليهودى ، الذى يقع فى نهاية صوم الاربعين . وقد رتبت الكنيسة هذا الترتيب بحيث لا يحتفل المسيحيون بعيد القيامة مع اليهود فى أى سنة من السنوات ، بل يحتفلون بالعيد بعدهم[١١٨] . أى بعد هذا الاسبوع ، أسبوع فصح اليهود ، الذى تمت فيه المؤامرة على صلب المسيح .

وإذ يفطر المسيحيون خمسين يوماً بعد هذا الصوم ، يؤدون

صوماً آخر عرف بصوم الرسل . وأيامه غير محددة وتختلف من سنة إلى أخرى لارتباطه بموعد الصوم الكبير بحيث تقع نهايته فى الخامس من أبيب ، وهو عيد الرسولين بطرس وبولس . أما الصوم المعروف بصوم العذراء فمدته خمسة عشر يوماً تبتدىء من أول مسرى إلى الخامس عشر منه[١١٩] .

وهناك صوم الميلاد ويبتدىء فى السادس عشر من هاتور وينتهى فى الثامن والعشرين من شهر كيهك ، وأضافت الكنيسة إلى هذه الاصوام صوماً آخر مدته ثلاثة أيام تنتهى يوم الاربعاء السابق للصوم الكبير بعشرة أيام ، وعرف هذا الصوم بصوم نينوى . وكذلك أمر الرسل أن يصوم المسيحيون يومى الاربعاء والجمعة من كل أسبوع على مدار السنة ، الاربعاء لذكرى التشاور على صلب المسيح ، والجمعة لذكرى الصلب[١٢٠] . ولا يصومهما المسيحيون أيام الخماسين ، وهى الخمسين يوماً التى تلى الصيام الكبير إذ اعتبرتها الكنيسة أيام فرح بقيامة المسيح ، لا يجوز فيها الصوم . وهناك كذلك يومان يصومهما المسيحيون أحدهما قبل عيد الغطاس ، والآخر قبل عيد الميلاد وذلك استعداداً لاستقبال العيد ويعرفان « بالبرامون » أى الاستعداد للعيد[١٢١] .

ولا يأكل المسيحيون فى كل هذه الأصوام السمك أو اللحم أو اللبن ومشتقاته بل يأكلون فيها البقول والخضر والفاكهة والخبز . وقررت الكنيسة أن يكون الصوم فى هذه الايام امتناعا عن الطعام حتى الساعة التاسعة من النهار (العصر) حيث

يفطر المسيحى على طعام من هذه الاطعمة[١٢٢] . وصام الرهبان هذه الاصوام جميعها ، غير أن أكثر الرهبان اتبعوا فى صومهم نظما خاصة ، اختلفت من راهب إلى آخر حسب النظام النسكى الذى أراده لنفسه ، فبعضهم تناول طعامه فى المساء ، على حين أن البعض الآخر ظل صائماً عن الطعام حتى مساء اليوم الثانى أو الثالث[١٢٣] ، وجرت بين بعض الرهبان ما يشبه المنافسة على الحياة النسكية فى الصوم ، فالقديس بيشوى أكل مرة واحدة كل إثنى عشر يوماً ، ولم تزد هذه الأكلة عن خبز وملح . ومع الاصوام لم يركن إلى الكسل بل لازم عمله اليدوى[١٢٤] . وأحرز القديس مكاريوس الاسكندرى قصب السبق فى هذا الشأن ، حتى وهن عظمه وقيل أن لحيته سقطت ، ولم يبق سوى شعر قليل على شفته العليا ، لانه أمضى أربعين يوماً صائماً[١٢٥] . والملاحظ أن أكثر الرهبان بشيهيت درجوا على الامتناع عن الطعام مده أسبوع متصل ، أما بعض الرهبان من الطاعنين فى السن فإنهم أعفوا من الصوم لمدة طويلة بعد أن ظهر عدم إمكانهم تحمل متاعب الصوم[١٢٦] . وقد لوحظ وقتذاك زيادة قدرة الرهبان على الصوم فى فصل الشتاء ، على حين ضعفت قدرتهم فى فصل الصيف ، وذلك لأن حرارة الصيف أثرت تأثيراً كبيراً على أبدانهم[١٢٧] .

واتفق الديريون مع الرهبان فى هذه الأصوام إلا أن الانقطاع عن الطعام لمدة طويلة لم يكن معروفا بينهم فلم يزد انقطاع أكثرهم عن خمسة أيام . والمعروف أنهم خضعوا لقانون

الأنبا باخوميوس دون زيادة أو نقص، إلا أن الأنبا باخوميوس ترك الحرية لمن أراد الانقطاع عن الطعام لفترة أطول بشرط أن يعتزل عن إخوانه[١٢٨] . ويبدو أن الأنبا باخوميوس سن هذه القاعدة حتى لا يؤثر هذا النسك الزائد فى نفوس الديريين غير القادرين عليه ؛ ثم أنه فى الأيام العادية التى حرم على الرهبان فى وادى النطرون أن يأكلوا فيها سوى فى عصر كل يوم ، إذ بباخوميوس يقدم الطعام لديرييه مرتين ، مرة بعد منتصف النهار والثانية فى المساء .

وأوضح القديس أنطونيوس نوع وكمية الأكل الذى ينبغى على الراهب تناوله . وكانت كمية الخبز القانونية التى تعطى للراهب عبارة عن قطعتين من الخبز الجاف تزن كل منهما حوالى ثلاثين درهما تعود الراهب أن يأكل قطعة منها ، ويحتفظ بالأخرى حتى المساء ، إذ ربما يطرق بابه زائر قضت التقاليد الرهبانية أن يشاركه طعامه ، أما إذا لم يحضر أحد أكلها الراهب فى المساء[١٢٩] وأضاف الراهب إلى هذا الخبز بعض الخضر وأحياناً أكل الخبز الجاف بقليل من الملح .

ورأى الرهبان أن هذه الكمية من الطعام كافية لوقاية قواهم وصالحة لنشاطهم البدنى كما أنها أفادتهم فى إقلال نومهم ولم تؤثر فى أعمارهم ، بل أن أكثرهم عمر إلى أقصى الشيخوخة[١٣٠] ، ومع أن الخبز أصبح الطعام العادى إلا أن بعض الرهبان لم يكثروا من أكله ، بل أن بعضهم امتنعوا عنه معتقدين أن فى

هذا الامتناع ما يهدىء جسد الراهب من الانفعالات العصبية كما لا يدع مجالا لإثارة الغريزة الجنسية(١٣١) .

وعاش هؤلاء الممتنعون عن الخبز على الخضر والحشائش الجافة وبعض الفواكه والعسل البرى ومن هؤلاء ايفاجريوس الكبادوكى الذى سكن صحراء القلالى ، ويبدو أن أكثر المنفردين كانوا أكثر تقشفاً عمن عاشوا فى جماعات(١٣٢) .

وبما أن نظام القديس أنطونيوس قضى أن يطهى الطعام للرهبان المرضى فقط ، صار هذا الأمر مرعياً فى برية شيهيت . وفى نتريا لم يؤكل الطعام المطهى مدة الخمسة أيام التى قضاها الراهب فى قلايته ، اللهم إلا إذا حضر اليه أحد الضيوف ، أما فى يومى السبت والأحد فإن الطعام المطهى لم يكن ممنوعا ، إذ جهزت الأكلة العامة المطهية ليتناولها الرهبان جميعاً . وحاول بلاديوس أن يصف الطعام الذى تناوله الرهبان فى الإسقيط فى حرص عن أن يغالى وذلك فى قوله : « أما عن الطعام والشراب عند هؤلاء الرجال الأتقياء فإننا إذا حاولنا أن نصفه فربما نكون مغالين ، لأنه حتى بين من لا نعرفهم من المتوحدين لم يوجد ما يشير إلى زيادته عن الحدود ؛ أولا بسبب فقر هذه البقعة ، وثانيا ، بسبب التنافس النسكى بينهم(١٣٣) . ومن هذا التنافس النسكى فى الطعام ما ذكره القديس مكاريوس الكبير عن نفسه إذ قال أنه « مدة عشرين سنه لا خبز ، ولا ماء ، ولا نوم شبعت منه ، خبزى كنت آكله بالميزان ، ومائى كنت أشربه بالكيل »(١٣٤) . وهكذا قسى الرهبان على أنفسهم فأكل بعضهم

الخضر طازجة ، أو جافة دون أن يطهوها .

أما طهى الطعام الخاص بالراهب المريض فى قلايته أو من سمح لهم بطهى الطعام فإنه فى غالب الأحيان تم بواسطة الماء . ومع أنه كان لكل راهب كمية خاصة من الزيت حددت بمكيال واحد كل سنة ، فإن بعض الرهبان لم يطهوا طعامهم به ، والبعض الآخر استخدموه بكمية قليلة ، لأنهم اعتبروا أكل الزيت من الأشياء البعيدة عن التقشف ، حتى أن ايفاجريوس لم يمس كمية الزيت المعطاه له وبقيت فى صومعته مدة ثلاث سنوات (١٣٥) . كما أن القديس مكاريوس الاسكندرى لم يضف الزيت إلى طعامه سوى أيام الأعياد وبعد التناول من الأسرار الربانية فى بعض آحاد الأربعين المقدسة (١٣٦) . على أنه بتوالى الزمن بدأ الرهبان يستخدمون الزيت ، ويطهون به طعامهم ، كما أنهم بدأوا يأكلون الجبن (١٣٧) . وتعود الرهبان أن يتسلموا كمية الطعام كل أسبوع عند عودتهم بعد صلاة الأحد ؛ على أنه تركت الحرية للراهب أن يترك كميته من اللحم إذا لم يكن له حاجة فيها (١٣٨) .

وحيث أن النظام الرهبانى منع الرهبان عن تناول اللحوم ، فإن هذا الامر لم يكن طيلة أيام السنة إذ أن بعض الرحالين شهد أن بعض الرهبان تناولوها مرات قليلة فى السنة ؛ وسبب هذا أن البطريرك تيموثاوس (حوالى سنة ٣٩٧ م) وهو الثانى والعشرين فى عداد بطاركة الاسكندرية أطلق للأساقفة والرهبان أكل اللحم فى الاعيـــاد السيدية من أجل المانية (١٣٩) ، المعروفين أيضاً بالصدوقيين ، ليعرف من كان من الاساقفة مانياً ليبطل عليهم

من أجل أكل اللحم دينهم لان المانية لا يرون الذبيحة ولا يأكلون اللحم ولا شيئاً من الحيوانات البته .

وكان كثير من مطارنة مصر وأساقفتها مانيه فأكل بطاركة الارثوذكسية وأساقفتهم ورهبانهم (فى مصر وغيرها) اللحم فى الاعياد السيدية ، أما مطارنة المانية وأساقفتهم ورهبانهم فلم يأكلوا اللحم وأكلوا بدلا منه السمك وأقاموه مقام اللحم إذ كان السمك حيواناً ، وهذا الشيء كان فى زمان مانى المخالف الكافر ، فلما هلك مانى وشيعته ، رجع بطاركة الارثوذكسية وأساقفتهم ورهبانهم إلى مذهبهم الاول وامتنعوا عن أكل اللحم فى الأعياد السيديه » . (١٤٠)

وأوضح البطريرك تيموثاوس سبب أمره بضرورة أكل اللحم فى الأديرة وعند الرهبان بأن السيد المسيح لم يحرمه « فيجب على من دان بالنصرانية الاقتداء به ولو يوما واحداً فى السنة ، ليزيلوا عن أنفسهم الشك ويثبتوا عند جميع الناس خطأ المذهب المانى » (١٤١) .

والشراب الوحيد العام فى وادى النطرون هو الماء . غير أن بعض الرهبان قسوا على أنفسهم فلم يتناولوا إلا القليل منه ، فهذا هو القديس مكاريوس الكبير يقول : « ومائى كنت أشربه بالكيل » (١٤٢) . ثم إذ ذهب اليه أحد الرهبان وكان ظمآنا لدرجة كبيرة وطلب منه قليلا من الماء لكى يشرب ، أجابه القديس مكاريوس الكبير بقوله « يكفيك ذلك الظل الذى أنت واقف فيه لان كثيرين الآن يسلكون فى المسالك والوهاد فى العراء ، ولا يجدون ظلا مثل هذا » (١٤٣) .

وهكذا شرب الرهبان الماء بعد الأكل فى غالب الاحيان ، وذكر هذا عن القديس مكاريوس الكبير ، بعد أن تناول الطعام مع مكسيموس ودوماديوس . وإذا كانت بعض المراجع ذكرت عن شرب رهبان أنطونيوس بعض النبيذ الذى حفظوه فى أوعية من جلد الحيوان وذلك فى ظروف خاصة ، فإن النبيذ فى نتريا قدم للضيوف ولشباب الرهبان فى حالة المرض ، ربما جرياً مع الآية القائلة « خذ قليلا من الخمر لإصلاح معدتك واسقامك الكثيرة » .

وسمح بالنبيذ لشيوخ الرهبان فى بعض الاحيان ، على حين أن النبيذ لم يكن عاماً فى صحراء سليا . وكان النبيذ أساساً يجهز ويحتق فى أوعية معينة من أجل الكنيسة ، وتعود المشرف على اقتصاديات الرهبان أن يوزعه على من يطلبه من الرهبان فى الاكلة الجامعة ومعنى هذا أن الرهبان لم يحتفظوا به فى صوامعهم . ومع أن شرب النبيذ لم يمنع فى الإسقيط ، فإن أكثر الرهبان نصحوا زملاءهم بالامتناع عنه باعتباره « مميتاً للروح »[١٤٤] ، فالقديس بافنوتيوس خليفة مكاريوس الكبير لم يشرب النبيذ إلا عندما اضطره لذلك اللصوص الذين هاجموا قلايته ، فشرب فنجاناً ليهرب من الموت الذى هدده به رئيس عصابة اللصوص . ثم أن القديس مكاريوس الكبير لم يفضل شرب الخمر وإنه إذا أكل مع الرهبان فرض على نفسه إذا شرب كأساً من النبيذ تحت ضغط وإلحاح بعض تلاميذه أن يمتنع عن شرب الماء طيلة اليوم ، وكان تلاميذه يفعلون هذا رغبة منهم فى إنعاشه . غير

أنهم عندما لاحظوا أنه طالما عذب نفسه بعد شرب النبيذ ، إمتنعوا عن اعطائه إياه[١٤٥] .

وتناول الرهبان طعامهم اليومى على انفراد ؛ كل فى قلايته ما عدا يومى السبت والاحد بعد خروج الرهبان من كنائسهم حيث تناولوا طعامهم مجتمعين ، وساد هذه الوجبة فرح شامل ، إذ يجتمع الرهبان بشيوخهم ، ومع أن الحديث والنقاش لم يفضلا فى أثناء هذا الإجتماع ، فإن إباحتهما لم تجعل الرهبان يخرجون عن صمتهم المعهود أو يضحكون[١٤٦] . وتكونت هــذه الوجبة — التى ذكر كاسيان أنها طهيت بكمية كبيرة من الزيت بخلاف ما هو معهود لدى الرهبان فى صوامعهم — من الزيتون والخبز والبقول والخضر ، وأخصها الكرنب ،والفاكهة وأهمها التين ، كما قدم السمك المملح[١٤٧] . وعهد إلى بعض الرهبان الموثوق بهم القيام بتجهيز الطعام قبل حلول ليــلة الاحد . وأنفق المشرف على اقتصاديات الرهبان على تجهيز هذه الاكلة العــامة من موارد الجماعة[١٤٨] .

أما فى أديرة باخوميوس فإن نظام طعامهم اختلف عما هو عند رهبان وادى النطرون ؛ اذ صار الديريون يتناولون طعامهم بصفة مستمرة على مائدة واحدة وفى مكان واحـد[١٤٩] . ولم يفعل رهبان وادى النطرون هــذا الامر سوى يومى السبت والاحد . على أن باخوميوس رغم هذا النظام ، ترك الحرية لبعض الديريين أن يتناول كل منهم طعامه على انفراد فى قلايته ، كما أنه حرص فى نفس الوقت ألا يثقل على بعض الرهبــان فى

مأكلهم . فقدم لهم الخبز والبقول وبعض الحبوب المطهية والزيتون والخضر وبعض الفواكه ولكنه قدم اليهم اللحم فى مرات قليلة . وترك الديريين أحراراً يتناولون ما يطيب لهم من هذه الأنواع (١٥٠) .

وإذا كانت هذه هى ألوان الطعام التى قدمها الأنبا باخوميوس لديرييه يومياً فان رهبان وادى النطرون لم يروها سوى فى الاكلة العامة ، وأحياناً حرموا من أكثرها فائدة ، وعاشوا باقى أيامهم على الكفاف . ويبدو أن الديريين لم يألفوا ألوان النسك الزائد الذى ألفه رهبان وادى النطرون ، حتى أنهم طلبوا من باخوميوس أن يأمر الأنبا مكاريوس الاسكندرى الذى زارهم فى ديرهم ، ليرحل عنهم ، حيث أنه عاش بينهم على تناول بعض الخضر فى أوقات متباعدة (١٥١) . والشىء الذى ينبغى أن يكون ملحوظاً هو أن الديريين اختلفوا عن رهبان وادى النطرون كذلك فى أن الأولين عندما اجتمعوا فى قاعة الطعام غطوا وجوههم بملافحهم (١٥٢) ، حرصاً على عدم حديث بعضهم مع البعض الآخر ، ولكى لا ينظر شاب إلى شيخ فيضحك على طريقه تناوله الطعام ، أو ربما يريد واحد من الديريين أن يكتفى بالقليل من الطعام فيحسده الآخر عل نسكه الظاهر ، أما الرهبان هنا ، فانهم لم يغطوا وجوههم لأنهم كانوا على درجة عالية من النسك وثمة ناحية أخرى فى حياة الديريين ، أنهم لم يشربوا النبيذ إذ أن الأنبا باخوميوس قرر ألا يعطى النبيذ إلا للمرضى الذين روعى كذلك أن ينقل اليهم طعامهم ، ليتناولوه فى قلاليهم (١٥٣) .

ومما ميز نظام الطعام فى الأكلة العامة عند رهبان وادى النطرون أن الرهبان صلوا بعض المزامير قبل البدء فى تناول الطعام ثم أكلوا فى صمت . على حين أن الديريين أخذوا ـ فيما بعد ـ عن رهبان كبادوكيه عادة قراءة فصول الإنجيل أو سير القديسين على المائدة العامة ، فاستمعوا إلى واحد منهم يقرأ لهم أثناء تناول الطعام (١٥٤) .



مراجع وشواهد الفصل الرابع

(١) Besse : Les Moines D'Orient P. 67.

(٢) White : The Monasteries Of Nitria V II P. P. 49-50

(٣) من هؤلاء أشيل أحد الرهبان الموارنة ـ راجع :

Besse : OP. Cit. P.P. 77-78.

(٤) راجع رسالة بولس الرسول الثانية إلى تسالونيكى ٢ : ١٥

(٥) راجع ما سبق بالفصل الثانى .

(٦) مرقس سميكه : دليل المتحف القبطى وأهم الكنائس والأديرة الأثرية جـ ٢ ص ٦٦ .

(٧) Butler : Lausiac Hist. Of Palladius V II P. 189.

(٨) Palladius : The Paradise V I. PP. 99—100.

(٩) Besse : Les Moines D'Orient. P. 282.

(١٠) White : OP. Cit, V II. P. 174.

(١١) Besse : Les Moines D'Orient, P. 266.

(١٢) Ibid : PP. 277—278.

(١٣) Waddell H : The Desert Fathers PP. 78-79.

(١٤) Mackean : Christian Monasticism P. 84

(١٥) يوحنا الصغير : ميمر أنبا بيشوى ورقة ٣٣ ب ، القديس فيلوكسينوس ، أخبار الرهبان المصريين ورقة ١٠٤ ب .

(١٦) طوسون : وادى النطرون رهبانه وأديرته ص ١٦٥ .

(١٧) Palladius : OP. Cit. V I P.P. 198-200.

(١٨) سرابيون : ميمر مكاريوس الكبير ورقة ١٤ ب .

(١٩) Fliche & Martin : Hist. De L' Egypte, V III P.341.

(٢٠) Ladeuze : Cenobitisme Pakhomien P. 275.

(٢١) Besse : OP.Cit P. 284.

(٢٢) Palladius : Paradise V II P. 17.

(٢٣) كان أرسانيوس فيلسوفاً بارعاً اتخذه الامبراطور تاودسيوس الكبير معلماً لأولاده غير أنه اشتاق إلى الحيـاة الرهبانية فترك عاصمة البلاد إلى الإسقيط - راجع

Workman : OP. Cit P. 47-48.

(٢٤) طوسون : وادى النطرون رهبانه وأديرته ص ٢٩ — ٣٠ .

(٢٥) Milne : Hist. Of Egypt Under Roman Rule P.P. 157-158.

(٢٦) Zoega G, : Catalogus Codicum Copticorum P. 352.

(٢٧) Annan Isho : Wit & Wisdom P. 55.

(٢٨) Palladius : Paradise V I P. 99.

(٢٩) Waddell, H, The Desert Fathers P. 60

(٣٠) Harnack : Hist Of Dogma (Eng. Trans.) V II P. 336.

(٣١) Workman : Evolution Of The Monastic Ideal P. 33.

(٣٢) القديس فيلوكسينوس : أخبار الرهبان المصريين ورقة ٦٦ا،ب.

(٣٣) نفس المرجع ورقة ٧٦ ب .

(٣٤) البستان الـكامل (مخطوط) ص ٢١ .

(٣٥) Besse : OP. Cit. P. 279.

(٣٦) Waddell H : Desert Fathers P.P. 79 80.

(٣٧) Besse : OP· Cit P. 279.

(٣٨) A. M. G : T XXV P. 289.

(٣٩) White : The Monasteries Of Nitria V II P.178.

(٤٠) Besse : OP. Cit : P. 281.

(٤١) إنجيل متى ٦ : ١٢ .

(٤٢) عب ٢٣ : ٥ .

(٤٣) راجع Worrell : A Short Account Of The Copts. P.P. 10-12.

(٤٤) راجع رسالة يوحنا الأولى أصحاح ٢ : ١٥ .

(٤٥) بستان الرهبان جـ ٢ ص ١٠٦ .

(٤٦) Palladius : Paradise, V II P.P. 36-37.

(٤٧) المرجع السابق والجزء ص ١١٧ .

(٤٨) القديس فيلوكسينوس المنبجى : أخبار الرهبان المصريين « مخطوط » ورقة ١٤ ا .

(٤٩) البستان الكامل (مخطوط بدير السوريان) ص ٢٤ .

(٥٠) القديس فيلوكسينوس المنبجى : أخبار الرهبان المصريين ورقة ١٤ ا .

(٥١) Palladius : OP. Cit V I P. 89.

(٥٢) Cassien : Institutiones T I P.P. 128-129.

(٥٣) أبو صالح الارمنى : كنائس وأديرة مصر ص ٦٩ .

Duchesne : Hist. Ancienne De L'Eglise V II P. 49 .

(٥٤) المسح بالكسر : الكساء من شعر كشوب الرهبان ومنه يقال لما يلبس من نسيج الشعر على البدن تقشفاً وقهراً للجسد ـ راجع البستانى اللبنانى : جـ ٢ ص ٢٢٦٧ .

(٥٥) A. M.G : XXV intro. P. XXIII.

(٥٦) القديس فيلوكسينوس المنبجى : أخبار الرهبان المصريين ورقة ٨٣ ا .

(٥٧) Cassien : Institutiones, L I P.P. 133-134.

(٥٨) إرمان ، رانكه : مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة ترجمة أبو بكر ومحرم كمال ص ٣١٨ = ٣١٩ .

(٥٩) Cassien : OP. Cit L I P.P. 135-136.

، راجع كذلك عب ١١ : ٣٧ — ٣٨ .

(٦٠) Ibid : P. 133.

(٦١) Ibid : P. 123.

(٦٢) Ibid : P. 140.

راجع كذلك أعمال الرسل ١٢ : ٨ .

(٦٣) Cassien : Ibid P. 131.

(٦٤) بستان الرهبان جـ ٢ ص ١٧ — ١٨ .

(٦٥) A. M. G : T XXV : intro

(٦٦) Cassien : OP. Cit. L I P. 140.

(٦٧) Ibid : P. 136.

، راجع كذلك سفر الملوك الثانى .

(٦٨) سرابيون : سيرة القديس مكاريوس الكبير (مخطوط) ورقة ١٧ ب .

(٦٩) Cassien : OP. Cit L I P. 129.

(٧٠) Palladius : OP. Cit V II P. 25.

(٧١) Annan I sho : OP. Cit. P. 50.

(٧٢) Palladius : OP. Cit P.P. 109-110.

ومن هؤلاء ذكر موسى السارق .

(٧٣) المسعودى ، القمص عبد المسيح : تحفة السائلين ص ٢٥-٢٧.

(٧٤) القديس فيلوكسينوس : أخبار الرهبـــان المصريين ورقة ٢٥ ب ، ٢٦ ا .

(٧٥) Cassien : Les Conferences : P.P. 20-21.

(٧٦) بستان الرهبان ج ١ ص ٧٢ .

(٧٧) Fliche & Martin : OP. Cit VIII P. 241.

، القديس فيلوكسينوس : أخبار الرهبان المصريين ورقة٣٥ ا .

(٧٨) نفس المرجع ورقة ٧٦ ب .

(٧٩) Annan Isho : Wit & Wisdom P. 14.

(٨٠) Wokman : Evolution Of Monastic Ideal P. 325.

(٨١) القديس فيلوكسينوس : أخبار الرهبان المصريين ورقة ٢٨ ا .

(٨٢) Cassien : Conferences P. 28.

(٨٣) Ibid : P.P. 30-32.

(٨٤) Palladius : The Paradise V II P.P. 27-33-34.

، راجع كذلك هوشع ١٣ : ٤ .

(٨٥) Annan Isho : Wit & Wisdom : P.P. 42-43.

(٨٦) سفر المزامير : ١١٩ : ٦٤ ، الدسقولية (القاهرة ١٩٤٠) ص ٩٥ ، ١٩٥ .

(٨٧) راجع مت ٢٦ : ٢٦ - ٣٨ ، مر ١٤ : ٢٣ ، لو٥: ١٦ .

(٨٨) مزامير : ١١٨ : ٦٢ .

(٨٩) مت ٢٥ : ١٣ .

(٩٠) Cassien : Institutiones : L II P.P. 191-193.

(٩١) Ibid : P. 189.

(٩٢) ابن العسال : المجموع الصفوى باب ١٤ ص ٣٣ (القاهرة ١٩٢٧).

(٩٣) كتاب السبع صلوات (الاجبية) طبع المحبة القاهرة ١٩٥٠ ص ٢١ — ٢٢ .

(٩٤) Cassien : Institutiones. L II P. 151.

(٩٥) Besse : Les Moines D'Orient P. 69.

(٩٦) Cass'en : Institutiones L II P. 160-163.
راجع كذلك أش ١ : ١٥ ، اتى ٢ : ٨ .

(٩٧) Ibid : P. 173.

(٩٨) Palladius : The Paradise V I P.P. 99-100.

(٩٩) Cassien : I nstitutiones L II P. 151 & 155.

(١٠٠) Workman : Evolution Of Monastic Ideal P.P. 131-132

(١٠١) Cassien : Institutiones L II P. 173.

(١٠٢) عن أهمية الصلاة الاجتماعية راجع مت ١٨ : ١٩ - ٢٠ ، أش ٥٦ : ٧ .

(١٠٣) القديس فيلوكسينوس المنبجى : أخبار الرهبان المصريين ورقة ٢٨ ا .

(١٠٤) Cassien : O. P. Cit P. 170.

(١٠٥) Palladius : OP. Cit. P. 24.

(١٠٦) بستان الرهبان جـ ١ ص ٧٠ .

(١٠٧) Ladeuze : Cenobitisme Pakhomien P.P. 289-290.

(١٠٨) Mackean : Christian Monasticism P. 90.

(١٠٩) Besse : Les Moines D'Orient P.P. 282-283.

(١١٠) Mackean : OP. Cit. P. 88.

(١١١) Cassien : Conf. V II P. 23.

(١١٢) Budge : Wit & Wisdom P. 39.

(١١٣) White : OP. Cit. P. 113.

(١١٤) بستان الرهبان جـ ١ ص ١ .

(١١٥) الدسقولية : ص ٤٦ .

(١١٦) نفس المرجع ص ١٣٠ .

(١١٧) نفس المرجع ص ١٦٥ (لا تجيز الكنيسة صيام السبت انقطاعاً إلا السبت الكبير المشار اليه).

(١١٨) Kraux : Histoire De L'Eglise T I P.P. 203-204.

جرت الكنيسة القبطية الأرثوذكسية بمصر على تبادل الخطابات مع كنيسة روما فترة طويلة لتحديد التاريخ الصحيح لعيد القيامة حتى استقر الأمر على اتباع التاريخ المنصوص عليه فى الحساب الابقطى .

(١١٩) سعيد بن بطريق: التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص ١٤٨ .

(١٢٠) Besse : Les Moines D'Orient P. 303.

Kraux : Histoire De L'Eglise T I P. 220.

(١٢١) ابن العسال : المجموع الصفوى باب ٥٠ ص ١٣٧ .

(١٢٢) نفس المرجع باب ٥١ ص ١٤٠ .

(١٢٣) Workman : OP. Cit. P 48.

(١٢٤) يوحنا الصغير : ميمر أنبا بيشوى (مخطوط) ورقة ١٢٤ ، ١٤ أ .

(١٢٥) راجع الفصل الثانى .

(١٢٦) Annan Isho : Wit & Wisdom P. 20.

(١٢٧) A. M. G : XV II P.P. 12-13.

(١٢٨) Ladeuze : OP. Cit. P. 29)

(١٢٩) Cassien : Conferences : T II PP. 19-26

Mackean : Christian Monasticism P. 90.

(١٣٠) لومند : خلاصة تاريخ الكنيسة (معرب) ص ١٧٢ .

(١٣١) Palladius : Paradise V II intro. P 12

(١٣٢) Besse : OP. Cit. PP. 308-309.

(٣٣) Palladius : OP. Cit V I P. 114

(١٣٤) القديس فيلوكسينوس : أخبار الرهبان المصريين ورقة ١٢ ا .

(١٣٥) Palladius : OP. Cit. VII P 22

(١٣٦) Ibid V I P 118.

(١٣٧) Besse : OP. Cit P.P. 308-309.

(١٣٨) Ibid : P 312.

(١٣٩) اتباع « مانى » وهو رجل ظهر فى بلاد فارس ونشر بعض آرائه الغريبة حتى اعتبرته الكنيسة خارجاً ومهرطقاً ومن تعاليمه رفض الإنجيل والمناداة بإنجيل جديد من عنده وقد نادى أتباعه بالامتناع عن اللحم والبيض والزواج. راجع الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة ج١ ص ٢٢٦-٢٢٧.

(١٤٠) سعيد بن بطريق : التاريخ المجموع على التحقيق ص ١٤٦-١٤٧.

(١٤١) ابن المقفع : تاريخ البطاركة ص ١٦٠ - ٦١ .

(١٤٢) فيلوكسينوس : أخبار الرهبان ورقة ٢، ا .

(١٤٣) بستان الرهبان جـ١ ص ١١١ .

(١٤٤) Palladius : Paradise V II P.P. 18-19.

(١٤٥) Ibid V II P. 17.

(١٤٦) Annan Isho : D P. Cit P. 33.

(١٤٧) Cassien : Instit. L IV P.231.

(١٤٨) Besse : OP. Cit P. 231.

(١٤٩) Palladius : OP. Cit. V I P 121.

(١٥٠) Ladeuze : Cenobitisme Pakhomien P. 299.

(١٥١) Palladius : OP. Cit P. 121.

(١٥٢) Ibid P. 130.

(١٥٣) Ladeuze : OP. Cit P.P. 299-300.

(١٥٤) Palladius : OP. Cit P 130.

Cassien : Instit : L IV P.P. 223-224

الفصل الخامس

أثر رهبانية وادى النطرون فى المسيحية الاولى

اقرأ فى هذا الفصل :

أثر رهبانية وادى النطرون فى التربية الدينية
ـ رهبانية وادى النطرون وكرسى الاسكندرية
ـ رهبانية وادى النطرون وأثرها فى العالم الخارجى .

أثر رهبانية وادى النطرون فى التربية الدينية :

أدرك زعماء الرهبانية وقادتها أهمية التعليم فى حياة الراهب الروحية ولذلك حتموا على الراهب أن يتعلم تعلما دينياً[1] ، ولعلهم فى هذا الصدد كانوا يحققون ، قول السيد المسيح « فتشوا الكتب لأنكم تظنون أن لكم فيها حياة أبدية»[2] .. ولهذا غدا القديس أنطونيوس المعلم الأول لرهبانه الذين أرشدهم وعلمهم تارة على انفراد وأخرى مجتمعين[3] ، وذلك حتى يحسنوا التصرف والسلوك ، وبهذا يصبحون على بينة من أمر حياتهم الحاضرة ، وحياتهم الأبدية .

وإذ أصبح للتعليم الدينى هذه الأهمية فى حياة الراهب فى وادى النطرون ، فإن أولئك الذين اشتغلوا بأيديهم فى النصف الأول من النهار ، قضوا بقية يومهم فى القراءة . غير أن بعض الرهبان من الشيوخ خصص وقتاً أكثر للقراءة ، وهؤلاء كانوا

فى درجة رهبانية تجيز لهم الإقلال من العمل اليدوى ، بل أن القراءة فى ذاتها أصبحت وسيلة الشيوخ لتجنب العمل القاسى[٤].

ومما ينبغى أن يكون ملحوظاً أن الرحالين الذين زاروا مصر فى القرن الرابع الميلادى ، جاءوا ليتعلموا العلوم المعروفة فى العاصمة المصرية ، وفى غيرها من المراكز العلميـــة والثقافية ، التى أضحت وقتذاك منحصرة فى الأديرة والقلالى ، وبين الجماعات الرهبانية ، قبل أن يحملوا على عاتقهم نشر رسالة المسيحية[٥] .

وفى هذه المراكز العلمية ، عقدت منـــاقشات مختلفة حول بعض الموضوعات التى أرادت بها فلسفة المسيحية ، ولهذا اعتبر الرهبان بعضها خروجاً على الدين ، ونوعاً من الهرطقة التى لا يقرونها . غير أنه من المعروف أنه لم تكن هناك رغبة ملحة للحياة الفلسفية من وراء هذه المناقشات ، بقدر ما كانت تهدف إلى البحث عن أصول الحيـــاة المسيحية الكاملة ، حيث لا تشوبها شوائب أو تدنسها هرطقات ، فكانت الدراسات العميقة من أجل هـــذا الغرض فى القراءات والدراسات المتصلة بالدين المسيحى[٦] ، وأصبح محور الدراسة ، العهد الجديد ، والعهد القديم ، إلى جانب مؤلفات زعماء المسيحية الأولى ، أمثال كليمنت الاسكندرى وأوريجانوس ، حيث تناولت هـذه المؤلفات اللاهوت ، والطقوس ، وتفاسير الكتاب المقدس[٧] .

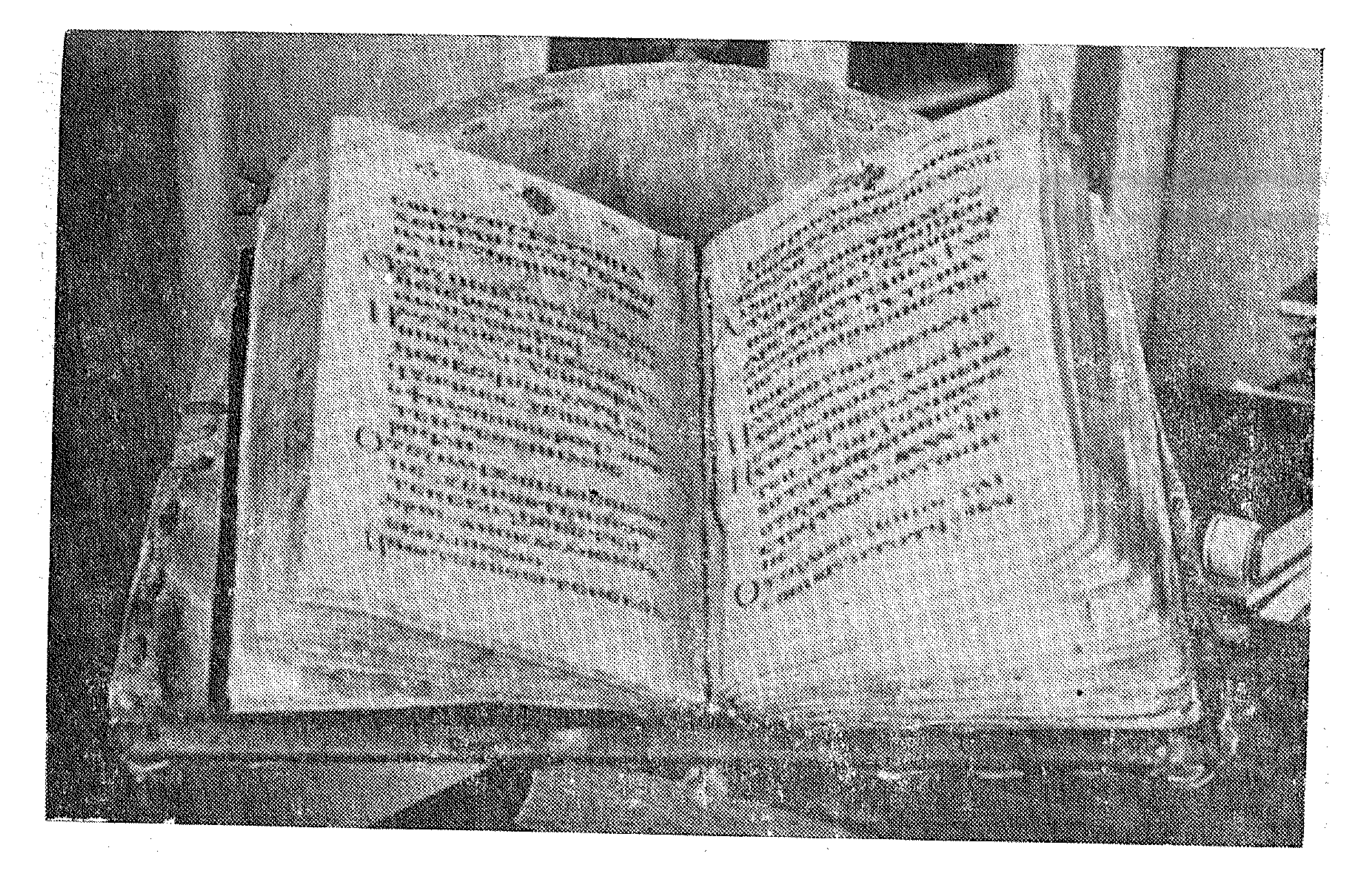
واهتم الرهبان بتعليم الأميين منهم القراءة ، من أجل مواصلة الدراسة ، وخاصة دراسة الكتب المقدسة ، بل أن بعضهم عكف على حفظ أجزاء من الكتاب المقـــدس عن ظهر قلب[٨] ،

ورددوا ما حفظوه أثناء عملهم اليـدوى ، ومن هؤلاء الراهب مرقس الذى سرد الأناجيل أمام بلاديوس ، وكان عمر هذا الراهب آنذاك ، مائة سنة ؛ كما أن بلاديوس طاف الصحراء بصحبـــة راهبين : الأول إسمه ألبين Albin والثانى إسمه إرون Eron ؛ وهذا الأخير حفظ خمسين مزموراً ورسالة بولس الرسول إلى العبرانيين ، وسفر أشعياء ، وجزءاً من سفر أرميا ، وإنجيل لوقا ، وسفر الأمثال .

وزادت قـــدرة بعض هؤلاء الرهبان على الحفظ ، حتى أن روفينوس أدهشه مدى قدرة الرهبان على حفظ التوراة ، وكذلك وضوح شرحهم لها ، كما أظهر إعجابه بقدرة رهبان الإسقيط على تفسير بعض العبارات الغامضة فى الإنجيل ، بمقابلتها بعضها ببعض[٩] .

والخلاصة أن الجماعات الرهبانية أصبحت مراكز هامة للتربيـة الدينية حتى أن الأنبا ثيوفيلس — البطريرك الثالث والعشرين فى عداد البطاركة — أنفذ ابن أخته كيرلس ، الذى أصبح بطريركا بعـــده إلى برية شيهيت ، بعد أن تلقى علومه بالاسكندرية . وفى برية شيهيت واصل كيرلس دراساته الدينية طيلة خمس سنوات ، قضاها يقرأ الكتب العتيقة والحديثة ، تحت إشراف سرابيون ، أحد شيوخ الرهبان ، وهناك تعلم كيرلس علوم البيعـــة ، لحفظ جميع كتب الصلوات الدينية فى هذه المدة ، التى خضع فيها لمعلمه خضوعاً تاماً فى نشاط رهبانى ملحوظ .

غير أن علاقة المعلم بالتلميذ شابتهـــا أحياناً صفة القسوة . ونستدل على هذا مما ذكر عن كيرلس المشار اليه ، إذ كان يقف



كتاب من نسخ الرهبان (على رق غزال)
بدير السوريان

أمام معلمه يقرأ فترة طويلة على حين قبض معلمه على قضيب من حديد ، فإذا نعس كيرلس نخسه معلمه به فيستيقظ ، كما بلغت مثابرة بعض التلاميذ درجة فائقة ؛ ومن حياة كيرلس هذا نعلم أنه فى فترة دراسته ببرية شيهيت قرأ كل ليلة الأربعة بشائر ، والكاثوليكون ، والابركسيس * ورسالة بولس الرسول إلى رومية[١٠] . ثم أنه بعد أن حفظ جميع الكتب الدينية المعروفة ، عاد إلى الإسكندرية ، حيث أبدى الكهنة والعلماء هناك إعجابهم بذكائه ودقة تفكيره[١١] .

ثم أن أكثر الرهبان شغلوا جانباً غير قليل من وقتهم فى نسخ مواعظ القديسين وتعاليم أساطين المسيحية ، وأسفار الإنجيل ، وشروحاته ، والوثائق القديمة الخاصة بهذه التعاليم الدينية ؛ وباعوا بعض نسخهم فى السوق لينتفع بها الشعب ، أو وهبوها للكنائس الفقيرة . ونشط رهبان الإسقيط وسليا أكثر من غيرهم فى نسخ الكتب والمساهمة فى الحركة العلمية الدينية فنسب إلى مكاريوس الاسكندرى أنه كتب قانوناً رهبانياً من ثلاثين مادة ، شملت الحديث عن القداسة[١٢] ، والتواضع ؛ وانسكاب الروح ، والعمل ، والصمت ، والسهر . ونذكر من بين الرهبان ذوى الثقافة العالية ، ايفاجريوس الكبادوكى ، الذى عاش فى سليا ، والذى ألف كثيراً من الكتب التى فقدت كلها — مع الأسف —

---

* الكاثوليكون هو قراءات من رسائل الرسل بطرس ويوحنا ويعقوب ، أما الابركسيس فهو قراءات من سفر أعمال الرسل .

ومن هـــذه الـكتب ، كتابه عن « الراهب » وآخر بعنوان « الغنوسية » وثالث يتناول شرح بعض مقتطفات من الانجيل ، كما كتب رسائل بعنوان « إلى جماعات الرهبان » ، « إلى رهبان القلالى » ، « كهنة الله » ، « مقاومة الشياطين » وذكر عن هذا الأخير أنه خص فيه بأكثر الحديث عن شيطان الزنا ؛ ومن رسائله المشهورة كذلك رسالته « إلى العذراء »(١٣) .

رهبانية وادى النطرون وكرسى الاسكندرية :

غير أن هـــذه الـكتابات التى كتبها ايفاجريوس وغيره من الرهبان ، الذين مثلوا جماعة الرهبان المفـكرين تفـكيراً عقلياً روحياً فى أمور الدين ، كثيراً ما أثارت مشكلات عكرت صفو السلام الرهبانى فى هذه البقعة ، كما أدت إلى مشكلات فى داخل الـكنيسة نفسها .

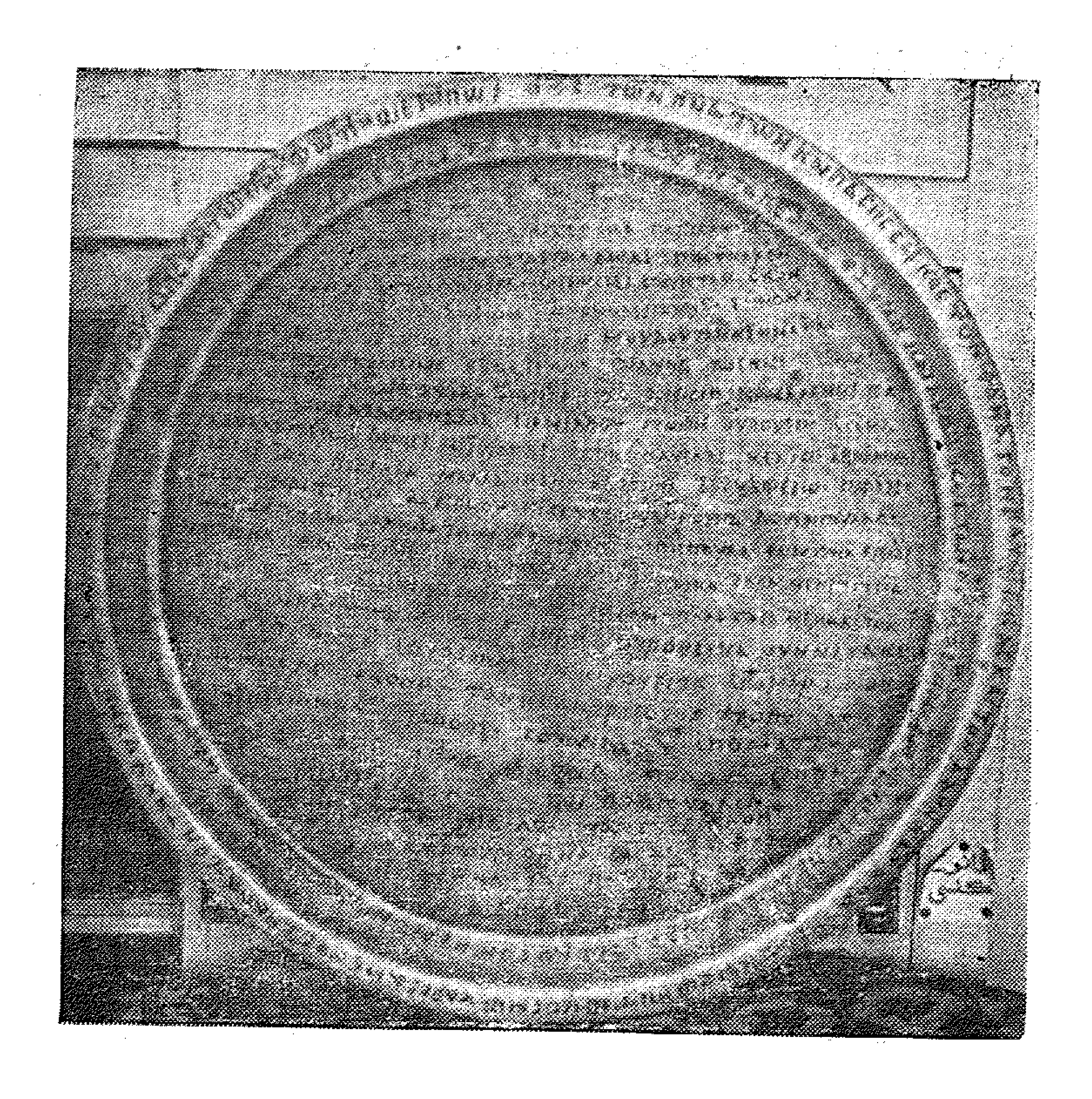
ذلك أنه لما أكدت بعض التعاليم المسيحية ، أكثر من مرة ضرورة تجنب المسيحى المحادثات مع من اعتبرتهم الـكنيســـة مهرطقين ، فإن أى تعليم فلسفى خالف تعليم بابا الاسكندرية الاثناسيوسى أو شرحه ، اعتبر هرطقة وجبت محاربتها أو منع انتشارها . واستند باباوات الاسكندرية فى نزاعهم وتخاصمهم مع هؤلاء المهرطقين على ما هو وارد فى قول بولس الرسول إلى تلميذه تيموثاوس « إن كان أحـــد يعلم تعليما آخر ، ولا يوافق كلمات ربنا يسوع المسيح الصحيحة ، والتعليم الذى هو حسب التقوى ، فقـــد تصلف ، وهو لا يفهم شيئاً ، بل هو يتعلل بمباحثات

ومماحكات الكلام التى منها يحصل الحسد ، والخصام ، والافتراء ، والظنون الرديئة ، ومنازعات أناس فاسدى الذهن وعادمى الحق ، يظنون أن التقوى تجارة . تجنب مثل هؤلاء »[١٤] كما استندوا إلى ما جاء فى رسالة يوحنا الرسول الثانية إلى كيريه المختارة وأولادها يأمرهم ألا يقبلوا الذين يعلمون تعاليماً غريبة وألا يسلموا عليهم.[١٥]

وكانت أحكام الباباوات السكندريين رادعة على هؤلاء المهرطقين ، فحرموهم استناداً إلى قول بولس الرسول فى رسالته إلى غلاطيه « كما سبقنا فقلنا ، أقول الآن إن كان أحد يبشركم بغير ما قبلتم فليكن أناثيما (محروما) »[١٦] .

على أنه مما هو جدير بالذكر ، إن من اعتبرتهم كنيسة الاسكندرية مهرطقين فى وادى النطرون كانوا قلة بالنسبة لعدد الرهبان الكبير ، ولم تظهر الكنيسة هؤلاء كهراطقة إلا حينما جدت عوامل خارجية أدت إلى النزاع والتخاصم بين بابا الاسكندرية وبين هؤلاء النفر من الرهبان ، على حين أنه فيما سبق هذا الوقت من سنين ، أعتبر الرهبان سلاح البابوية الحاد الذى دافعت به عن نفسها ضد المهرطقين فى داخل الكنيسة نفسها .

ومن أجل هذا كله وتطبيقاً لتعاليم الكتاب المقدس اجتهد القديس أنطونيوس ألا يخالط الهراطقة ، أما إذا حدث أنه دخل فى محادثة مع أحدهم ، فإنه جعل هدفه هداية المهرطق أو نقض تعاليمه ؛ وفى إحدى عظاته ، نصح تلاميذه ألا ينفروا من الهراطقة فحسب بل من التعاليم الهرطوقية كذلك ، إذ أنه على حد قوله « لاتوجد خطيئة أعظم من وجود المسيحى بين هراطقة »[١٧] .



صينيه من الرخام عليها خطاب
من مملكة النوبة المسيحية وهو مكتوب باللغة
اليونانية (دير السوريان)

ومعنى هذا أن القديس أنطونيوس دعا الرهبان إلى بذل الجهد لهداية الهراطقة فإذا لم يهتدوا صار تجنبهم من ألزم الأمور .

ومن أخطر البدع التى ظهرت فى داخل الكنيسة واستعان بابا الاسكندرية بالرهبان لمحاربتها ، بدعة آريوس ، الذى قال أن المسيح مخلوق ، وأنه ليس أزلى أزلية الله ، وعلى هذا لا يساوى الابن الآب فى الجوهر ، بل أنه نال السلطان من أبيه الذى هو أعظم منه [١٨] ، وانبرى القديس أنطونيوس للاشتراك فى الدفاع عن الأثناسيوسية — وهى المذهب الأرثوذكس * — فسافر إلى الإسكندرية للدفاع عنها ، كما والى الكتابة مؤكداً وحدانية « الجوهر » أو « الكلمة » [١٩] .

ولما كان من المعروف أن القديس أنطونيوس بتعاليمه وسلوكه أثر فى طريقة الحياة الرهبانية فى وادى النطرون ، فإن أغلب رهبان نتريا اشتركوا مع الكنيسة ، فى الدفاع عن هرطقة آريوس . ويظهر هذا واضحاً مما ورد فى رسالة بعث بها رئيس أديرة باخوميوس إليهم جاء فيها « من تادرس فى تابنا (تابنيسى) إلى الأخوة المحبوبين فى جبل نتريا ، القسوس ، والشمامسة ، والرهبان . أحييكم فى الله وأعرفكم أن اضطهاد الاريوسية وصل إلى مسامع الله ، ونظر الله إلى شعبه ليرفع عنه الألم الذى تحمله . . وسيأتى الوقت الذى تتخلص فيه الكنيسة من هذا الاضطهاد » [٢٠] .

---

* سميت كذلك نسبة إلى القديس أثناسيوس الذى دافع عن هذا المذهب فى مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م .

وعندما وصلتهم هذه الرسالة ، فرح الرهبان بها أيما فرح واشتعلوا حماسة لتأييد الأثناسيوسية ، حاملين ذلك العبء الذى حمله من قبل القديس أنطونيوس . وظهر تأييدهم واضحاً حينما استدعى البـــابا اثناسيوس القديس بامو من نتريا للدفاع عن المذهب الأثناسيوسى ، كما أن القديس أثناسيوس صحب راهبين من وادى النطرون معه إلى روما فى فترة إقصائه الثانية عن كرسيه ، بين سنتى ٣٤٥ ، ٣٤٩ م ، وهـذان الراهبان هما أمونيوس تلميذ بامو وواحد من أربعة رهبان عرفوا بالأخوة الطوال القامة(٢١)، أما الثـانى فهو إيسذور صاحب الضيافة ، الذى ترهب فى نتريا فى هذه الفترة .

ثم أنه أصبح للبابا أثناسيوس مكانة رفيعة بين الآباء الأول فى نتريا وذلك بعد أن اختفى هناك عدداً من السنين فى فترة إقصائه الثالثة بين سنتى ٣٥٦ م ، ٣٦٢ م ، وهى الفترة التى قضاها متنقلا بين الجماعات الرهبانية هنـاك ، وأدار دفة الرعويه الكنسية من هناك(٢٢) . وأدى وجود القـــديس أثناسيوس بين رهبان نتريا والإسقيط إلى جهادهم جهاداً عنيفاً ضد الأريوسية فضـلا عما أفادوه من تعاليم القديس أثناسيوس ، ولهـذا فلا عجب أن قاد رهبان وادى النطرون الشعب كله لمعارضة تعاليم آريوس ومحاربتها ، ولعل هـذا هو السبب الذى دفع الآريوسيين إلى اضطهاد هؤلاء الرهبان ، عندما سنحت لهم الفرصة (٢٣) .

وجاءت هذه الفرصة فى عهد البابا بطرس الثانى ، البطريرك الواحـــد والعشرين من بطاركة الكرسى السكندرى ، وهو الذى

خلف القديس أثناسيوس على الكرسى ؛ ذلك أن الامبراطور فالنس ، الذى كان آريوسيا ، والذى أحفظه انتخاب المسيحيين الأثناسيوسيين — أى الأرثوذكس — لهـــذا البطريرك دون الرجوع اليه ، فى إحدى اتجاهاتهم للتحرر من سلطان الإمبراطورية البيزنطية ، رأى الامبراطور فالنس أن يمكن أحد أتباع المذهب الاريوسى ، وهو لوكيوس الأسقف البيزنطى الأصل ، من الحصول على كرسى الاسكندرية وتدعيم المـــذهب الآريوسى فى مصر ، ليقضى بذلك على المسيحية الأصيلة ، باعتبارها عاملا من عوامل مقاومة الاستعمار البيزنطى لمصر . وعلى هذا أصدر هذا الامبراطور أمره إلى واليه بالاسكندرية بمهاجمة كنيسة مارخيوناس (ربما تكون كنيسة مرقس) التى تعود البطريرك — الأنبـــا بطرس الثانى — الصلاة بها . غير أن البطريرك عرف بهذا الأمر مقدماً ففر إلى روما ، وتمهد بذلك السبيل لتعيين لوكيوس الأسقف الآريوس بطريركا على كرسى الكرازة المرقسية ، ودخل هـذا الأسقف الاسكندرية دخول الظافر يحيط به جمهرة من الآريوسيين ، وتؤيده السلطة الزمنيــة ، ولم يكد يجلس على الكرسى البطريركى حتى بدأ باضطهاد الأثناسيوسيين ، وساعده على ذلك ، التأييـد الدائم من الامبراطور فالنس الذى أصدر منشوراً سنة ٣٧٤ م وقرر فيه ضرورة تقديم الرهبان أنفسهم للخدمة العسكرية ، كما قرر معاقبة الممتنعين منهم بأقسى أنواع العقوبات [٢٤] .

ولا يسع الباحث إلا النظر إلى هـذا المنشور من ناحيتين ؛ الأولى أن مبعثـه هو أن الامبراطور أصبح يخشى على سلطانه

من هذه القوة الضخمة المتحدة من الرهبان ، التى أصبحت تمثل عنصراً ثورياً قومياً ، ربما يؤدى إلى القضاء على نفوذه فى مصر ؛ أما السبب الثانى لاصدار هـذا المنشور ، فإنه يرجع إلى تأثير الحالة الاقتصادية وخاصة الزراعة فى مصر ، نظراً لازدياد عدد الرهبان فى صحارى مصر وقفارها حتى أن مساحات كبيرة من الأرض تركت بغير زراعة ، فى وقت اعتمدت الدولة البيزنطية فيه على محصول القمح ، الذى يرد اليها من مصر ، فأراد بذلك أن يعيد الرهبان للعمل المدنى بعد نهـاية الخدمة العسكرية ، ولا شك أن السبب الأول هو الأكثر وجاهة .

والخلاصة أن لوكيوس الآريوسى انتهز هذه الفرصة ليصب جام غضبه على الأديرة والرهبان ، فسار بنفسه الى وادى النطرون الذى كان يمثل معقلا من معاقل المسيحيـة الاثناسيوسية تؤيده فرقة من الجنود الامبراطورية ، الذين وضعهم الامبراطور تحت قيـادته . وتذكر المصادر أن تعداد هذه الحملة بلغ نحو ثلاثة آلاف جندى ، وأعلن لوكيوس أن غرض هذه الحملة هو إجبار الشبان الأقوياء من الرهبان على الخدمة العسكرية ، غير أنه كان يرمى فى نفس الوقت إلى إدخال مبـادىء آريوس بالقوة بين هؤلاء الرهبان ، ليصبح إذعانهم وإخلاصهم كله للدولة المستعمرة[٢٦] ولما رأى لوكيوس أن الرهبان يدافعون عن أنفسهم وأثناسيوسيتهم دفاعاً مستميتاً ، وأنه لا فائدة من إراقة الدماء ، أشار بالقبض على زعماء الرهبان ، ليسهل عليه الانتصار على جماعات الرهبـان

بعد إبعاد قياداتهم عنهم ، فقبض على القديسين مكاريوس الاسكندرى ومكاريوس المصرى (٢٧) .

وبسرعة تقرر نفى القديسين مكاريوس الاسكندرى وسميه المصرى إلى جزيره فيله فى الصعيد الأعلى ، وهى جزيرة ظلت وقتذاك على وثنيتها . وقد ذكرت المصادر قصة عن أثر وجود القديسين فى هذه الجزيرة فقالت أنه ماكاد القديسان يصلان إلى هذه الجزيرة حتى اندفعت ابنة كاهن الجزيرة الوثنى — ويبدو أنه كان بها روح نجس — نحو القديسين صارخة فى وجههما قائلة « لماذا أتيتما الينا ؟ هل تودان اخراجنا من هنا ؟ ؟ اننا ظننا أننا فى مأمن منكما فى هذا المكان الذى لا يعرفه أحد ، نعيش فيه آمنين باقى الأيام ، فلا نحن نؤذى أحداً ولا نود أن يؤذينا أحد ، فإذا كانت أنظاركما تطمع فى هذه الجزيرة فهنيئاً لكما بها ، اذ لا مقدرة لنا على مقاومتكما » . وبعد أن فاهت الصبية بهذه العبارات سقطت على الأرض مغشياً عليها ، فتقدم اليها أحد الرئيسين وعالجها بالصلاة . ولما شفيت الابنة — كما ورد فى الرواية نتيجة صلاة القديس — اعتنق سكان الجزيرة الديانة المسيحية (٢٨) . والخلاصة أن وجود القديسين فى هذه الجزيرة صار سبباً من أسباب انتشار المسيحية فى هذه البقعة البعيدة . وتشير نفس المصادر أن لوكيوس حين بلغه خبر نجاح هذين الرئيسين ، خشى على نفسه أن يؤدى هذا النجاح الى ثورة ضده فى هذا المكان البعيد ؛ فأصدر أمره بإعادتهما الى صوامعهما ، وتم هذا حوالى سنة ٣٧٧ م ، واحتفل رهبان وادى النطرون

بعودة زعيمهم احتفالا رائعاً ، وذلك فى ١٣ برمهات سنة ٥٣ للشهداء [٢٩] .

غير أن هذا الاضطهاد الذى شنه لوكيوس الآريوسى على رهبان وادى النطرون ، أدى من ناحية أخرى ، إلى نتيجة هامة، وهى ازدياد عدد المسيحيين الأثناسيوسيين فى بلاد الشام ؛ ذلك أنه من بين من قبض عليهم فى هذا الاضطهاد بعض الرحالين الغربيين الذين تصادف وجودهم فى وادى النطرون ؛ ومن هؤلاء روفينوس والراهبة ميلانيا [٣٠] . وهؤلاء تقرر إبعادهم إلى فلسطين ، وتبعهم إلى هناك جمع غفير من الرهبان ، وهناك بنت ميلانيا أديرة وصوامع للرهبان ، وفتحت أبواب أديرتها للفارين من مصر والقادمين عليها فى فلسطين [٣١] . وكانت إقامة هؤلاء الرهبان الأثناسيوسيين فى بلاد الشام سبباً فى كراهية غالبية الناس هناك للاريوسية وحقدهم على الاريوسيين ، ومدعاة لوقوفهم على الايمان الأرثوذكسى .

ومهما يكن من أمر فإن الحال تغير بعد وفاة الإمبراطور فالنس ، حتى أن جماعات الرهبان فى وادى النطرون عاشت فى هدوء حتى سنة ٢٨٥ م وذلك لضعف شأن الاريوسين بعد وفاة فالنس ومساعدة الأباطرة للأثناسيوسيين مساعدة فعالة أدت إلى توطيد دعائم الأثناسيوسية فى مصر . غير أنه مما عكر صفو الحياة الرهبانية سنة ٢٨٥ م هو قيام أحد الرهبان المصريين فى النطرون واسمه هيراقس Hierax [٣٢] ، ومناداته بآراء مخالفة للتعاليم المسيحية ، ومن هذه الآراء التى اعتبرت خطيرة ،مناداته

بأن الزواج خطيئة لا تغتفر وأنه ليس هناك قيامة للأجساد ، ولكن الأرواح هى التى تبعث فقط . واعتمد فى رأيه هذا على ما ورد فى رسالة بولس الرسول إلى العبرانيين عن ملشيصادق الكاهن فى وقت سيدنا ابراهيم وأنه « بلا أب بلا أم بلا نسب بلا بداية أيام أو نهاية حياة » واعتبر ملشيصادق هذا روحاً رمزياً ونفى وجوده المادى .

وأثرت هذه التعاليم تأثيراً كبيراً على حياة بعض النساك البسطاء فانقادوا لها ، حتى خشى البابا ثيوفيلس البطريرك الثالث والعشرون ـ حين بلغه الأمر ـ عاقبة انتشار هذه الآراء . فسارع بإصدار أمره إلى القديس مكاريوس الكبير ليعقد مجمعاً مكانياً لبحث هذه المشكلة . وشكل هذا المجمع من بعض شيوخ البرية الذين استعرضوا ما جاء فى الأصحاح السابع من رسالة بولس الرسول إلى العبرانيين وهو قوله « لأن ملكى صادق هذا ملك سالم كاهن الله العلى ، الذى استقبل ابراهيم راجعاً من كسرة الملوك وباركه ، الذى قسم له ابراهيم عشراً من كل شىء ، المترجم أولا ملك البر ، ثم أيضاً ملك ساليم أى ملك السلام ، بلا أب بلا أم بلا نسب لابداءة أيام له ، ولا نهاية حياة بل هو مشبه بابن الله هذا يبقى كاهناً إلى الأبد ، ثم أنظروا ما أعظم هذا الذى أعطاه ابراهيم رئيس الآباء عشراً أيضاً من رأس الغنائم ، وأما الذين هم من بنى لاوى الذين يأخذون الكهنوت فلهم وصية أن يعشروا الشعب بمقتضى الناموس ، أى أخوتهم مع أنهم قد خرجوا من صلب ابراهيم ولكن الذى ليس له نسب منهم

قد عشر ابراهيم وبارك الذى له المواعيد وبدون كل مشاجرة الأصغر يبارك من الأكبر ...» [٣٣] . وانتهى المجمع إلى تفسير مشكلة ملشيصادق بأن تاريخه معروف وأنه من أصل بشرى وأن والديه معروفان ، فأبوه هيراقلاس وأمه أستريا ، وكانا وثنيين ولكن ملشيصادق تحول إلى عبادة الله الحقيقى ، ولما رأى أن والديه لم يمتنعا عن تقديم الذبائح إلى الكواكب دعا الله أن يبيدهم ، ففتحت الأرض فاها وابتلعت عائلته ، وتركته « بلا أب بلا أم » . وعاش ملشيصادق سبع سنوات بعد هذه الحادثة فى القفار ، حتى استدعاه سيدنا ابراهيم ليصبح كاهنا لله العلى [٣٤] . وهكذا استطاع البطريرك ثيوفيلس أن يقضى على هذه الهرطقة ، وهو فى عاصمة البلاد . ولم تكلفه هذه المشكلة سوى إصدار أمره إلى زعيم من زعماء الرهبان لدحضها والقضاء عليها فى مهدها [٣٥] .

ومنذ ذلك الحين أصبح رهبان وادى النطرون فى نظر بطريرك الاسكندرية جيشاً على أهبة الاستعداد للدفاع عن هذا البطريرك أو عن مبادئه ، وأدى هذا إلى زيادة سلطة بابا الاسكندرية ، وخاصة بعد أن ارتقى العرش الإمبراطورى أباطرة على المذهب الاثناسيوسى أو الموالين له ، وظهر أثر هذا الجيش حينما حصل البابا ثيوفيلس من الإمبراطور تاودسيوس الأول على قرار بالاستيلاء على معبد باكوس Bacchus لبناء كنيسة فى مكانه [٣٦] .

واتخذ البطريرك ثيوفيلس من هذا القرار وسيلة لمحاربة

الوثنية فى مصر ، واستخدم فى هذا الشأن جيش الرهبان ، الذى تكونت غالبيته من رهبان وادى النطرون . ويبدو أن الأنبا ثيوفيلس وجد أن هذه فرصة ذهبية لنشر المسيحية فى كل أرجاء مصر ، والقضاء على آخر معاقل الوثنية ؛ فسارت عوامل الخراب فى هياكل الوثنية سير النار فى الهشيم ، فلم يبق حجر على حجر من معابد سيرابيس إلا ونقض [٣٧] ، وكانت هذه المعابد معدودة من أجمل الأعمال الهندسية فى مدينة الاسكندرية وغيرها من المدن ، فلا عجب أن ثار الوثنيون للدفاع عن دينهم وتراثهم .

ذلك أن الوثنيين لم يقفوا مكتوفى الأيدى أمام هذا الاضطهاد الإمبراطورى والمسيحى ، فاختاروا أوليمبيوس رئيس كهنة هيكل سيرابيس قائداً لهم ، واحتشد جمع غفير منهم فى ساحة معبد سيرابيس ، وأخذوا يدافعون عن أنفسهم ويصدون هجمات المسيحيين ، الذين انضموا لجيش الرهبان ، من هذا الهيكل الذى بنى على صعيد من الأرض على شكل بديع ، وفى وسطه ردهة واسعة ، وكانت جدرانه سميكة مبنية على شكل هندسى دقيق تعلوها طبقة من النحاس وتمر تحتها سراديب . وانقسم المعبد من الداخل إلى حجرات تختص بعضها بالكهنة وبعضها بالمصلين وبعضها بالضيوف ، وفى إحدى جهاته مكان هائل أعد للمكتبة الكبرى ، وفى هذه المكتبة اختبأ وقتذاك عدد من الوثنيين ، وانتظروا حتى تجمع عدد كبير من المسيحيين ، وهنا خرجوا وهجموا عليهم وأدخلوهم إلى المعبد ، حيث اضطروهم لأن يذبحوا

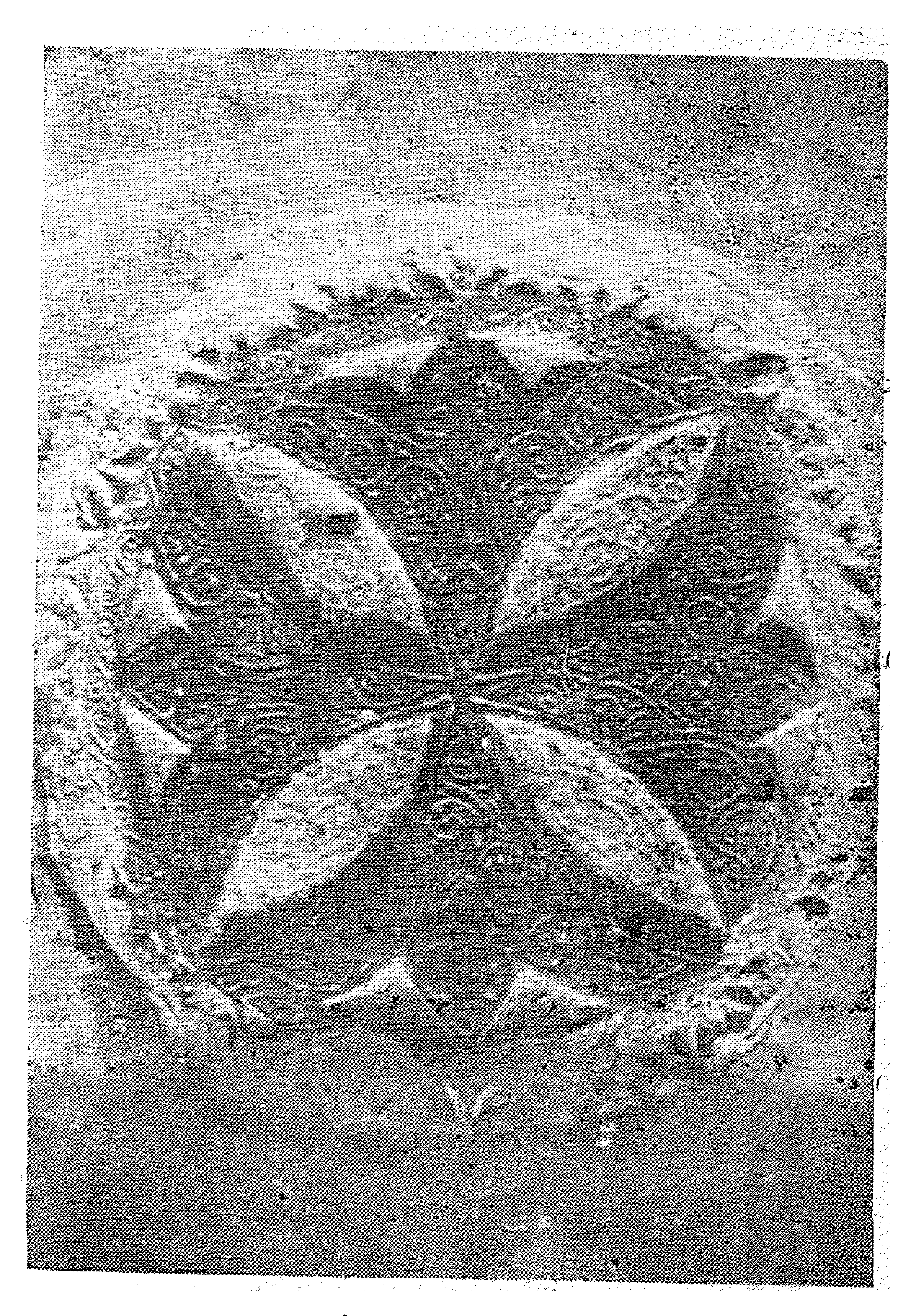
للأوثان [٣٨] . ولما كان والى الاسكندرية الوثنى لا يلم بأمر قرار الإمبراطور فانه حاول الهجوم على المسيحيين ، غير أنه أسقط فى يده عندما عرض عليه قرار الإمبراطور . وازداد خوف الوثنيين ، حين قرأه الوالى على مسامعهم ، حتى أنهم تركوا هيكل سيرابيس ، وفروا هاربين . فدخل البابا ثيوفيلس ومن ورائه جيش الرهبان والمسيحيين هيكل سيرابيس . وتذكر قصة احتلال هيكل سيرابيس ، أن المسيحيين حين دخلوا الهيكل هالهم تمثال الإله سيرابيس وهو جالس القرفصاء ويداه ممدوتان فى عرض المكان ؛ حتى أن ضخامته ومنظره وهو مرصع بالأحجار الكريمة أفزعا القوم الذين خشوا على أنفسهم من الاقدام على هدمه ، لولا أن البابا ثيوفيلس أسرع وأمر واحداً من الواقفين من حاملى المعاول والفؤوس أن يضرب التمثال الضربة القاضية [٣٩] ، فرفع الرجل يده وهوى بها على رأس التمثال ، وبعد أن ثنى الضرب ، هوت رأس التمثال ، ولشدة دهشه الجمهور الواقف عندما رأى رهطاً من الفيران والجرذان تخرج من التمثال مذعورة ، ولم يك طويلا حتى درست تلك المبانى الشاهقة على حين بقيت أسوارها قائمة ليبنى داخلها بطريركية لإقامة البطريرك الاثناسيوسى [٤٠] .

ولسقوط معبد سيرابيس بالاسكندرية نتائج بعيدة الأثر ، فلم يبق بعده أثر لأكثر المعابد الوثنية بالاسكندرية والأقاليم ، حيث هاجمها جمهور المسيحيين ، وحطموا ما بها من تماثيل وصور قديمة ، وتبع هذا دخول الكثيرين من المصريين فى

المسيحية . ويقف المؤرخون موقفين متناقضين من مسألة إسهام الرهبان فى القضاء على معبد سيرابيس ؛ فعلى حين يرى البعض أن هذه الحركة اتسمت بالقسوة من جانب الرهبان والمسيحيين فى الوقت الذى كان ينتظر من الرهبان الابتعاد عن هذه المعاملة مع أعداء المسيحية ، نقول أنه على حين يرى البعض هذا ، يرى البعض الآخر أن هذه الحركة كانت من الزم الأمور بل كانت عملا حاسماً اقتضته الظروف للقضاء على الوثنية فى مصر بعد أن أصبحت آلهة الوثنية من صنع الدولة الرومانية ، وطالما اتخذها الرومان وسيلة للقضاء على الروح القومية فى مصر . ونحن نرى أن الوثنية فى مصر وقتذاك كانت تمثل مظهراً من مظاهر الاستعمار الرومانى فعلا ، فلا أقل من أن تسهم الكنيسة بهذا الجهد فى إزالة آثار الاستعمار ورموزه ، لتبنى على أنقاضها حياة جديدة ، قوامها الحرية وأساسها وحدة الشعب فى دين واحد ، نقل الشعب كله – كما ترى الديانة المسيحية – « من عبودية الشيطان إلى حرية مجد أولاد الله » .

وبعد هذا الانتصار الساحق الذى أحرزه هذا البطريرك بجيشه من الرهبان رأى البابا أن يكافىء بعض آباء رهبان وادى النطرون بترقيتهم إلى رتب إكليروسيه فرفع ديسقورس أحد الأخوة الطويلى القامة إلى رتبة الأسقفية ، وأراد تعيين شقيقيه يوزيب ويوثيموس ، قسيسين فى كنيسة الاسكندرية ولكنهما اعتذرا .

ولم تقف جهود الرهبان عند هذا الحد ، بل أنهم ساهموا بنشاط وافر فى تحويل بعض الوثنيين إلى المسيحية ، لا عن



صليب مجنح يوجد على جدران معظم أديرة وادى النطرون

طريق القسوة أو العظات الـكلامية ، وإنما بسلوكهم الذى أصبح عظة صامتة لهؤلاء الوثنيين ، فهذا أحد الكهنة الوثنيين يعجب بسلوك القديس مكاريوس الكبير وتسامحه ، فيطلب منه إرشاده لاعتناق المسيحية ؛ وهؤلاء اللصوص الذين هاجموا قلاية القديس مكاريوس الاسكندرى ، فيعطيهم كل ما أرادوه ، مما دفعهم إلى الإعجاب بتسامحه الفائق حتى رغب بعضهم أن يصبحوا رهباناً [٤١].

غير أن ثمة مشكلة أخرى عاودت الظهور فى عهد البطريرك الأنبا ثيوفيلس نفسه ، وهى مشكلة الهرطقة بين الرهبان أنفسهم؛ وذلك أن رهبان وادى النطرون انقسموا فريقين حيال صفات الله ، أما الفريق الأول وهو من رهبان الإسقيط ، فانه اعتبر مؤلفات أوريجانوس أصلا لـكل هرطقة ، وساد بينهم الاعتقاد بأن الله على صورة البشر ومثالهم كما ورد فى سفر التكوين وما ورد فى الإنجيـــل عن عـين وأذن ويد وأصبع الله [٤٢] . (نقشتـكم على كـفة يدى ، من يمسكم يمس حدقة عينى) .. وعلى نقيض هذا الفريق وجد فريق آخر من بعض رهبان نتريا وبعض رهبان سليا ، اعتنق آراء أوريجانوس ، واعتبر كل هذه التعبيرات رمزية ، وأن الله كائن روحى ليس له شـكل الجسم البشرى ، وليس له أطراف ، أو عواطف بشرية ، أى أنه ليست له هذه الحدود البشرية ، وتزعم هـذا الفريق الثانى ، عـلى قلة عـدد رهبـانه ، الرهبـــان المعروفون بالاخوة الطـوال [٤٣] ، وايفاجريوس الـكبادوكى الذى عاش فى سليا [٤٤] .

ويبـدو أن البابا ثيوفيلس فى بداية رئاسته لم يـكن معارضاً

« للأوريجانوسية » (أى آراء أوريجانوس) ، حتى أن كثيرين من الاغريق وغيرهم ممن تأثروا بالفلسفة اليونانية وفدوا على وادى النطرون طالبين الرهبانية (٤٥) ، وبعد أن قرأوا كتب أوريجانوس اعتنقوا أكثر آرائه ، ثم حملوا هذه الآراء معهم ، لينشروها فى فلسطين ، ومن هؤلاء روفينوس والراهبتان ميلانيا وبولا . غير أن بعضاً من هذه الآراء أثارت الأنبا يوحنا أسقف أورشليم المصرى المولد ، فعارضها معارضة سافرة ، وانضم اليه جيروم . وحدث بين الفريقين نضال عنيف دعا الاسقف يوحنا إلى طلب تدخل البابا ثيوفيلس الذى أرسل اليه الراهب إيسذور، صاحب الضيافة ، والذى كان أحد رهبان نتريا ، ثم أصبح مديراً للمستشفى التابع للبطريركية ، مع علمه بأنه من المعروفين بمناصرتهم للآراء الاوريجانوسية ، فلم يفعل إيسذور شيئاً لايقاف تيار التعاليم الاوريجانوسية ، وعندما عاد الاسقف يوحنا استصراخ الأنبا ثيوفيلس ، غض الأخير الطرف عنه ، فلم يفعل شيئاً .

غير أن عوامل مؤقتة جدت على موقف الأنبا ثيوفيلس ، وجعلته ينقلب إلى مضطهد للاوريجانوسية ، ومن هذه العوامل تخاصمه مع الراهب ايسذور صاحب الضيافة ـ وهو من المعروفين بمناصرتهم لآراء أوريجانوس كما سبق القول ؛ وذلك عندما حضرت إلى إيسذور إحدى الأرامل ، وقدمت اليه ألف قطعة من ذهب ليصرفها فى شراء ملابس لنساء الاسكندرية الفقراء ، واشترطت عليه ألا يعطى البطريرك من هذا المبلغ شيئاً ، خشية

إنفاقه على البناء الذى أولع به البطريرك ، ولكن الأنبا ثيوفيلس علم بالأمر وأرسل إلى إيسذور يطلب جزءاً من المبلـــغ ، فرفض إيسذور أن يحنث بعهده مع الأرملة ، مما أحفظ قلب البطريرك عليـــه ، فهرب إلى وادى النطرون ليضمن لنفسه الأمان من عقـــاب البطريرك . (٤٦)

ومن العوامل الأخرى التى أدت إلى انقلاب ثيوفيلس إلى معاد للاوريجانوسية أن أكثر رهبان وادى النطرون لم يميلوا إلى تفسير آيات الإنجيل حسب ما ارتآه أوريجانوس ، وذلك لانتشار آراء تقول أن آريوس المبتدع أخذ رأيه فى طبيعة المسيح عن أوريجانوس ، ومن ثم زادت الكراهية لتعاليم أوريجانوس فى القرن الرابع ، حتى أن الأنبا باخوميوس أصدر أمره بأن يلقى الديريون جميع ما لديهم من كتب أوريجانوس فى النيل لتمحيها المياه ، وقال « لولا أن بها اسم الله لاحرقها » . (٤٧) ومن هنا بدأ ثيوفيلس يخشى على نفسه إن هو فقد صداقة هذا الجيش الذاخر من رهبان وادى النطرون بل وغيرهم من رهبان مصر وديريها .

غير أن الموقف تأزم فجـــأة أمام ثيوفيلس سنة ٣٩٩ م وذلك حينما أصدر رسالة عيد القيامة لهذه السنة ، وبعث بها إلى سائر الاسقفيات والرهبان والديريين فى سائر الأقاليم بمصر . فلما وصلت هذه الرسالة إلى رهبـــان وادى النطرون ، سببت إحدى العبارات الواردة بها غيظ وحنق الجماعة الانثربومورفيه Anthropomorphists. المعادية لفلسفة أوريجانوس (٤٨) ، وهى

الجماعة التى اعتبرت الله على صورة البشر ومثاله فى هذا المعنى الحرفى ، ومثلت هذه الجماعة كما أشرنا أغلب رهبان وادى النطرون وخاصة رهبان الإسقيط . أما هذه العبارة فهى قول الأنبا ثيوفيلس « أن الله روح لا يدركه الفهم ، وهو أعلى من أن تكون أوصافه شبيهة بإنسان مهما عظم شأنه وأن الله لا يجزأ أو يحد أو يحصر كما هو شأن الآدميين » [٤٩] . ويبدو أن ثيوفيلس أراد بإيراد هذه العبارة أن يختبر مدى أثرها على هذه الجماعة . والخلاصة أن الرهبان من أعداء آراء أوريجانوس حين قرأوا هذه الرسالة ، حنقوا وقاموا على رأس جيش كبير منهم ترك وادى النطرون واجتاز الصحراء حتى وصل إلى البطريركية بالاسكندرية ، وهناك احتشدوا ، وأخذوا يصيحون ويتوعدون البطريرك بالويل والثبور وعظائم الأمور إن لم يعلن سحب كلامه والعدول عن آرائه الهرطوقية . [٥٠]

أما البطريرك ، فإن الحيرة ملكت عليه ، واضطرب حين رأى نفسه وحيداً أمام هؤلاء الرهبان الناقمين ، ولم يجد الأنبا ثيوفيلس حيلة سوى أن يتملقهم [٥١] ، فناداهم من شرفة قصره قائلا « إننى إذ رأيت وجوهكم أشعر كأننى نظرت الله وجهاً لوجه ، لأنكم على صورته ومثاله » [٥٢] ، غير أن هذا التملق لم يكن ليسكتهم أو يوقفهم عند حدهم ، بل صاح بعضهم طالبين من البطريرك ثيوفيلس أن يعلن صراحة حرمان أوريجانوس ، زاعمين أن البدعة التى ذكرها فى رسالته إقتبسها من آراء أوريجانوس المحروم والمقطوع من فم البطريرك ديمتريوس الكرام ،

ولم يرضوا العودة من أمام الدار البطريركية إلا بعد أن وعدهم البطريرك بإجابة ملتمسهم وحرمان أوريجانوس (٥٣) .

أما الأخوة الطويلو القامة ، المعروفون بمناصرتهم لفلسفة أوريجانوس ، فانهم أنفوا من تصرفات هذا البطريرك ، وعادوا راجعين إلى وادى النطرون دون أن يحادثوا البطريرك فى هذا الموقف . ووجد الأنبا ثيوفيلس نفسه فى موقف لا يحسد عليه ، إذ أنه بهذا أغضب الفريقين . وبدلا من أن يحاول إصلاح الأمور بعقد مجمع ينتهى فيه الطرفان إلى قرار واضح مفهوم فى هذا الأمر ، حاول أن يسترضى الجماعة الاوريجانوسية من رهبان وادى النطرون فعرض على أكبر زعمائها ، وهو الراهب امونيوس، أن يرقيه إلى رتبة الاسقفية ؛ غير أن الراهب رفض عرض البطريرك . وحين حاول البطريرك تنفيذ رغبته بالقوة قطع أمونيوس أذنه اليمنى ، وهدد بقطع لسانه ، إن أراد البطريرك نقله بالقوة من قلايته فى وادى النطرون إلى وظيفة الاسقفية المزمع ترقيته لها . (٥٤)

ورأى ثيوفيلس أنه لا مندوحة من أن ينضم إلى رأى الجماعة الكبيرة فى وادى النطرون ، وفى أوائل سنة ٤٠٠م شكل مجمعاً شجب فيه مبدأ أوريجانوس وسفه تعاليمه ، وذلك إتماماً لوعده السابق لهذه الجماعة الثائرة التى أتت اليه بالاسكندرية . ولم يكتف البطريرك بهذا بل أنه كتب فى رسالة عيد القيامة للسنة التالية ضد أوريجانوس وآرائه وفند أخطاءه ، وفى نهاية الرسالة حكم عليه بأنه هرطوقى مبتدع .

وإذ استفحل الخلاف فى نفس السنة بين البطريرك ثيوفيلس وبين الراهب إيسذور ، صاحب الضيافة ، الذى هرب إلى وادى النطرون ، فان ثيوفيلس خشى أن يؤدى وجود إيسذور هناك إلى ثورة أنصار أوريجانوس ، ولذلك فانه أصدر منشوراً رعوياً إلى سائر أساقفة الابروشيات ورؤساء الأديرة وجماعات الرهبان بطرد وحرمان جميع الرهبان الذين يذهبون مذهب أوريجانوس ، أو بما يشبه قوله . (٥٥)

وإزاء هذا لم يقف أمونيوس مكتوف اليدين أمام هـذا البابا ، الذى جرفه تيار الرهبان الانثروبومورفيين ، بل جاء إلى الاسكندرية على رأس وفد من الرهبان ليحتج على البطريرك على عمله هـذا ، واعتبارهم متبدعين ، لا لشىء ، إلا لأنهم رفضوا فهم الإنجيل فهماً حرفياً كما فهمه أغلب الرهبان .

وعاد القلق يساور ثيوفيلس حين حضر هؤلاء الرهبان إلى الاسكندرية ، غير أنه لما كان يهاب سطوة الجماعة الأخرى ، فانه قرر أن يضع حداً لهذه الاضطرابات واضطر أن يمالىء الجماعة الكبيرة العدد ، فلطم أمونيوس على خده ، ودعاه مبتدعاً وحرمه ، فاضطر أمونيوس أن يعود قافلا إلى وادى النطرون مع من جاء معه من رهبان قليلى العدد ، والحزن يملأ قلوبهم والحنق يدفعهم إلى انتهاز الفرص ، للإيقاع بالبطريرك ، الذى عدوه من ذوى الرأيين (٥٦) .

أما ثيوفيلس فانه زيادة فى الحيطة لنفسه مما عسى أن يحدث من أمور مخلة بسلطانه ، أسرع إلى نتريا حيث عقد مجمعاً مكانياً

دعى اليه الكثيرين من أساقفته ، وفيه قرأت بعض كتب أوريجانوس ودارت بين الجميع مناقشة حول ما جاء فيها ثم انتهى المجمع إلى قراره الجديد بحرمان وطرد الرهبان الاوريجانوسيين من المجامع الرهبانية ، وعلى راسهم الاخوة الطويلو القامة .[٥٧]

غير أن هؤلاء رفضوا الاذعان لقرار المجمع فاستعان ثيوفيلس بالسلطة الزمنية لتنفيذ قراره . وبدأ ذلك بأن سعى لدى الامبراطور أركاديوس حتى استصدر منه منشوراً بطرد أتباع المذهب الاوريجانوسى من مصر . وما أن وصل هذا المنشور إلى الاسكندرية، حتى قام الوالى على رأس قوة عسكرية لمهاجمة رهبان نتريا الذين عصوا أمر البطريرك ، بل أن البابا ثيوفيلس حضر مع القوة المهاجمة ، ليوضح قوته ، ومدى تأثيره على الامبراطور .[٥٨] ومر الجيش الرومانى فى طريقه إلى نتريا على هرموبوليس بارفا (دمنهور الحالية) وطرد أسقفها ديسقورس المعتنق لمبادىء أوريجانوس ، فهرب إلى نتريا . وسار الجيش حتى وصل إلى نتريا فى إحدى الليالى . وعندما سمع الرهبان سنابك الخيول ترن فى الفضاء ، هاجوا وذعروا ، وخاصة لما علموا أن ثيوفيلس جاء ومعه فرقة رومانية ، لتلقى القبض على أتباع أوريجانوس . وهرع ثلاثة من الاخوة الطوال إلى الاختباء فى بئر عميقة ، وعمد بعض الرهبان إلى الرابع فخبأوه فى أحد أركان الكنيسة ؛ غير أن بعض الأحباش المرافقين للبطريرك أخرجوه بالقوة وأوسعوه ضرباً . وهجم الجنود على صوامع الرهبان الذين عرفوا بمعاداتهم للبطريرك فنهبوها ، وأضرموا فيها النيران وأحرقوا كتب أوريجانوس

وتسبب هذا الحادث في موت بعض الرهبان حرقاً .

غير أن مثل هذا الصراع يدفعنا إلى الاعتقاد بأن الناحية الشكلية فى الخلاف المذهبي أو فى الخلاف على بعض تفاسير الكتاب المقدس لم تعد أساساً لكل هذا الصراع ، بل أن جذوره أوضحت رغبة جامحة من جانب البطريرك ثيوفيلس فى عقاب الرهبان المخالفين ، وإظهار قوته بعد انتصاره الساحق على الوثنية ، واعتراف الامبراطور بسلطة البابا الاثناسيوسى وشرعيه مذهبه . ومما يبين صحة هذا الاعتقاد أن البابا ثيوفيلس عاود التفكير فى خطورة اتجاهه على الكنيسة نفسها ، بل أنه بدا كما لم يكن فى مخيلته أن يتطور الأمر إلى هذا الحد ، ولذا أسرع فأمر الجند أن يكفوا عن استعمال القوة ، ويردوا سيوفهم إلى أغمادها . (٥٩)

ثم دعا ثيوفيلس إلى مجمع آخر ، لكى يبرر ما قام به من أعمال لم تكن تليق بمركز بابا الاسكندرية الاثناسيوسى ، وخاصة فى مسألة علاقته بالرهبان . وفى هذا المجمع أعاد سرد تفسيرات آيات الإنجيل التى سببت النزاع ، ثم قرأ عليهم بعض فقرات كتاب أوريجانوس ، واستنتج منها ما توهمه من البدع ، ثم رغب إلى الرهبان أن يقتنعوا بآرائه حسماً للنزاع ، ثم ختم المجمع بقوله « فلهذا السبب حكم على أوريجانوس وأتباعه (الرهبان) بالحرمان فلم يرضخوا لهذا الحكم بل وضعوا يدهم عنوة على كنيسة نتريا ، وقفلوها فى وجوه الأساقفة ورؤساء الاديرة وصاروا يمسكون فى أيديهم الهراوات مغطاة بسعف النخيل ،

لكى يفاجئوا كل من يقف فى طريقهم ، فاضطر الرأى العام الأرثوذكسى إلى وضع حد لهذه القلاقل ، وتم الأمر على ما نريد ونشتهى » . (٦٠)

أما الاخوة الطوال الذين اختبأوا فى البئر فلم يمكثوا بنتريا طويلا بعد هذا المجمع ، الذى صادق على قراراته أغلب الرهبان بل ساروا إلى فلسطين حيث قضوا بعض أيامهم ، ممارسين عمل السلال من سعف النخيل ، وهى صناعة تعلموها فى مصر ، وتبعهم كثيرون من الرهبان الذين ساروا على مذهبهم ، ومن هؤلاء إيسذور صاحب الضيافة .

وتعقب ثيوفيلس هؤلاء الرهبان الخارجين عن طاعته بقرارات الحرمان ، التى بعث بها إلى الأساقفة ورؤساء الأديرة وجماعات الرهبان فى فلسطين ، حتى أن أكثر المسيحيين هناك نظروا اليهم بفتور واحتقار . غير أن هؤلاء الرهبان حين ضاقوا ذرعاً بظروفهم وأحوالهم رفعوا شكواهم إلى الأنبا يوحنا فم الذهب (خريسوستم) ، بطريرك القسطنطينية آنذاك . ولم يكتفوا بمراسلته بل ساروا اليه ، وبعد أن مثلوا بين يديه ، طلبوا منه أن يسترضى بطريركهم ليسمح لهم بالعودة إلى صوامعهم ، حتى يمكنهم الحياة بقية عمرهم هناك فى هدوء . (٦١)

غير أن التجاء هؤلاء الرهبان إلى الأنبا يوحنا فم الذهب رغبة فى وساطته لتسوية النزاع ، جاء بغير ما تمنوه من نتائج ، وأدى أكثر من هذا إلى التخاصم والنزاع بين ثيوفيلس وبطريرك القسطنطينية .

ذلك أن يوحنا فم الذهب بعث برسالة إلى البطريرك ثيوفيلس رجاه فيها أن يصفح عن الرهبان بعد هـذا التشريد . غير أن الأنبا ثيوفيلس أحفظه ترحيب البطريرك يوحنا بالرهبان ، الذين اعتبرهم الأنبا ثيوفيلس مهرطقين ، وزاد من غيظه ما نقل اليه من أن يوحنا فم الذهب ناولهم من الأسرار المقدسة ، مخالفاً بذلك تعليمات الكنيسة من مقاطعة المحروم . وثارت فى نفس الأنبا ثيوفيلس نوازع الكراهية القديمة للبطريرك يوحنا ، الذى عينه القصر الإمبراطورى لكرسى القسطنطينية ، بعد أن رفض تعيين إيسذور ، الذى رشحه ثيوفيلس لهذا المنصب ، ورد على يوحنا فم الذهب بخطاب شديد اللهجة عنفه فيه ، وزاد على هذا أنه اتهم الرهبان المذكورين بأنهم سحرة يخاطبون الجن ولهم توابع من العفاريت (٦٢) .

ومما زاد الطين بله أن خبر هذا الخطاب وفحواه شاعا بين عامة القسطنطينية فهاجوا ، وبدأوا يهزأون بهؤلاء الرهبـان على قارعة الطريق . ورغم أن أكثر الرهبان إستاءوا لهذه النتيجة ، فإن الأخوة الطويلى القامة نظروا اليهـا بعين الازدراء وبدأوا يحاربون ثيوفيلس بنفس السلاح الذى حاربهم به . فأعدوا تهمة ضد ثيوفيلس ورفعوها إلى يوحنا فم الذهب ليعقد مجمعاً ينظر فيها .

غير أن يوحنا فم الذهب سعى من جانبه مرة أخرى ليحل السلام والوئام محل النزاع والخصام ، رغم هذا الخطاب الشديد اللهجة من ثيوفيلس ، فعاود الكتابة إليه مظهراً أسفه الشديد

لأن خصومه جروا معه على الخطة التى سار عليها معهم ، وأضاف أنه طالما حاول إقناع الرهبـــان بترك القسطنطينية ، غير أنهم هددوه برفع ظلامتهم إلى الإمبراطور (٦٣) .

ويبدو أن الأنبا ثيوفيلس إزداد حنقاً ، لتدخل هذا البطريرك فى شؤونه ، لا سيما وأن النضال على أسبقية كرسى الاسكندرية على غيره من الكراسى البابوية كان لا يزال مصدراً لغضب بطريرك الاسكندرية (٦٤) ، فكتب إلى يوحنا فم الذهب مرة أخرى خطاباً جاء فيه « إذا كنت لم تقف على مضمون الدستور الذى وضعه مجمع نيقية القاضى بعدم تدخل أسقف أو بطريرك فى المسائل التى لا تنحصر ضمن دائرة سلطانه ، فأرجوك أن تطلع على هذا القانون وتدرسه حتى تريح نفسك من التعرض لى ، وتكف عن الصدام والجدال معى ، أما أنا إذا قضى الزمان على بالمحاكمة ، فسوف يحاكمنى أساقفة مصريون ، لا أنت ولا غيرك ممن هم بعيدون عنا ، ويقتضى وصولنا اليهم ، أو وصولهم إلينا ، سفر خمسة وسبعين يوماً كاملة » (٦٥) .

وقرأ يوحنا فم الذهب هـــذا الخطاب بالرضى والإذعان ، وقابل ثورة ثيوفيلس بالسماح والغفران ، غير أنه من ناحيـــة أخرى ، أخذ يسعى جهده لإقناع الرهبان المغضوب عليهم ، بفض مشكلتهم بالطرق الودية ، وإبطال رفع الدعاوى أمام السلطات الزمنية ، ولكنهم تشددوا واستأنفوا قضيتهم أمام الإمبراطورة يودوكسيا التى كانت متفوقة على نفوذ زوجهـــا الإمبراطور أركاديوس ، وتوسلوا إليها أن تسعى لدى الإمبراطور لسماع

دعواهم ، واستطاعت هذه الإمبراطورة أن تجعل زوجها يصدر أمره باستدعاء ثيوفيلس إلى القسطنطينية ليمثل أمام البطريرك يوحنا فم الذهب ، الذى سيتولى النظر فى القضية وإصدار حكمه فيها [٦٦] .

ولما أن اعتبر هذا الأمر إجحافاً بحقوق الأنبا ثيوفيلس وهضماً لسلطته ، إذ كانت سلطة بابا الإسكندرية فى نظر رعاياه مساوية تمام المساواة لسلطة الإمبراطور ، فإن ثيوفيلس اعتمد على تأييد شعبه ، ورفض أن يسافر إلى القسطنطينية .

والواقع أن الديوان الإمبراطورى لم يكن يهمه آنذاك بالنسبة لمصر ، أكثر من وصول الجزية السنوية من الحنطة [٦٧] ، فلم يعبأ الإمبراطور بمخالفة ثيوفيلس لأمره . ونظرت القضية غيابياً ضد ثيوفيلس وحكم المجمع الذى عرضت عليه القضية بعدم صحة الشكاوى التى وجهت ضد رهبان نتريا ، كما حكم بسجن الخمسة رهبان الذين بعث بهم ثيوفيلس إلى القسطنطينية حاملين ادعاءات البطريرك ثيوفيلس [٦٨] .

وعلى هذا النحو ، ازدادت المشكلة تعقيداً ، إذ ظهر مدى نفوذ كرسى القسطنطينية ، وتغلبه على صاحب كرسى الاسكندرية ، الذى لم يسع صاحبه سوى تحين الفرص للإيقاع بين يوحنا فم الذهب والإمبراطور .

ومن هذا كله يمكن القول أن البابا ثيوفيلس كاد يفقد مركزه بين الكراسى الكنسية نتيجة اصطدامه بيوحنا فم الذهب ، دون أن يقصد يوحنا فم الذهب الإساءة إلى البابا ثيوفيلس ؛

فالمعروف ، أن يوحنا فم الذهب كان على جانب كبير من التقوى وحب السلام ، فى الوقت الذى سعى فيه البابا ثيوفيلس إلى إعلاء مركز الكرسى الاسكنـــدرى على غيره من الكراسى الكنسية — اعتماداً على ما تقرر فى مجمع نيقيه — غير أنه لم يلتجىء إلى السياسة والملاينة بل عمد إلى تنفيذ رأيه غير عابىء بما يحدث من نتائج . ولولا ما جد من ظروف لفقد ثيوفيلس شخصيته ولفقدت الكنيسة القبطية معه شخصيتها التى اكتسبتها وقتذاك . وخـلاصة هذه الظروف أنه فى سنه ٤٠٣ م . ساءت العلاقات بين الإمبراطورة يودكسيا وبين يوحنا فم الذهب ، الذى دأب على نقد الإمبراطورة فى عظاته وتلقيبه اياهـــا بإيزابل الشريرة ، امرأة آخاب ملك اسرائيل . كما أكثر من وعظه على هيروديا الماجنة وقصتها مع يوحنا المعمدان . واعتبرت الإمبراطورة هــــذه العظات مهينة لشخصيتها ، وتلحق الأذى بكرامتها فاتصلت سراً بالأنبا ثيوفيلس ودعته للحضور للقسطنطينية لمحاكمة يوحنـا فم الذهب ؛ ويرجع سبب اتصالها بثيوفيلس سراً خشيتهـا من مسيحى القسطنطينية ، الذين أحبوا بطريركهم حباً عميقاً (٦٩) .

سافر البطريرك ثيوفيلس سنة ٤٠٣ م قاصـداً القسطنطية ، وأشاع قبل سفره اليها أنه ذاهب اليها لخلع يوحنا فم الذهب ، عقاباً له على تدخله . وما أن وصـــل البطريرك ثيوفيلس الى القسطنطينية حتى استقبله هناك حشد من الأساقفة والكهنـــة المصريين والأحباش ، غير أن عدم احتفاء كهنة القسطنطينية به ، جعله يتجه فوراً الى خلقيدونية حيث هناك سيرنيوس أسقفهـا

المصرى الجنس . ومن هنـاك أرسل يستدعى فم الذهب للمثول أمام المجمع . وأحصيت التهم الموجهة ضده ، ومنها اتهامه بتحريض الرهبان على رؤسائهم الروحيين ، وهضم سلطة بعض الأساقفة[٧٠] . غير أنه عندما طلب بعض الشهود من الرهبان لم يكن هناك منهم سوى أمونيوس الذى جىء به الى خلقيدونية[٧١] ، وهو يحتضر بسبب العذاب الذى لاقاه وهو فى شيخوخته ، فلما رآه ثيوفيلس على هذه الحالة ذرفت عيناه بالدموع من شدة التأثر[٧٢] .

وعلى الرغم من أن الصلح تم بـــين الخصمين اللدودين (البطريرك والراهب) . فإن المجمع أنهى جلســـاته بقرار خلع يوحنا فم الذهب من كرسيه ، ونفيه تحقيقاً لرغبة الإمبراطورة . غير أن الإمبراطور رغم مصادقتـه على الحـكم ، لم يستطع المضى فى تنفيـــذه لسببين : أولهما ثورة الشعب وتذمر أغلب الجيش ومطالبته بالإبقاء على راعيه ، والثانى حدوث هزة ارضية ادخلت الرعب فى قلبى الإمبراطور اركاديوس وزوجته ، فاعتقدا ان فى هذا إنذاراً من السماء بالانتقام ، لمـا ارتـكباه فى حق هــــذا البطريرك ، فعاود الإمبراطور النظر فى قراره وعـفى عن يوحـنـا وأرجعه إلى كرسيه ، وصار لهـذا القرار أثره العميق فى نفس الشعب الذى استقبل بطريركه بالتهليل وسـاروا به إلى الـكنيسة حاملين الشموع ، ومرنمين ترانيم الإنتصار .

وهكذا خاب سعى البطريرك ثيوفيلس ، واسـقط فى يده ، وخشى على نفسه من هياج شعب القسطنطينية ، فعـاد لتوه إلى مقر كرسيه ، عاقداً العزم على انتهاز الفرص التى تجد لخلع هذا

البطريرك الذى رحب برهبان وادى النطرون المحرومين من فم رئيسهم الأعلى .

وجاءت الفرصة مرة أخرى حين عادت الإمبراطورة يودكسيا وأعلنت غضبها على يوحنا فم الذهب ، ورأت أن تطرد هذا البطريرك ، الذى لم يكف عن مهاجمتها . وانفقت مع البطريرك ثيوفيلس على خلعه ، وفى هذه المرة اكتفى ثيوفيلس بإرسال ثلاثة أساقفة مصريين لمباشرة رسامة خلف ليوحنا[٧٣] ، الذى نفى سنة ٤٠٤ م بإرادة الإمبراطورة إلى مدينة نيقيه ثم إلى أرمينيا ، ومنها إلى جنوب غرب سيبيريا حيث تنيح[٧٤] .

ولا شك أن هذه الحوادث تغرى المؤرخ بالتفكير فى مدى ما أدت اليه من نتائج ؛ وهى على كل حال ليست فى صالح الكنيسة القبطية ؛ فالذى حدث أن البطريرك ثيوفيلس لم يكن موفقاً فى علاقته بالبطريرك يوحنا فم الذهب ولعل اعتماده على جيش الرهبان هو الذى دفع به إلى الانسياق فى تيار الهجوم وهو تيار لا يتفق مع المبادىء المسيحية بل أدى إلى سوء العلاقات بين كنيستى الاسكندرية والقسطنطينية ، ثم أن البطريرك ثيوفيلس اتخذ من السلطات الزمنية سنداً له فى تنفيذ مآربه وهو أمر لا تقره التعاليم المسيحية ، ولهذا لا عجب أن نرى البطريرك كيرلس الرابع والعشرين — الذى خلف ثيوفيلس على كرسى الاسكندرية — يعدل عن هذا التيار ويخلص الكنيسة من هذا الإنشقاق ، فيسجل اسم البطريرك يوحنا فم الذهب فى قائمة شهداء الكنيسة القبطية الذين تذكرهم فى صلواتها الرسمية .

غير أن النتيجة ذات الأهمية فى تاريخ الكنيسة القبطية ، وهى التى نتجت عن تدعيم قوة الرهبان فى وادى النطرون وفى غيره من الأماكن الرهبانية لبطريرك الاسكندرية ؛ هذه النتيجة وضحت فى ظهور سلطات زمنية للبطريرك السكندرى ، حتى صار يحكم فى كثير من أمور الشعب الدنيوية ، إلى جانب رعايتهم الدينية . وبلغت سلطة البطريرك درجة أن أصبحت شكوى ولاة الاسكندرية ضد تحدى باباوات الاسكندرية موضع إهمال البلاط الامبراطورى فى القسطنطينية . وظهر هـــذا واضحاً من تحدى البابا كيرلس الرابع والعشرين (٤١٢ — ٤٤٤ م) لأورستس Oristis والى الاسكندرية ، واستخــــدامه جيش الرهبان فى طرد اليهود من الاسكندرية [٧٥] . غير أنه حين شاعت شائعات اتهام بعض الرهبان بمقتل الفيلسوفة هيباشيا إبنة الفيلسوف Theon التى أشرفت على إدارة المدرسة الأفلاطونية الحديثة ، لم يجد الإمبراطور بداً من الخروج عن صمته فأصدر أمراً إمبراطورياً قضى بعدم تدخل الاكليروس فى المسائل السياسية وتحديد عدد خدام الكنائس [٧٦] .

على أن النزاع بين باباوات الاسكندرية والأباطرة لم ينتــه عند هذا الحد . بل ظل نزاعاً مستمراً حتى الفتح العربى لمصر ، وفى هذه المدة التى سبقت الفتح العربى أصبح وادى النطرون مقر الأمان الذى هرع اليه الباباوات السكندريون ، ومنه أداروا دفة كنيستهم ، واتجه المسيحيون اليعـــاقبة إلى بطريركهم الشرعى ، وخضعوا لأوامره ودانوا له بطاعتهم ، على الرغم من وجود بطاركة ملكانيين — أى بطاركة نصبهم الأباطرة أنفسهم —

ووضعوا فى أيديهم السلطتين الزمنية والدينية ، وكان هؤلاء على مذهب الطبيعتين المخالف لمذهب الكنيسة القبطية الأرثوذكسية[٧٧]

على أنه مما يوجب الالتفات فى كل هذه الحوادث ، هو إيقاظ الشعور القومى ، إذ أن الخلاص من معابد الوثنيين إلى جانب أنه مسألة دينية ، فهو أيضاً مسألة القضاء على رمز للعبادات البطلمية وعلى أكبر معقل من معاقل الفكر الهللينى الدخيل ، وما يقال عن فشل الوثنية فى مصر يقال عن فشل المدرسة اليونانية القديمة ممثلة فى شخص هيباشيا[٧٨] .

وثمة دليل آخر على مساهمة الرهبان فى إيقاظ الشعور القومى ، وهو نشاطهم الدائب فى القضاء على أصحاب التعاليم الغريبة والهراطقة الذين كان آريوس صنيعة الاستعمار أشدهم خطراً[٧٩] . وهكذا اعتمد الباباوات السكندريون على رهبان وادى النطرون فى الجهاد المتواصل للتخلص من سلطان الأباطرة تحت ستار المناقشات البيزنطية فى الأمور الدينية .

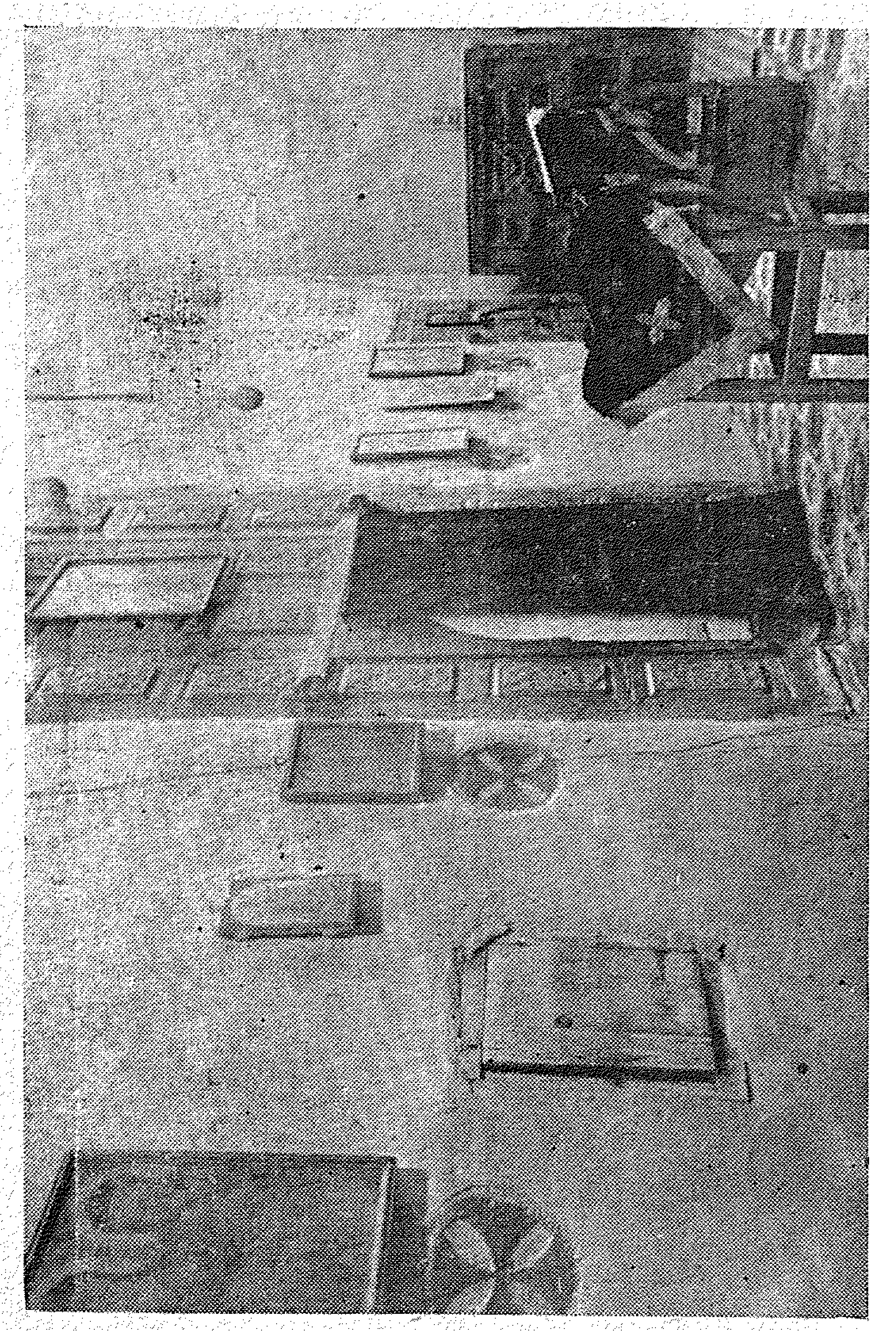
ولعل أبرز ما أسهم به الرهبان فى هذا الصدد ، نسخهم الإنجيل باللغة القبطية بعد أن ترجموا ما لم يترجم منه إلى القبطية ترجمة دقيقة ، وكذلك محاولة نشره بين الناس بزيادة النسخ المكتوبة ، وفى هذا العمل وسيلة من وسائل التخلص من الآثار الغريبة فى الكنيسة القبطية ومحاولة نشر آدابها ، وتدعيم القومية القبطية حتى أن القومية الرومانية أو الحضارة البيزنطية لم تستطع رغم تيارها الجارف وقوتها الساحقة ، لم تستطع أن تلحق بها

أدنى ضرر أو أقل تغيير مما جعل للرهبانية أثرها الكبير فى هذا الاتجاه القومى .

رهبانية وادى النطرون والعالم الخارجى :

ولم تقتصر آثار رهبانية وادى النطرون على المسيحية فى مصر بل تعدتها الى خارجها ، حيث انتشرت رهبانية من هذا النوع فى بعض بلاد الغرب والشرق ، وان اتخذت على أيدى مؤسسيها هناك أشكالا خاصة حسب ظروف البيئة التى نشأت بها أو نقلت اليها ، وفى هذه الأماكن الجديدة ، أخذ الرهبان على عاتقهم نشر المسيحية ، وحماية مدنية وثقافة تلك العصور من أن تطمسها أيدى المتبربرين .

وأول أثر من آثار هذه الرهبانية فى الغرب ، يرجع فيما يبدو الى البابا أثناسيوس ، البطريرك العشرين فى عداد بطاركة الاسكندرية ، حيث ذهب الى أوربا مرتين ؛ أولها فى مدة اقصائه الأولى عن كرسيه بين سنتى ٣٣٥ م ، ٣٣٨ م حيث قضى هذه السنوات فى تريف (على شاطئ نهر الموزل بفرنسا) وهناك سطر بعضاً من أخبار الرهبان المصريين وخاصة أخبار القديس أنطونيوس[٨*] . ولذلك فإن قيام رهبانية غاليا (فرنسا) يرتبط بهذه الحادثة ؛ اذ أن القديس مارتن ، أسقف مدينة تور ، مارس الحياة الرهبانية على النحو الذى عرفه عن أثناسيوس ، ثم أنه أسس جماعة رهبانية حوالى سنة ٣٦٢ م على مقربة من بواتييه ، وأتبعها بأخرى على مقربة من مدينة تور ، بعد أن صار أسقفاً



واجهة كنيسة دير البراموس

لها سنة ٣٧٢ م . ويقال أن عدد رهبان الجماعة الأخيرة بلغ نحو ثمانين راهباً ، قضوا حياتهم فى صلوات طويلة ، وأصوام قاسية ، وعاشت هذه الجماعة فى طراز رهبانى جمع بين الانفراد والشركة ، إذ سكنوا كهوفاً وأكواخاً ، ولم يجتمعوا إلا للطعام والصلاة فى الكنيسة [٨١] ، وهى صورة مما رأيناه فى وادى النطرون وفى غيرها من الأماكن الرهبانية .

على أن رهبانية وادى النطرون والرهبنة الانطونية انعكست صورتها فى إقليم بروفانس بجنوب غاليا ، وذلك بعد أن حمل نظمها إلى هناك يوحنا كاسيان ، الذى زار صحراء نتريا والإسقيط حوالى سنة ٣٨٥ م ومكث فى مصر سبع سنوات ، وتركها ليزور فلسطين ثم القسطنطينية حيث رسمه الأنبا يوحنا فم الذهب شماساً ، وأرسله للدفاع عنه أمام أعدائه فى روما ، ثم عاد بعد وفاة يوحنا فم الذهب إلى مسقط رأسه حيث رسم قساً [٨٢] . ثم أسس ديرين على مقربة من مرسيليا ، وترك لنا يوحنا كاسيان ذخيرة طيبة سجل فيها مشاهداته وأحاديث من سمعهم من رهبان مصر . فكتب مجموعة « القوانين الديرية » De Institutis Coenobiorum فى إثنى عشر كتيباً ، تحدث فى الأربعة الأولى : عن عادات ورهبان وديرى سوريا ومصر ؛ ثم كتب كذلك « محادثات مع الآباء الرهبان » Conferences فى أربعة وعشرين محادثة ، واختص العشرة الأولى بمحادثاته مع رهبان الإسقيط ، غير أنه مات قبل أن يكمل تسجيل محادثاته . وامتازت كتابات كاسيان بالتبويب والترتيب فكان لها أكبر الأثر فى تقليد أهل

غالبا لحياة رهبان مصر ، مع اختلافات طفيفة فى الملابس والنظام اليومى ، اقتضتهـــا ظروف المنـــاخ والبيئة التى عاشوا فيها[٨٣].

وذهب البابا أثناسيوس للمرة الثانيـــة إلى أوربا فى فترة إقصائه عن كرسيه بين سنتى ٣٤٠ م ، ٣٤٩ م . وفى هذه المرة عمل على نشر النظام الرهبانى[٨٤] ، إذ توجـه إلى روما بصحبة راهبين من رهبان وادى النطرون ، هما أمونيوس أحد الاخوة الطويلى القامة ، وإيسذور الراهب المشرف على بيت الضيافة[٨٥]. وفى روما نشر ثلاثتهم أخبار الانبا أنطونيوس وطريقة الحيـاة الرهبانية فى مصر . وأقام اثناسيوس ومن معه من الرهبـان فى منزل أرملة مسيحية اسمها مارسلا حيث دعا ، فى أحاديثه الكثيرة عن الارامل والعذارى فى مصر ، إلى حياة الرهبـانية النسائية . ولهـذا لا نعجب أن نرى بيوتاً للراهبات والعذارى فى روما . وكانت بداية لانتشـار أديرة النساء ؛ حين وضعت مارسلا نواة هذه الحياة ، فاجتذبت اليها الكثيرات ومنهن بعض نسـاء الطبقة الراقية اللأتى بعن حليهن وأمتعتهن ، وقدمن أثمانهـــا لمؤسسى الرهبانية ثم انخرطن فى هذه الحياة النسكية[٨٦] .

ومن أسس حياة رهبانية فى إيطاليا ، الراهب أمبروز الذى أصبح أسقفاً لميلان وشخصية لها نفوذها الذى فاق نفوذ الاباطرة أنفسهم . ويبدو أن رسامة الراهب ايسذور قساً قبل رحيله مع أثناسيوس جعل الرهبانية التى كونها أمبروز تجمع بين الحيـــاة الرهبـانية والوظائف الاكليروسية إذ جعل من قسيسيه جماعة تعيش حياة نسكية وفق تنظيم رهبانى ، وسار على نهجه يوزيب

أسقف فرساى بفرنسا ، فى النصف الثانى من القرن الرابع . ولم يكد القرن الرابع الميلادى يشرف على نهايته حتى امتلأت جهات كثيرة من إيطاليا وجزر البحر التيرانى بالجماعات الرهبانية [٨٧] .

ومن آثار رهبانية وادى النطرون ، فى تاريخ الرهبانية المسيحية الاولى ، ما جاء على أيدى بعض الرحالين الغربيين الذين زاروا مصر فى القرن الرابع الميلادى ليشهدوا عن كثب ، ما سمعوه فى بلادهم عن هذه الحياة الرهبانية . ولعل أهم هؤلاء الرحالة المؤرخ بلاديوس Palladius، الذى ولد فى غلاطيه حوالى سنة ٣٦٤م وترهب فى فلسطين ، ومكث هناك ثلاث سنوات زار بعدها الإسكندرية سنة ٣٠٧ م وهناك قابل إيسذور الراهب المشرف على بيت الضيافة بالبطريركية [٨٨] ، وبإرشاده مارس الحياة الرهبانية المصرية مع راهب إسمه دوروثيوس ، عاش فى كهف على مقربة من الاسكندرية . غير أن إعجاب بلاديوس بما سمعه عن رهبان نتريا والإسقيط ، دفعه إلى زيارة الاولى حوالى سنة ٣٦١ م ، ثم انتقل منها إلى سليا بعد قضائه سنة هناك ، وفى سليا عاش حوالى ثمانى سنوات ، نعم فى واحدة منها — على حد قوله — بعشرة القديس مكاريوس الاسكندرى . ثم زار الإسقيط ، وتحدث مع رهبانه ، ونقل عنهم أحاديثهم وعاداتهم ، ورجع إلى الاسكندرية سنة ٤٠٠ م بعد أن زار بعضاً من الجماعات الرهبانية والاديرة بالوجه القبلى ، ولم تطل إقامته بمصر ، إذ رحل إلى فلسطين ، حيث تعرف بالقديس جيروم ، وأقام معه فى أحد الاديرة مدة رحل بعدها إلى القسطنطينية لزيارة يوحنا فم الذهب

ومن سوء حظه أنه نفى فى فترة اضطهاد فم الذهب . غير أن نفى بلاديوس عاد بالخير على التـــاريخ ، إذ عكف على إخراج مؤلفه المعروف بالفردوس أو « بستان الرهبان » (٨٩) . وربما أتمه سنة ٤٢٠ م ، وحوى هـذا الكتاب الذى تعددت نسخه ، تاريخاً هاماً للرهبانية والديرية فى مصر ، وشخصياتها ونظمها ، وقوانينها ، وأقوال الرهبان ، وأحاديثهم ، ولهذا المؤلف أكبر الاثر فى تعرف العالم المتمدين آنذاك على ماكان بمصر من نظم وتعاليم رهبانيـة وديريه . ثم صار له أكـبر الاثر على مر العصور فى الحياة الرهبانية السليمة ، حيث درج الرهبان على قراءته ، وفهم معانيه وعقد المناقشات حول ما جاء به من تعاليم .

ومن الرحالين الغربيين الذين أسهموا فى نشر رهبانية وادى النطرون بعد أن تأثروا بها ، روفينوس وجيروم ، والاول كان قسيساً فى أكوليا Aquilia — زار مصر حوالى سنة ٣٧٢ م ، وأمضى حوالى سنتين فى وادى النطرون وكتب تاريخه عن رهبان مصر وهـــو المعروف بـ Historia Monachorum In Aegypti

ثم ترك وادى النطرون إلى فلسطين نتيجة إحـدى موجات الاضطهاد الاريوسى (٩٠) . أما الثانى ، فاعتبر حلقة من حلقـات الاتصال بين الشرق والغرب ، إذ قام بنقـــل ما عرفه عن نظم باخوميوس حوالى سنة ٤٠٤ م إلى اللاتينلية واعتبرها آخر مرحلة منظمة للحياة الرهبانية . كما كتب قانوناً للراهبات ، بعث به إلى الراهبة مرسلا فى قصرها بروما حيث امتلأ بالعذارى .

وكانت زيارة جيروم لمصر فى أواخر القرن الرابع الميلادى ،

بصحبة الراهبة الرومانية بولا ، ومكث الاثنان مدة فى وادى النطرون، ثم تركاه إلى فلسطين، حيث أسست بولا ديراً من مالها الخاص[٩١] .

ونتيجة كل هذه الكتابات، ظلت الرهبانية والديرية فى أوربا متخذة أشكالا مختلفة ، ولم تستقر على حال حتى اتخذت طابعاً ديرياً خاصاً على يد القديس بندكت، فى القرن السادس الميلادى، بعد أن عاش حياة رهبانية فى كهف فى Subiaco على بعد ٤٠ ميلا من روما ، واجتمع حوله بعض الرهبان ، ثم اعتزلهم إلى مونت كاسينو سنة ٥٢٠ م ليضع قانونه الجديد ، الذى أصبح قانون الديرية فى أوربا كلها وميز فيه بين الديريين والرهبان المتوحدين .

ويبدو أن بندكت لم يعجب بما كان فى النظم الرهبانية المصرية من تنافس بين الرهبان فى الحياة النسكية، فرأى أن ينظم جماعته تحت قانون عام مشترك، قام على تنفيذه رئيس، ولم يكن هذا القانون قاسياً بل كان قانوناً كما قال — « صغيراً للبادئين » A Little Rule For Beginners وينبغى ألا يتبادر إلى الذهن أنه لم يكن قانوناً مشتملا على شىء من الجفاف ، بل أنه أمر بعدم مغادرة راهب الدير ديره طيلة حياته إلا بإذن من رئيسه، كما أنه لم يخرج على القواعد الرئيسية للحياة الرهبانية والديرية، وهى الفقر الاختيارى، والتواضع، والطاعة ثم أنه لم شعث الراهبات والعذارى فى أديرة خاصة بهن، نظمت حياتهن وفق قانون كذلك، وأدارت أخته سكولستيكا Scholastica أول واحد منها[٩٢] .

وبلغ من تأثير هـذا القانون فى مدنية العصور الوسطى فى أوربا أنه أصبح عاملا قوياً فى نشر المسيحيـة بين المتبربرين فى العصور الوسطى . فحيثما انتشر قانون بندكت تغير وجه المجتمع والإقليم تغيراً هاماً ، فاجتثت مساحات كبيرة من الغـــابات ، وجففت المستنقعات ، وبنيت المدارس والمستشفيات والملاجىء فى داخل الأديرة أو ألحقت بها[٩٣] . وأصبحت الأديرة فضلا عن هذا مراكز لأعمال التبشير بالمسيحيــــة فى البلاد الوثنية ، كما أضحت مجمعاً للفنون والعلوم والحرف والصناعات[٩٤] .

والواقع أن القديس بندكت جاء فى وقت كانت الرهبانية فى فرنسا وإيطاليا تحتضر ؛ بسبب منافسة الرهبان للوصول إلى المثل العليا ؛ وكان هو واحداً من هؤلاء الرهبان الذين نافسوا غيرهم فى كهوفهم . غير أنه أنقـــذ هذه الحياة النسكية مما تهددها ؛ فأزال ذلك البناء المتداعى ؛ ليقيم على أنقاضه بناء جديداً يلائم الظروف الغربية ؛ ويتمشى مع القدرات الطبيعية للإنسان ؛ ولعل هذا هو سبب نجاحه ؛ إذ ظلت قوانين بندكت الحجر الأساسى ؛ الذى شيدت عليه النظم الديرية التى أعقبتها بأوربا[٩٥] .

وثمة تأثير غير مباشر للرهبـانية التى أوجدها فى روما البابا أثناسيوس ومن معه من رهبان وادى النطرون ؛ وهو انتقالها الى شمال افريقيا على يد القـــديس أوغسطين ؛ الذى ترك روما سنة ٣٨٨ م بعد أن عرف النظم الرهبانية هناك ؛ قاصداً Hippo بشمال أفريقيا حيث عين قساً لها . وعندما صار القـــديس أوغسطين أسقفاً لها سنة ٣٩٦ م أوجد نوعاً من الحياة الرهبانية

بين الإكليروس فى أبروشيته ، ثم أوجدها بين النساء عندما جمع عدداً من العذارى ، اللائى عشن وفق قانون خاص ، كتبه لهن وسماه قانون « الرسالة رقم مائتين وإحدى عشر »[٩٦] ؛ ولم يأت القرن الخامس الميلادى حتى كانت الرهبانية فى شمال أفريقيا منتعشة انتعاشاً تاماً بين الجنسين .

وليس هذا هو كل ما أحدثه الرهبان المصريون فى أوربا ، بل تعدى الأمر إلى انتقال الرهبانية إلى كل من إيرلندا وأسبانيا . مع بقاء معلوماتنا عن مؤسسيها فى كل منها غامضة ؛ إلا أن دليلا فى كل منها يشير إلى انتشار الرهبانية بها فى القرن الرابع الميلادى . ففى الأولى يقوم هذا الدليل فى وجود سبعة مقابر لرهبان مصريين ، وصلوا فى رحلاتهم التبشيرية إلى هناك ، بالإضافة إلى ذكر القديس باتريك شفيع إيرلندا[٩٧] . وفى الثانية يقوم القانون الذى أصدره مجمع سرقسطة سنة ٣٨٠ م دليلا على انتشار الرهبانية فى أسبانيا ، وفى هذا القانون حرم على الاكليروس أن يصيروا رهباناً[٩٨] .

وانتقلت الرهبانية إلى فلسطين بانتقال بعض الرهبان الفارين من الاضطهاد الآريوسى اليها . غير أنهم عند وصولهم اليها وجدوا من سبقهم إلى نشرها هنـــاك على النمط الأنطونى . ومن أول المؤسسين للرهبانية فى فلسطين الراهب هيلاريون الغزى ، المولود بغزة سنة ٢٩١ م ، والذى تلقى تعليمه العالى فى الاسكندرية حيث اعتنق المسيحية ، وأصبح تابعاً لأنطونيوس ، ثم عاد إلى مسقط رأسه ليعيش راهباً ، ولينشر الرهبانية بعد أن مهدت لها الجماعات

النسكية المعروفة « بابناء وبنات القيامة » ولذلك فإن تأثير رهبانية وادى النطرون هنا جاء من ناحية إظهار الطابع الرهبانى المصرى واضحاً ، ونشر الرهبانية فى كثير من جهات فلسطين(٩٩) ، ذلك الانتشار الذى أسهم فيه كذلك بعض من نساء الغرب الثريات، واللائى لمسن عن كثب الحياة الرهبانية فى وادى النطرون ، ومنهن ميلانيا الرومانية التى بنت بأورشليم عدداً من القلالى ، وفتحت أبوابها للرهبان المصريين الفارين من الاضطهاد الرومانى ، وأنفقت عليهم الكثير من مالها (١٠٠) .

وقامت الرهبانية والديرية فى العراق فى النصف الأول من القرن الرابع على يد أوجين المصرى الأصل ، بعد أن تتلمذ على يدى أنطونيوس وباخوميوس ، ثم بنى ديراً على مقربة من الموصل ، كما كون عدداً من الجماعات الرهبانية فى شمال بلاد العرب ، وفى أرمينيا وفارس . ومن رهبان وادى النطرون الذين يعزى إليهم تأسيس جماعات رهبانية فى العراق ، راهب اسمه ابرهيم القشقرى وقد أسس جماعة رهبانية على جبل عزلا بجوار نصيبين سنة ٥٠٢ م ، ولبس رهبانه نفس الملابس التى لبسها رهبان وادى النطرون ، وساروا على نفس نظمهم (١٠١) .

وانتشرت الرهبانية فى شرق آسيا الصغرى ، بعد أن انتشرت فى أرمينيا على يد راهب يدعى يوستاثيوس Eustathius ، غير أنه ينسب إلى القديس باسل الكبير (باسليوس الكبير) تأسيس رهبانية آسيا الصغرى . وكانت رهبانية باسليوس من النوع الذى ساد فى وادى النطرون ، كما دأب القديس باسليوس على

الاتصال برهبان وادى النطرون وخاصة فى وقت الأزمات التى تعرضوا لها ، إذ يذكر أنه أرسل اليهم تلميذه يوجين ، يعزيهم ويطلب صلواتهم . وغلب على نظام القديس باسل طابع الجماعة ، أو النظام الديرى ، كما تبع الجماعة الرهبانية أو الدير كذلك ملاجىء ومدارس للأطفال (١٠٢) .

أما الرهبانية التى نشأت فى سوريا فى القرن الرابع الميلادى ، فيبدو أنها كانت ذات طابع خاص ، مع تأثرها بالنظام الأنطونى ولعل أهم مظهر لها فى حياة الرهبان المعروفين بالعموديين — نسبة إلى سمعان العمودى — مؤسسها ، وهو راهب تأثر بالرهبانية المصرية ، غير أنه اتخذ من الحياة فوق عمود أساساً لنسكه الزائد ، وقلده فى هذا بعض الرهبان (١٠٣) . غير أن هذا لم يمنع وجود غيرهم ممن ساروا على النظم الأنطونية (١٠٤) . ووجه الشبه بين رهبانية العموديين ورهبانية وادى النطرون ، هو وقوف كل من هؤلاء وأولئك للدفاع عن الكنيسة أمام الهرطقات وتحويل الكثيرين إلى المسيحية ، بعد أن ذاعت شهرتهم ، فصار الناس يلجأون اليهم لاستشارتهم فى أمورهم الدينية والدنيوية على السواء . وثمة شبه ثالث بين النوعين ، هو التنافس بين الرهبان فى مضمار الحياة النسكية تنافساً دفع ببعضهم الى ما يشبه الشذوذ ، امعاناً فى إضعاف أجسادهم ، حتى صار بعضهم يحملون أحجاراً أو كتلا من الحديد ، أو يبقون فى صناديق لفترات طويلة .

وخاتمة القول أن رهبانية وادى النطرون بلغت أوج عظمتها فى أواخر القرن الرابع الميلادى وأوائل القرن الخامس ، ومن

دواعى هذا ، سعى الناس إلى تحقيق المثل العليا لروح العصر السابق ، وهو عصر الاستشهاد ، غير أن السبيل الى تحقيق هذه المثل لم يعد وقتذاك فى صورة الاستشهاد بل أضحى فى صورة اماتة الشهوات ، فى وسط بيئة روحية نظمت للوصول الى نوع من الكمال الإنسانى ، أنكر فيه الفرد ذاته دون أن يفقدها كما ظن البعض[١٠٥] . غير أن تعرض وادى النطرون لهجات البربر المتكررة طوال القرن الخامس الميلادى أدى الى قلة عدد رهبانه ، حتى اذا ما جاء القرن السادس الميلادى ، وبدأ البطاركة ينتبهون الى ضرورة اعادة بناء القلالى وتعميرها بالرهبان عاد الانتعاش الى جماعات وادى النطرون ، غير أنه لم يكن يعدل الانتعاش الذى رأيناه فى القرن الرابع الميلادى .

مراجع وشواهد الفصل الخامس

(١) Annan Isho : Wit & Wisdom P. 312.

(٢) يوحنا أصحاح ٥ : ٣٩ .

(٣) لومند : خلاصة تاريخ الكنيسة جـ ١ ص ١٦٧ .

(٤) Besse : Les Moines D'Orient P.P. 380-381.

(٥) Ibid P 381.

(٦) Ibid : P 382-384.

(٧) Duchesne : Hist. Ancienne De L'Eglise V II P. 497

(٨) Besse : OP. Cit. P. 389.

(٩) Ibid : PP. 383—390.

(١٠) الأربعة بشائر هي بشائر متى ومرقس ولوقا ويوحنا — والكاثوليكون هو رسائل يوحنا ويعقوب وبطرس، والابركسيس هو سفر أعمال الرسل ؛ ومنها تقرأ بعض الفصول أثناء القداس المعروف بقداس الموعوظين .

(١١) ابن المقفع ، ساويرس : تاريخ البطاركة ص ١٦٣ - ١٦٤ .

(١٢) Besse : OP. Cit : P. 393-394.

(١٣) Butler : Lausiac Hist. V I P.P. 143-144.

Socrates : Ecc. Hist. (Eng-Trans.) P.P.237-238.

(١٤) رسالة بولس الرسول الأولى إلى تيموثاوس ٦:٣ — ٥ .

(١٥) رسالة يوحنا الثانية عدد ١٠ ، ١١ .

(١٦) الرسالة إلى غلاطية ١ : ٩ .

(١٧) Besse : Les Moines D'Orient, P.P 397-398.

(١٨) إيسيذورس : الخريدة النفيسة جـ١ ص ٢٩١ .

(١٩) Besse : OP· Cit P. 399

(٢٠) White : Hist. Of Monasteries Of Nitria V II P. 74

(٢١) هم أربعة اخوة امتازوا بطول قامتهم وترهبوا فى نتريا وهم أمونيوس ، ويوزيب ، ويوتيموس ، وديسقورس ، الذى رسم اسقفاً على إقليم هرموبوليس بارفا . راجع سعيد بن بطريق : التاريخ المجموع ص ٥٣ .

Socrates : Ecc. Hist. P. 312 ،

(٢٢) بوتشر جـ ١ ص ٢٤٧ .

(٢٣) Workman : Evolution Of Monastic Ideal P. 20.

(٢٤) Tillemont : Mem. Pour Servire A L'Hist. Ecc. T. VIII P. 130.

(٢٥) Hardy : Christian Egypt P.P.80,92-93.

(٢٦) Butcher : The Story Of The Church Of Egypt V I P.220

(٢٧) Socrates : Ecc. Hist P.P. 242-243.

(٢٨) Ibid : P. 243.

(٢٩) Butler : Lausiac Hist Of Palladius V II P. 226.

(٣٠) راجع ما يلى بهذا الفصل ص ٢٣٩ .

(٣١) Butcher : OP Cit V I P. 202.

(٣٢) ترك هـــذا الراهب وادى النطرون إلى انتينوى لينشر بدعته هناك التى عارضت اعتقاد المسيحيين فى قيام الناس بعد البعث بأجسام سماوية خاصة .

(٣٣) عب ٧: ١-٧ ، Besse : Les Moines D'Orient. P. 410.

(٣٤) White : OP. Cit, V II. P. 115.

(٣٥) سرابيون ، ميمر مقاريوس (مخطوط) ورقة ٢٢ ب .

(٣٦) Fowler : Chirstian Egypt. P. 32.

(٣٧) الدويرى ، يسطس : موجز تاريخ المسيحية ص ١٩٥ .

(٣٨) القديس فيلوكسينوس : أخبار الرهبان المصريين مخطوط ورقة ١٣٢ ب .

Socrates : Ecc. Hist. P. 278.

(٣٩) إيسيذورس : الخريدة النفيسة جـ ١ ص ٤٠٢ .

(٤٠) Butcher : The Story Of The Church V I 216-217,224.

(٤١) Palladius : Paradise Of The Holly Fathers V I. P.P. 41-43.

(٤٢) Socrates : Ecc. Hist. Ch. V II P. 311.

راجع كذلك سفر التكوين ١ : ٢٦ .

(٤٣) إيسيذورس : الخريدة النفيسة جـ ١ ص ٤٤٥ .

(٤٤) Hardy : Christian Egypt. P. 91.

(٤٥) إيسيذورس : الخريدة النفيسة جـ١ ص ٤٤٧ .

(٤٦) White : OP. Cit. V II P. 135.

(٤٧) اعتقد هؤلاء فى أن الله ذو صورة بشرية على النحو الوارد بسفر التكوين الاصحاح الاول - راجع ما سبق فى هذا الفصل ص ١٢٤ .

(٤٨) Besse : Les Moines D'Orient P. 407.

(٤٩) Cassien : Les Conferences PP. 528-529.

(٥٠) Butcher : OP. Cit. V I P.P. 226-228.

(٥١) Fowler : Christian Egypt P. 33.

(٥٢) Socrates : Ecc. Hist Ch. V II. P. 311.

(٥٣) بوتشر : تاريخ الكنيسة المصرية (معرب) جـ ١ ص٢٢٣ .

(٥٤) راجع Palladius : Paradise V 1 Ch XXIV.

(٥٥) Butcher : OP. Cit. V I P.P. 225-226.

(٥٦) Ibid : V I P. 229:

(٥٧) White : OP. Cit. V II P. 140.

(٥٨) Gibbon : Decline & Fall Of The Roman Empire, V III Ch XL V II.

(٥٩) Butcher : The Story Of The Church: V I P.P. 229-230.

(٦٠) بوتشر : تاريخ الكنيسة — معرب جـ ١ ص ٣٢٨-٣٢٩.

(٦١) Butcher : OP. Cit . P.P. 234-235.

(٦٢) المرجع السابق جـ ١ ص ٣٣٠ .

(٦٣) إيسيذورس : الخريدة النفيسة جـ١ ص ٤٠٤ .

(٦٤) انسحب تيموثاوس البطريرك الثانى والعشرون من مجمع القسطنطينية الثانى لعدم اعترافه بأسبقية كرسى الاسكندرية الارثوذكسى على غيره من الكراسى - راجع
Fowler : Christian Egypt , P. 32.

(٦٥) بوتشر : المرجع السابق جـ١ ص ٢٣٢ .

(٦٦) إيسيذورس : المرجع السابق جـ ١ ص ٤٠٤ .

(٦٧) بوتشر : المرجع السابق جـ ١ ٣٥٨ .

(٦٨) نفس المرجع والجزء ص ٣٣٣ .

(٦٩) Gibbon : Decline & Fall V II P.P. 386-387.

راجع كذلك قضية يوحنا فم الذهب بالخريدة النفيسة ج ١ ص ٤٤٦ — ٤٥٦ .

(٧٠) بوتشر : تاريخ الكنيسة ج ١ ص ٣٣٤ - ويلاحظ أن ثيوفيلس لم يستطع دخول العاصمة خوفاً من أنظار يوحنا .

(٧١) توفى فى هذه الاثناء ديسقوروس فى القسطنطينية - انظر :
Socrates: OP. Cit. P. 327

(٧٢) نفس المرجع والجزء ص ٣٢٥ .

(٧٣) رسم أرساكيوس Arsacius خلفاً له انظر :
Socrates : Ecc. Hist. P. P. 329-320.

(٧٤) إيسيذورس : المرجع السابق والجزء ص ٤٥٠-٤٥١ .

(٧٥) بوتشر ج ٢ ص ٢٤ - ٢٧ .

(٧٦) Hardy : Christian Egypt, P. 104.

(٧٧) Butcher : OP. Cit. V I P.P. 325 & F.

(٧٨) عطيه : الكنيسة القبطية والروح القوى فى مصر فى العصر البيزنطى ص ٣ مقال بالمجلة التاريخية المصرية العدد الاول سنة ١٩٥٠ المجلد الثالث .

(٧٩) راجع Hefele : Hist. Des Conciles T I P. 325.

(٨٠) الطوخى ، جبرائيل روفائيل : حامى الايمـــان القويم ص ٦٦ - ٦٧ .

نفى الامبراطور قسطنطين البطريرك أثناسيوس للمرة الاولى عندما وقع الامبراطور تحت تأثير الاريوسيين ، الذين

قالوا عن اثناسيوس أنه جمع مالا طائلا ، وحاز شهرة عظيمة بين أهل الاسكندرية وأنه فى نيته أن يظهر سطوته بمنع سفر السفن المعدة لنقل الغـــلال إلى القسطنطينية ؛ ولما أن تأخرت السفن مصادفة ؛ صدق الإمبراطور الاشاعة وأمر بنفيه .

(٨١) Camb. Med. Hist. V I P. 5347.

اسس راهب اسمه هونوراتوس Honoratus رهبنة على ساحل الريفييرا (بفرنسا) بعد القديس مارتن — راجع Workman : P. 121.

(٨٢) Fliche & Martin : Hist. De L'Egypte, V III, P. 317.

(٨٣) Cassien : Conferences T I P.P. 710.

تأرجح يوحنا كاسيان فى رهبنته بين الانفرادية والاجتماعية .

(٨٤) Bonnet : Hist. Des Ordres Religieux P. 8.

هرب أثناسيوس إلى روما بسبب إحدى موجات الاضطهاد الاريوسى وعين الإمبراطور مكانه جورج الكبادوكى الاريوسى.

(٨٥) كيرلس الأنطونى ، القمص : عصر المجامع ص ٤٦ .

(٨٦) Workman : Evolution Of Monastic Ideal P. 116.

(٨٧) Camb. Med. Hist. V I P.P. 531-532.

(٨٨) Cabrol : Dict. D'Arch. Chret. T II P 3100.

(٨٩) هذا الكتاب كتبه بلاديوس إلى صديقه لاسوس Lausus ولذلك سمى كذلك Historia Lausiaca — أنظر

Paradise. V I PP. X II—XV.

(٩٠) Cabrol : OP. Cit. T II P. 3098.

(٩١) Workman : OP. Cit. P.P.117-118.

(٩٢) Camb : Med. Hist. V1 PP. 536-537.

(٩٣) Ency. Amer. Art, Monasticism.

(٩٤) فيشر ، هـ.ا.ل : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى جا ص٢١٧.

(٩٥) Camb. Med. Hist. : V1 P. 537.

(٩٦) Ibid V1 P. 532.

(٩٧) شكرى ، منير : المسيحية وما تدين به للقبط - مقال فى رسالة مارى مينا الخامسة ص ٧٩ .

(٩٨) Camb. Med. Hist. P. 533.

(٩٩) Smith : Studies In Early Mysticism, P. 20.

(١٠٠) Hardy : Christian Egypt, P. 95.

(١٠١) Smith : OP. Cit. P 31.

(١٠٢) Ibid PP. 24-25.

(١٠٣) Ency. Brit. : Art, Monasticism.

(١٠٤) Smith : OP Cit. P. 20.

(١٠٥) Workman : OP. Cit. PP. 331-340.

الفصل السادس

الرهبنة والديرية فى وادى النطرون

من القرن الخامس حتى الفتح العربى

اقرأ فى هذا الفصل :

أثر الهرطقات فى وادى النطرون ـ الامبراطور زينون والاسقيط ـ هرطقة بوليان ـ برية الاسقيط (شيهيت) وكرسى الاسكندرية فى القرن السادس ـ هرقل والكنيسة القبطية ـ الفتح العربي والرهبانية .

الهرطقات فى وادى النطرون :

تأثرت الرهبنة فى وادى النطرون فى هذه الفترة بما طرأ على كنيسة الاسكندرية من عوامل منذ القرن الرابع الميلادى من أحداث . وقد رأينا فى الفصل السابق كيف أثرت الرهبنة فى وادى النطرون فى كرسى الاسكندرية وكيف تأثرت بدورها بنشاط باباوات الاسكندرية ، وذلك فيما ظهر من بدع وهرطقات أثيرت فى داخل الكنيسة ، أو بما نشأ منها بين رهبان وادى النطرون أنفسهم الذين تأثروا بفلسفات مناهضة للكنيسة الأرثوذكسية . غير أن كل هذه المؤثرات لم تؤد الى عملية تطوير للحركة الرهبانية فى وادى النطرون من حيث التشكيلات المختلفة التى رأيناها اللهم الا من حيث الاتجاه الاجتماعى نحو النظام الديرى الباخومى ،

الذى صار معروفاً فى كثير من أجزاء مصر وقتذاك .

على أن الذى لا يمكن إغفاله فى هذين القرنين هو أن الحركة الرهبانية فى وادى النطرون بدأت تتجه اتجاهاً عنيفاً ، حيث أسهم رهبان وادى النطرون بشكل واضح فى متابعة أحداث الكنيسة المصرية ، واشتراكهم كذلك فى الدفاع عن مذهبها فى المجامع المختلفة التى عقدت طوال هذين القرنين ، حتى أصبح وادى النطرون حصن الكنيسة المنيع الذى التجأ اليه بابوات الاسكندرية ، الذين ثبتوا على المذهب الأثناسيوسى ، أى على مذهب الكنيسة الأرثوذكسية بالاسكندرية ضد الهرطقات والبدع المختلفة التى اتخذت فى القرن الخامس صورة خصام عنيف بين كنيسة الاسكندرية وكنيسة القسطنطينية أى كنيسة الإمبراطورية البيزنطية، وكنيسة روما أى كنيسة الإمبراطورية الرومانية الغربية .

ولذلك فإن دراسة هذه المؤثرات يدفعنا الى عرض سريع لحركة الهرطقة التى ظهرت فى هذين القرنين ، وما صاحب هذه التعاليم الهرطوقية من تيارات سياسية ، وما اختفى وراء هذه وتلك من محاولات الكنائس المختلفة احتلال مركز الصدارة أو الزعامة بين الكنائس المسيحية المختلفة ، وبمعنى آخر ابراز الأسبقية على كرسى الاسكندرية ، هذه الأسبقية التى أحرزها باباواتها فى القرن الرابع الميلادى ، بحكم التنظيم الكنسى الذى اتفق عليه فى مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م . على أن هذه الدراسة تحتاج من الباحث فى الحركة الهرطوقية فى الكنيسة المسيحية الى فهم عميق ودراسه واعية لعلم اللاهوت ، الى جانب تتبعه للاتجاهات السياسية

الخفية التى هى وراء المشكلة الهرطوقية ، ويضاف إلى هـذا ضرورة الحذر الكامل عند تناول آراء كتاب الغرب حول المجامع المسكونية ، حيث ينظر لها من وجهة النظر الحقيقية التى تعتمد على النصوص الكتابية .

ولعل أول هذه المؤثرات التى تأثرت بها كنيسة الاسكندرية وبالتالى تأثرت بها رهبنة وادى النطرون ، تلك التعاليم الهرطوقية التى نادى بها نسطور بطريرك القسطنطينية سنة ٤٢٨ م ، إذ نادى بأن فى السيد المسيح أقنومين وشخصين وطبيعتين ، واستطرد فى هذا بالقول بأنه لا ينبغى أن نسمى السيدة العذراء والدة الإله كما عاب على المجوس سجودهم للطفل يسوع ، واستقطع الجزء الأخير من كل من الثلاث تقديسات التى ترتلها الكنيسة فى صلواتها وهى (الذى ولد من العذراء ـ الذى صلب عنا ـ الذى قام من الأموات) . ومن أجل هذا التعليم الخطير ، وبسبب ما أحسه الإمبراطور تاودسيوس الصغير إمبراطور الدولة البيزنطية من تهديد أمن الدولة بسبب هذه التعاليم ، دعا هذا الإمبراطور سنة ٤٣٠ م إلى عقد مجمع مسكونى فى أفسس ، وكتب الإمبراطور بذلك إلى البابا كيرلس الكبير الرابع والعشرين فى عداد بطاركة الاسكندرية ـ وابن أخت سلفه البابا ثاوفيلس ـ . على أنه إذا كان الإمبراطور تاودسيوس أدرك خطورة تعاليم نسطور من وجهة السلام الإمبراطورى ، فإن البابا كيرلس الكبير نظر إلى خطورة هذه التعاليم من الوجهة اللاهوتية الصحيحة ومن وجهة نظر الكنيسة كشعب وككنيسة واحدة مقدسة جامعة رسولية

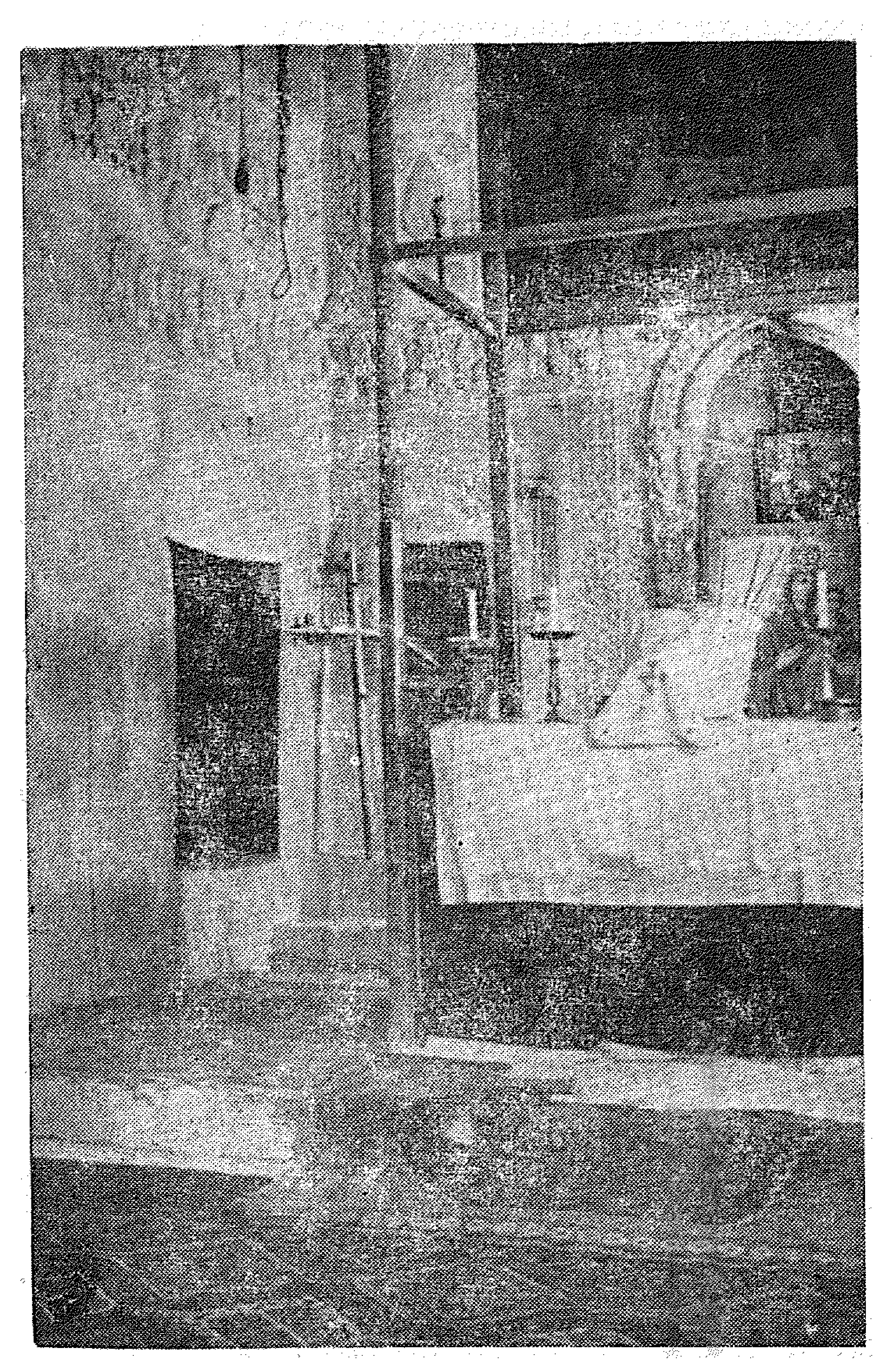
كما أتفق فى المجامع السابقة . ولا شك أنه اعتبر مناداة نسطور بهذا الرأى هدماً للمسيحية كلها من حيث اعتبار المسيح « الكلمة المتجسد » من أجل خلاص البشرية نبياً كبيراً . ولذلك بدأ كيرلس بكتابة عدة رسائل إلى نسطور يحثه فيها على الرجوع عن غيه ومبيناً له خطأه بأسانيد كتابية . غير أن نسطور رفض حتى مقابلة حاملى رسائل كيرلس بل ظلت بعثة كيرلس مدة طويلة بالقسطنطينية تحاول مقابلة نسطور دون جـــدوى ، فاضطرت للعودة من حيث أتت [1] .

وربمـــا يبرر البعض موقف نسطور بأنه نجم عن مواقف البطريرك السابقة ثيوفيلس من يوحنا فم الذهب بطريرك القسطنطينية السابق ، وما حدث له من إجراءات تعسفية . ولكن يمكن الرد على هذا التبرير بأن البابا كيرلس الكبير وهو ابن أخت البابا ثيوفيلس الذى أمر بعزل يوحنا فم الذهب ، ما كاد يجلس على كرسى الاسكندرية حتى طلب قضية يوحنا فم الذهب وفحصها جيداً ، بما عرف عنه من دقة فى بحوثه اللاهوتية ، وأخيراً قرر براءة يوحنا فم الذهب بل أمر برفعه إلى مرتبة القديسين ، وأمر بكتابة اسمه فى قائمة أسماء القديسين ، الذين تذكرهم كنيسة الاسكندرية فى صلاة القداس . غير أنه يبدو أن وجود نسطور فى حضن القصر الإمبراطورى جعله يفكر فى الاستعانة بالقوة الإمبراطورية ليتحلل من التنظيم الكنسى ، الذى جعل لكرسى الاسكندرية مركز الصدارة للكنيسة الواحدة الجامعة ، فنادى برأيه هذا . ومن يدرى ربما وراء هذا خطة إمبراطورية لاضعاف شأن الكنيسة المصرية .

على أنه لما لم تفلح الرسائل المتكررة التى بعث بها كيرلس الكبير لارجاع نسطور عن رأيه ، عقد مجمعاً مكانياً بالاسكندرية عرض فيه هرطقته ، وأثبت خطأ تعاليم نسطور مدللا بآيات من الكتاب المقدس وتعاليم الآباء الأول فى أن « عمانوئيل إله حقيق واحد وأن العذراء مريم والدة الإله ولها حق التطويب » كما أن العلاقات بين كنيسة الاسكندرية وكنيسة روما كانت طيبة حتى أن كلستينوس أسقف روما وقتذاك أرسل يؤيده فى هذا التعليم الصحيح ، بل بعث بخطاب إلى نسطور يهدده بالقطع إن لم يرجع عن تعليمه المعارض لتعليم الكنيسة الجامعة الواحدة .

والخلاصة أن البابا كيرلس الكبير وافق على حضور مجمع أفسس ، الذى دعا اليه الامبراطور تاودسيوس الصغير ، وصحبه إلى هناك عدد كبير من رهبان مصر وخاصة من رهبان وادى النطرون الذين اشتهروا بتعمقهم فى علوم الكنيسة وتحمسهم للدفاع عن المذهب الارثوذكسى ، وقرر المجمع الذى حضره مندوبون عن الكنائس المختلفة ، وبعد المناقشات الطويلة والبحوث المستعصية ـ عدم قبول تعاليم نسطور والحكم عليه « بالفرز » من رتبته الكهنوتية ، ثم رفع المجمع قراره إلى الإمبراطور تاودسيوس لإقراره . وأصدر المجمع قراراً أصبح مقدمة لقانون الايمان وهى المقدمة التى ترددها الكنيسة فى صلواتها وتبدأ بعبارة « نعظمك يا أم النور الحقيق ونمجدك أيتها العذراء القديسة والدة الإله... .... يارب ارحم يارب ارحم يارب بارك آمين » .

على أنه لم يخرج على رأى مجمع أفسس سوى كنيسة إنطاكية

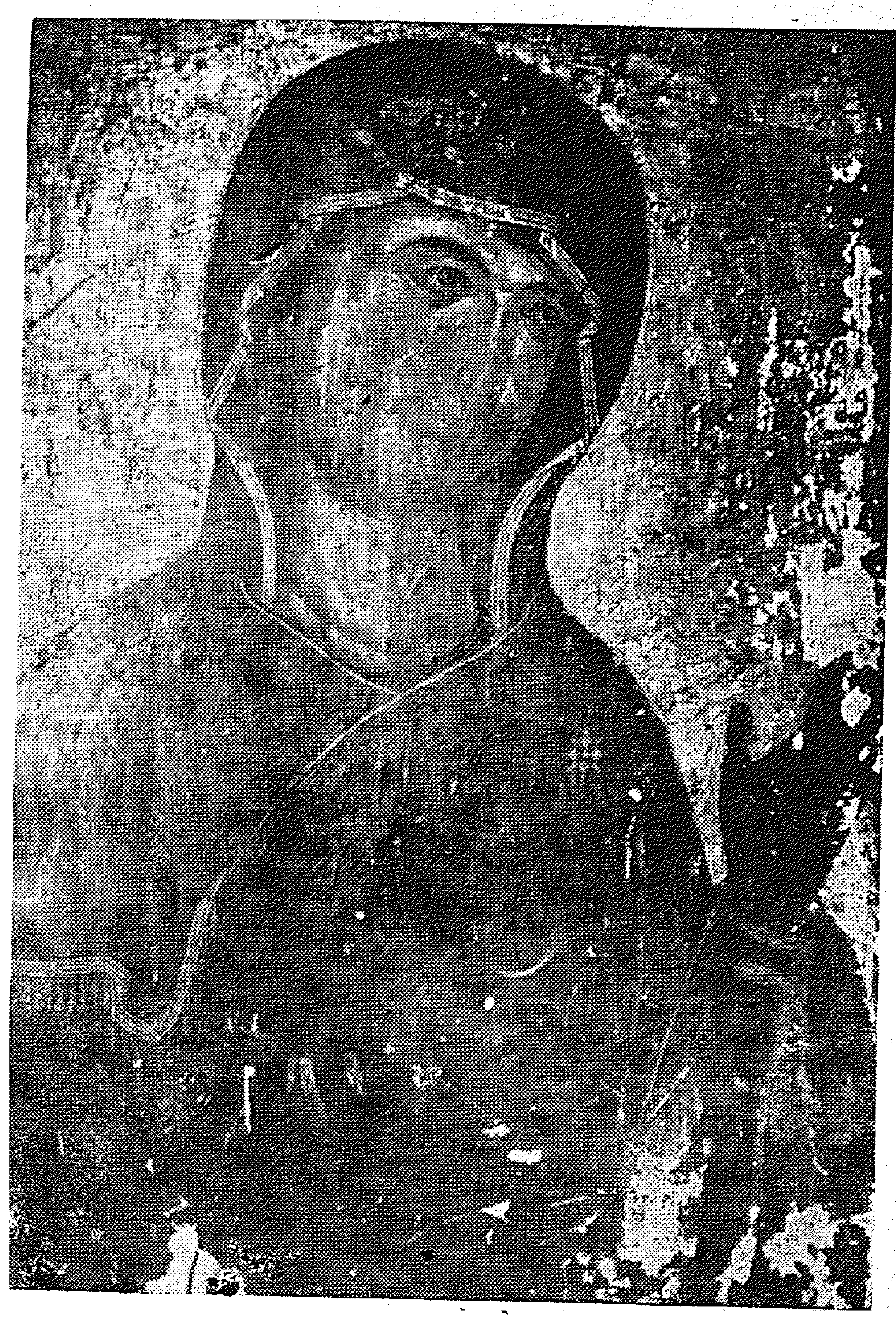


منظر داخلي لهيكل كنيسة العذراء
بدير السوريان

حيث انحاز يوحنا أسقفها إلى جانب نسطور ، وظل كذلك حتى عقـــد الصلح مع البابا كيرلس الكبير سنة ٤٢٣ م ووافق على قرارات مجمع أفسس . على أن المهم فى هذا كله هو أن بابا الاسكندرية أفلح فى تنصيب أحـــد أتباعه وهو مكسيميانوس بطريركا على القسطنطينية بعد صدور أمر الإمبراطور بعزل نسطور ونفيه .

وبعد هذا كله عاد كيرلس الكبير ومعه بعثة الرهبان ، ليرعى الحركة العلمية فى الكنيسة ، هذه الحركة التى شملت العلوم الكنسية وبالأخص علوم اللاهوت ، والطقوس الكنسية ، وتفسير الكتاب المقدس إلى جانب الترجمة ، وهذه الحركة العلميـة بدأها كيرلس منذ أن تتلمذ على أيدى رهبان وادى النطرون . وصار لهـــذه الحركة العلمية أثرها فى انتعاش الثقافة القبطية فى عصره ، وتردد صدى هـــذه الحركة العلمية فى كل مصر وفى المجامع الرهبانية والأديرة وخاصة الأديرة التى أسسها الأنبا شنوده ، الذى أصدر أوامره بتحريم استخدام اللغة الأغريقية وهى لغة الحكام ، الذين استعمروا مصر ، وصار هذا كله مظهراً من مظاهر الوعى القومى فى البلاد ظهرت آثاره فى المقاومات والثورات المستمرة التى اشتعلت فى طول البـــلاد وعرضها مطالبة بالتحرر من ربقة المستعمر[٢] .

على أنه بقدر ما نشطت الحركة العلمية — وخاصة العلوم اللاهوتية — فى مصر للرد على بدعة نسطور أو لحماية الناس من الهرطقة بقدر ما بدأت الشكوك تساور الكثيرين فى القسطنطينية



صورة أثرية للسيدة العذراء بدير السوريان
وهي مأخوذه عن صورة برسم لوقا الانجيلي الطبيب محفوظة بالقدس

من جهة الإيمان ، بسبب صدى تعاليم نسطور ومن بقى من أتباعه . وربما كان رد الفعل أن نادى أوطاخى وهو رئيس دير بقرب القسطنطينية بأن للمسيح طبيعة واحدة حتى بعد التجسد وليست طبيعتين متحدتين ، غير أنه أضاف إلى قوله هـذا أن طبيعة الناسوت تلاشت فى الطبيعة الإلهية فصار المسيح بطبيعة واحدة ممتزجه . وفى هـذا الوقت كان على كرسى القسطنطينية البطريرك النسطورى فلافيان الذى انتهز هذه الفرصة وأسرع بإصدار قراره سنة ٤٤٨ م بحرمان أوطاخى ونفيه باعتبار أن هذه التعاليم مخالفة لتعاليم كنيسة القسطنطينية .

وصار قرار حرمان أوطاخى فى هذه الظروف وصمة عار على اثنين من أكبر آباء الكنيسة القبطية وهما اثناسيوس وكيرلس الكبير ، وذلك بسبب ما دافع به أوطاخى عن نفسه بأن رأيه ليس جديداً لأن أثناسيوس قال أن المسيح من طبيعة متجسدة واحدة « للإله الكلمة » كما قال أن البابا كيرلس الكبير كثيراً ما ردد هذه العبارة(٣) .

واستطاع كريسافيوس Chrysaphius وزير الإمبراطور تاودسيوس الثانى أن يؤثر على الإمبراطور حتى وافق على رجاء البابا ديسقوروس بابا الاسكندرية وقتذاك بضرورة وضع الأمور فى نصابها ، بعقد مجمع مسكونى يفصل فى الخلافات المذهبيـة الناشبة كما تقرر أن يكون مكان هذا المجمع بالفعل فى أفسس وأسندت رئاسته إلى البابا ديسقوروس .

وفى هذا المجمع الذى التأم شمله فى أفسس سنة ٤٤٩ م حضر

أوطاخى ودافع عن مبدأ الطبيعة الواحدة وحذف اعتقاده بأن المسيح طبيعة واحدة ممتزجة . فتقرر صحة ما نادى به أوطاخى واعتبار قرار حرمانه من فلافيان باطلا ، وزاد على ذلك أن قرر المجمع ضرورة إبعاد فلافيان لمخالفته تعاليم مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م .

ورغم هذا الانتصار الذى أحرزه ديسقورس فإنه لم يقدر لكنيسة الاسكندرية الهدوء ؛ ذلك أنه بوفاة الإمبراطور تاودسيوس الثانى اعتلى ماركيان العرش، وكانت زوجته بولكاريا Pulcharia ترغب تماماً فى التحلل من سلطة كنيسة الاسكندرية التى زعمت بأنها كانت طاغية على أخيها الإمبراطور تاودسيوس الثانى ، وزاد هذا الزعم من مخاوفها بعد ظهور الاتجاه القومى فى داخل الأديرة — أن تتحول سلطة الكنيسة إلى سلطة مدنية قوية تتسبب فى ضياع مصر من يد الإمبراطورية البيزنطية ، وهى أخصب أراضيها وأوفرها ثروة .

واتخذت بولكاريا من الخلافات المذهبية وسيلة لفرض سيطرتها ، ولكسر قوة بابا الاسكندرية ، وما لبثت أن أعلنت مناصرتها لآراء البطريرك المعزول فلافيان ، وأنها ترى ضرورة الاعتراف بالطبيعتين ؛ كما أنها أجبرت البطريرك الأرثوذكسى (بطريرك جاثليق) الذى نصبه البابا ديسقورس فى القسطنطينية على رفض مبادىء مجمع أفسس . أما زوجها الإمبراطور مركيان فإنه انتهز فرصة العداء الموجود بين كنيسة الاسكندرية وكنيسة روما التى حاولت تزعم الكنائس وكتب إلى البابا ليو بابا روما ،

يدعوه لحضور مجمع فى خلقيدونية لمناقشة هذه الخلافات .

ولعل أول انتصار أحرزه مركيان أن جعل الرئاسة فى هذا المجمع الكنسى الذى عقد فى خلقيدونية سنة ٤٥١ م فى يده . ورغم أن ديسقوروس دافع عن المبدأ الأرثوذكسى فى القول بأن المسيح « الكلمة المتجسد » طبيعة واحدة حتى بعد التجسد ؛ فإن مندوب بابا روما بمعاونة رجال البلاط القسطنطينى قرروا خلع ديسقوروس ، ونفيه إلى جزيرة غاغرا حيث قضى باقى أيامه . وصار لهذا القرار القاسى نتائج متعددة ، إذ رفض أقباط مصر قرارات مجمع خلقيدونية ، كما رفضوا الاعتراف بخليفة ديسقوروس ، وهو بروفيروس ، البطريرك النسطورى المذهب الذى عينه الأمبراطور مركيان على كرسى الاسكندرية وأعلنوا تمسكهم التام ببطريركهم الأنبا ديسقوروس رغم وجوده فى النفى .

وهكذا نلاحظ كيف اندفع مندوبو ليو بابا روما فى الاتفاق مع الإمبراطور مركيان على نفى ديسقوروس ، رغم أنهم لم يثبتوا على ديسقوروس سوى استخدامه القوة فى معاملته لفلافيان ، غير أن الهدف الأساسى هو رغبة ماركيان وزوجته فى الإقلال من شأن كنيسة الاسكندرية ، وكذلك رغبة ليو فى إحراز السبق على كنيسة الاسكندرية ، حتى أنه فى سبيل هذا الهدف ، اندفع إلى اتخاذ مبدأ يشابه مبدأ نسطور ، أى مبدأ الطبيعتين ، أساساً للإيمان فى كنيسته ؛ وأوجد بهذا انقساماً صارخاً فى الكنيسة . وصار لكنيسة روما إيماناً يختلف تماماً عن إيمان الكنيسة القبطية ، ذلك الإيمان الذى تمسكت به الكنيسة القبطية ودافعت

عنه دفاعاً جعل لها شخصيتها الواضحة وسط الكنائس الخارجة عليها . حتى أننا إذا تحدثنا عن الكنيسة القبطية ، فإننا لا نقصد بابا الإسكندرية ورجال الاكليروس فيها لحسب بل نقصد جميع الأقباط الذين يمثلون فى عرف العقيدة الأرثوذكسية الكنيسة المقدسة الجامعة الرسولية ، ولهذا فلا عجب أن زادت كراهية الأقباط للإمبراطور البيزنطى، كما وضحت الروح القومية فى الداء الصارخ لرجاله الذين نصبهم فى مصر لجباية الضرائب .

وثمة نتيجة أخرى فى غاية الأهمية ، وهى أن مجمع خلقيدونية صار نقطة تحول فى تاريخ الكنيسة القبطية ، ذلك أن هـــذه الكنيسة بعد أن كانت فرعاً أو جزءاً فى هذا التنظيم الكنسى الكبير ، وهو تنظيم كانت له صورته الدولية ، أصبحت بعـــد سنة ٤٥١ م منفصلة عنه ، وأصبح لها شخصيتها القومية المميزة ، ألا وهى شخصية الكنيسة القبطية ، وحل هـــذا الاسم محل اسم الكنيسة الأرثوذكسية .

على أنه ليس معنى هذا أن هذا التحول حدث فجأة وإنما ظهرت مقدمات وقتذاك . وفى خلال فترة تحول الكنيسة إلى هذه الصورة القبطية أخذ الشعور الوطنى يظهر فى الفن . ومع ذلك الكفاح فلم يتم التحرر الكامل من المؤثرات الأجنبيـة إلى أن تمكن العرب من تخليص البلاد من كل ما هو مطبوع بالطابع الإغريقى [٤١] .

على أنه من أخطر النتائج أن مركيان أرسل إلى جميع الأديرة رسائله التى اشتملت على صورة من منشور البابا ليـو عن الإيمان بالطبيعتين وهو المعروف فى التاريخ باسم The Tome of Leo

وذكر السنكسار العربى تحت تاريخ ٢ أمشير أن لونجينوس رئيس دير الزجاج على مقربة من الاسكندرية قبل هذا المنشور ، وقد أعلن بهذا القرار كذلك رهبان الصحراء وخاصة فى وادى النطرون باعتبارهم أكبر مستعمرة رهبانية ، ورغم أنه لا يوجد ما يشير إلى موقف الرهبان من هذا المنشور ، فإنه من المقطوع به أن رهبان وادى النطرون انقسموا حيال هذا المنشور إلى فريقين ؛ الفريق الأول ، وهو أكثرهم ، عارض هذا المنشور وتمسك بالبطريرك ديسقورس ، على حين آثر الفريق الآخر ، وهم قلة من الرهبان ، التسليم بهذا المنشور .

غير أن الأمر لم يقف عند هذا الحد بل أن عدداً كبيراً من الرهبان صار فى حيرة من أمر هذه المشكلات المذهبية ، فآثروا هجرة وادى النطرون إلى أماكن أخرى لعلهم ينعمون فيها بحياة الهدوء النفسى ، وتسبب هذا الأمر فى ضعف عزيمة من آثر البقاء فى وادى النطرون ، حتى أنه فى سنة ٤٥٧ م حين أثار البطريرك الملكانى تيموثاوس الاضطرابات ، بسبب ضغطه المتواصل على رهبان وادى النطرون . نسمع عن هجرات أخرى منها هجرة الراهبين مارتيروس الكبادوكى والياس العربى، اللذين هربا إلى دير يوثيميوس Euthymius (٥) .

وتوجد قصة تدور حول قول مشهور للراهب فوكاس وهو من رهبان الإسقيط . ونستطيع من ثناياه أن ندرك الأحوال وقتذاك . ومن هذا قوله « عندما استقرت بى الأحوال فى الإسقيط كان يوجد راهب شاب إسمه الأنبا جيمس فى سليا (القلالى)

. . . . والآن سليا لها كنيستان إحداها للأرثوذكس حيث كنت إذهب والأخرى للمهرطقين ، ولما اشتهر به الأنبا جيمس من التواضع فإن الجميع أحبوه سواء الأرثوذكس أو غيرهم . وقد اعتاد الأرثوذكس مخاطبته بقولهم « إهرب يا أنبا جيمس وابعد حتى لا يضمك المهرطقون إلى جانبهم » ومثل هذا القول سمعه من الفريق الآخر فى قولهم « ينبغى أن تعلم يا أنبا جيمس أنك بتعاونك مع الخلقيدونيين ، فانك تقتل روحك لأنهم نسطوريون ، ويقلبون الحقيقة » وتمضى القصة فتقول أنه لما كان الأنبا جيمس بسيطاً فانه شعر بحيرة من القولين، فالتجأ إلى الله واختبأ فى مغارة هادئة بعيدة عن مجامع الرهبان ، ولبس ملابس الخدمة « التونية » استعداداً للموت ؛ وظل يصلى مدة أربعين يوماً ، وفى نهايتها رأى طفلا صغيراً يقول له بسرور عظيم « لماذا أنت هنا يا أنبا جيمس ؟ » وفجأة استنار الأنبا جيمس ولبس قوة من الأعالى ونطق بقوله « يا سيدى أنت تعلم ما أقاسيه من الحيرة ، فهؤلاء يقولون لى « لا تترك الكنيسة ، والآخرون يقولون : أن المجموعة الأخرى ستقودك للضلال ، وأنا فى حيرة . . . فأجابه السيد (الطفل) : أينما تكون فأنا معك ، وفجأة وجد الأنبا جيمس نفسه أمام أبواب الكنيسة الإرثوذكسية »

وتدلنا هذه القصة على وجود الفريقين فى صحراء القلالى ، كما تدلنا على أن كنيسة أخرى بنيت فى صحراء القلالى إلى جانب الكنيسة الأولى التى بنيت فى القرن الرابع الميلادى ، وصارت

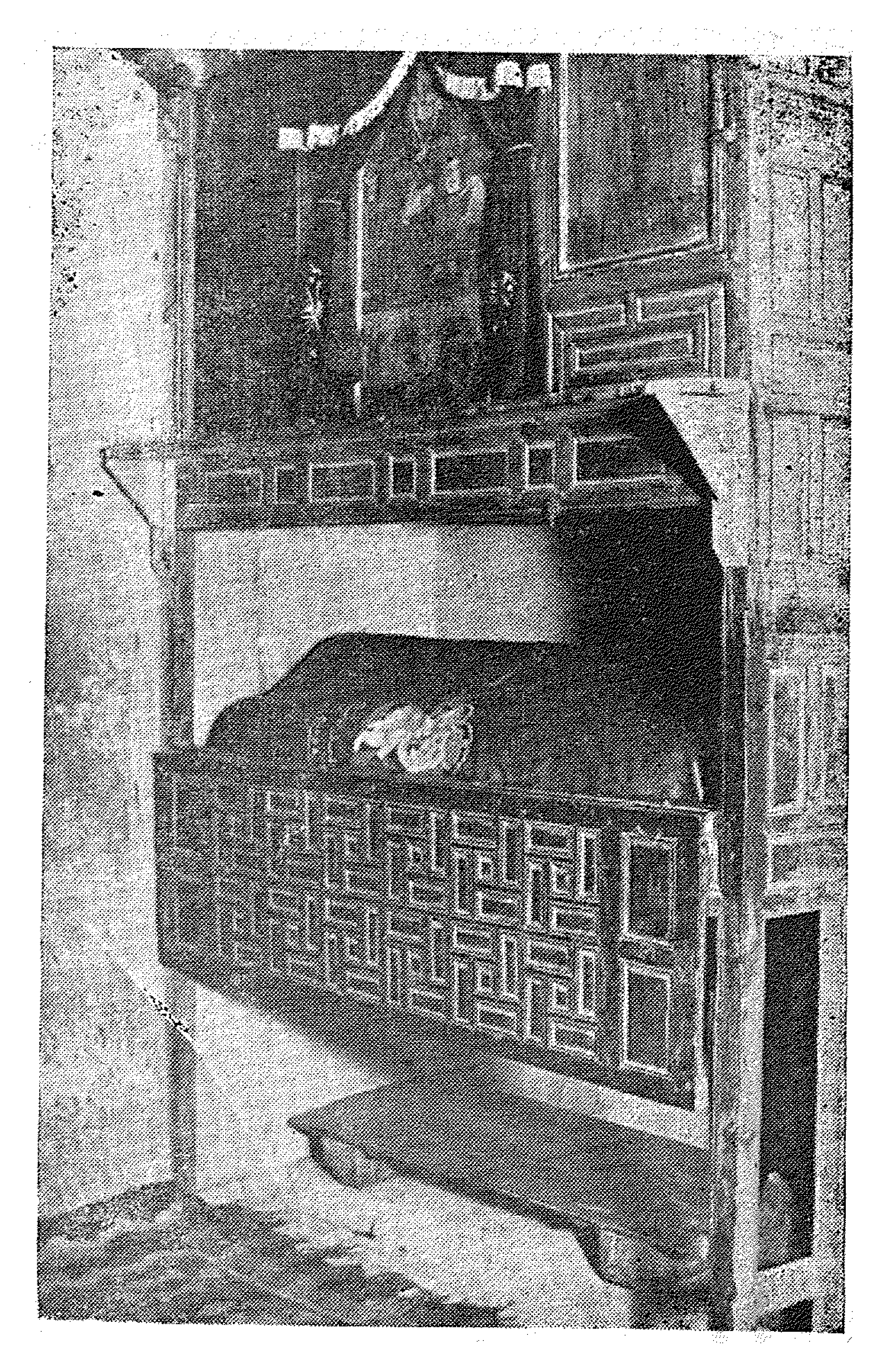
لاتباع المذهب النسطورى أو الملكانى ، كما تبين القصة أن صحراء القلالى التى امتلأت فى القرن الرابع الميلادى بالقلالى التى انتشرت فى مساحة كبيرة ، أصبحت قلاليها فى القرن الخامس الميلادى مركزه فى تجمعات رهبانية أو مجامع رهبانيه .

على أن روح الجماعة التى لاحظناها هنا لم تفد شيئاً ، بسبب غزوة البرابرة لهذه المنطقة ، وما سببته من ذبح تسعة وأربعين راهباً ، وهم الرهبان الذين رفعتهم الكنيسة إلى مرتبة الشهداء .

الامبراطور زينون والإسقيط : (برية شيهيت)

على أن الانقسام الذى نحن بصدده بين الملكانيين أى أتباع الامبراطور مركيان وهم أصحاب مذهب الطبيعتين ، وبين الأرثوذكس أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة ، لم يكن أمراً محزناً من وجهة النظر الكنسية فحسب ، بل شكل أيضاً خطراً سياسياً ، عادت الدولة البيزنطية إلى السعى للتخلص منه عن طريق القوة أحياناً والسياسة أحيانا أخرى . ومن هذه المحاولات لإزالة الخلاف ما قام به الإمبراطور زينون سنة ٤٨٢ م حين أصدر منشوره الذى أطلق عليه عدة الوحدة " The Instrument Of Union " .

ومع أن هـــذه الخطوة أملتها الظروف السياسية فإنه يقال أن الرهبان فى وادى النطرون كان لهم دور هام فى هذا المنشور ، إذ يقال أن الأنبا زينون كانت له ابنة راهبة فى برية شيهيت ، وهى هيلاريا ، وعن طريقها قدم الرهبان الأرثوذكس للإمبراطور التماساً لإعادة وحدة الكنيسة ، ووجد الإمبراطور فى هذا الاتجاه



انبوبة بها عظام الانبا يحنس كاما
وبعض القديسين بدير السوريان

فرصة لتحقيق أهدافه السياسية وإضعاف شأن الرهبان أو كسب ودهم، فأصدر المنشور المذكور الذى وردت به عبارات هى محاولات لحل المشكلة وهى « أن الابن متحد بالآب ، تبعاً لأصله الالهى (لجوهره) ومتحد بالبشر تبعاً لبشريته ، كما أنه تجسد بالروح القدس من العذراء مريم والدة الإله ، وهو ابن واحد لا غيره ، وهذا الواحد هو الابن الوحيد لله ، الذى صنع المعجزات كما أن التجسد (بدون دنس) من جانب العذراء ، لم يسبب وجود الابن لأن الثالوث أزلى غير متغير حتى عندما تجسد الواحد الله الكلمة »[٦١].

غير أن هذا المنشور لم يؤد إلى حسم المشكلة ، وإن كان الارثوذكس اعتبروه نصراً لهم من الوجهة المذهبية والسياسية ، وعاد البابا بطرس مونجوس السابع والعشرين إلى كرسيه ، كما عاد الوئام مع كرسى القسطنطينية . وتمكن الأنبا بطرس من طرد عدد كبير من الرهبان الملكانيين من الاديرة بالاستعانة بتأييد الامبراطور زينون ، حتى أن زينون رفعته الكنيسة إلى مرتبة الأباطرة الاتقياء فى تاريخ الكنيسة القبطية ، وبلغت شهرة الامبراطور زينون أن السنكسار العربى ذكر تحت تاريخ ٢١ طوبه وفاة هيلاريا ابنة زينون فى شيهيت ـ وهيلاريا هذه رهبنت فى برية شيهيت على يد الأنبا بامو ، وذكر كذلك أن أخت هيلاريا مرضت حتى أوشكت على الموت ، فنصح الإمبراطور بإرسالها إلى برية شيهيت ، حيث وضعت إلى جوار تابوت هيلاريا فبرأت من مرضها ، وعادت إلى القسطنطينية ، ودهش الامبراطور لهذه النتيجة ، وقيل أنه أصر أن يرسل إلى رهبان

برية شيهيت كل عام ثلاثة آلاف أردب قمح ، وستمائة مكيال زيت . غير أن القصة السابقة يشوبها بعض الشك فى أن زينون لم تكن له بنات . على أن هذه القصة إن دلت على شيء فإنما تدل أولا على أن عدد الرهبان زاد وقتذاك وأن البابا الارثوذكسى عاد له نفوذه حتى نسمع كثيراً عن استمرار إرسال بعض الأباطرة ، من بعد زينون الهدايا والمنح للرهبان حتى الفتح العربى لمصر ، بل استمر بعد الفتح العربى ، حتى أن المقريزى ذكر أن عمر بن الخطاب أمر باعطاء رهبان الدير عطايا سنوية . وتضيف أكثر المراجع ، إلى ما ذكر أن الحركة الرهبانية انتعشت ، كما تحولت بعض الجامع إلى حياة ديرية ، وزادت المعونات التى أرسلتها القسطنطينية إلى مجامع الرهبان وخاصة من مواد البناء [٧] ، كما تذكر أن كنيسة الأنبا مكاريوس بنيت وقتذاك ، أى أواخر القرن الخامس ، فى وادى هبيب ، وهذا معناه أيضاً أن الحياة الديرية بدأت فى الظهور فى هذا القرن .

هرطقة يوليان :

على أن الانقسام الذى تعرضت له الكنيسة القبطية بين الارثوذكسية وهى ما عرفت أحياناً (بالمونوفيزيه) وبين الملكانيين، يعتبر أهم حدث فى تاريخ المسيحية الأولى فى مصر حتى تأثر الإسقيط بهذا الانقسام .

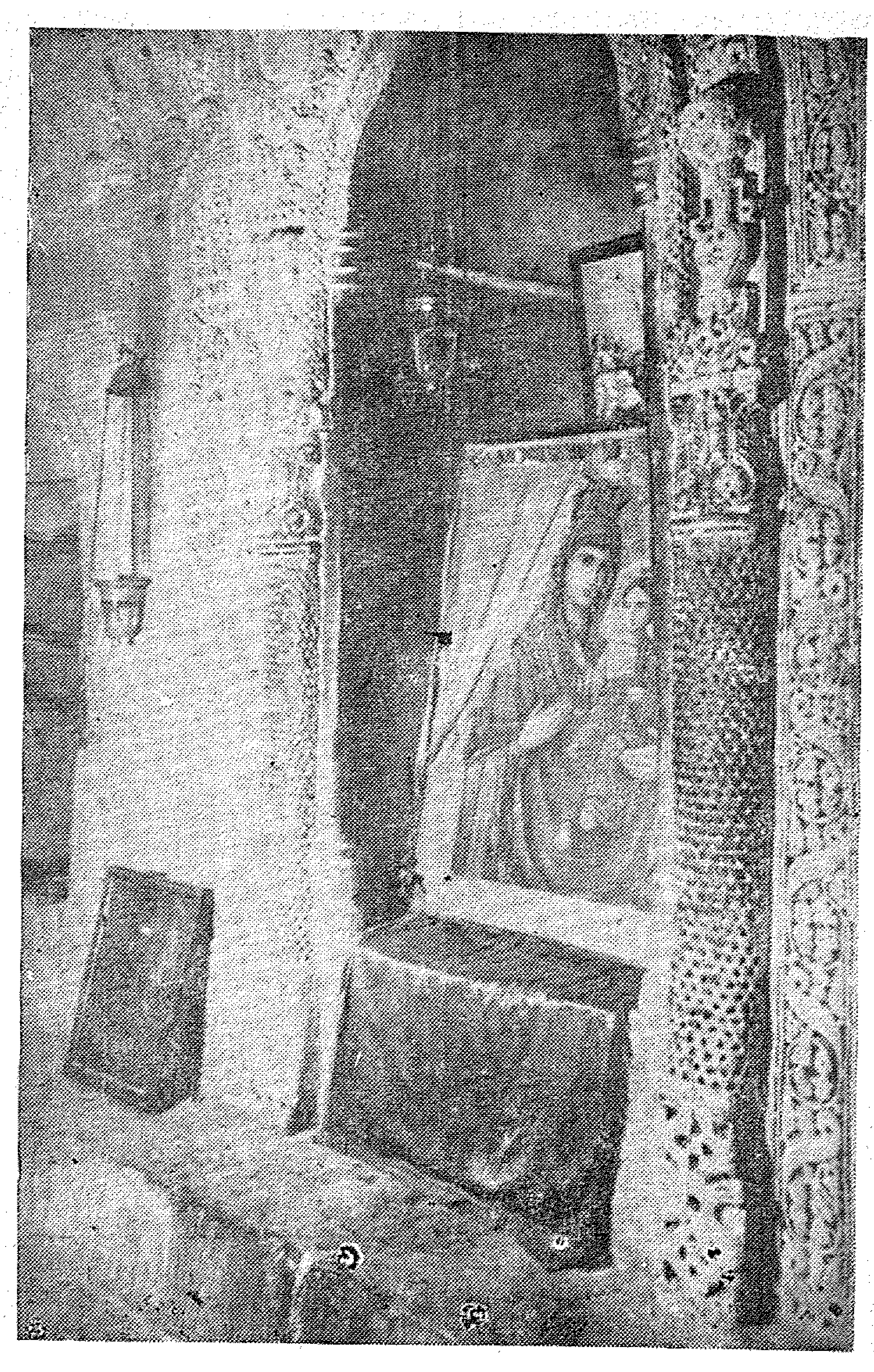
وفى سنة ٥١٨ م التجأ ساويرس بطريرك انطاكية الذى بدأ يتقرب إلى كنيسة الاسكندرية ويؤمن بعقيدتها ، وكذلك يوليان

أحد الرهبان الذى كان قبلا أسقفاً فى Halicarnasus * وقد هرب الاثنان من بطش الامبراطور جستنيان ، ومعهم جمع من الاساقفة وظلوا يتنقلون من مدينة إلى مدينة ومن دير إلى دير. وكاتب ساويرس الاساقفة فى الاسكندرية يعزيهم ويوصيهم أن يثبتوا فى الشدائد بشجاعة ،وذلك فى مدة بطريركية الأنبا تيموثاوس الثانى والثلاثين . غير أن يوليان انتهز فرصة غياب الأنبا ساويرس وكتب طوماراً (منشوراً) شرح فيه أمانة أوطاخى وأبوليناريوس ومانى والكسيس وملأه بآراء حول جسد المسيح وأنه « فنى » ، وبعث به إلى رهبان البرية فقبلوه ووقعوا فى حيلته باعتباره ممن قبلهم البابا تيموثاوس ، إلا سبعة رهبان ، ذكر تاريخ البطاركة أن الله أضاء قلوبهم فلم يقبلوه ، وأضاف تاريخ البطاركة أنهم سمعوا صوتاً يقول « هذا الطومار نجس » فقام عليهم الذين وقعوا فى ضلالة يوليان وقتلوا منهم اثنين فتفرقوا ، وصاروا يصلون القداس فى قلاليهم بدير أبى مقار وغيره .[٨]

ونخلص مما ذكره صاحب تاريخ البطاركة أن يوليان هذا كان ممن اشتركوا فى مجمع خلقيدونيه ، الذى نادى بمبدأ الطبيعتين . وتضيف هذه القصة كيف هاجم من اعتنق مذهب يوليان المجامع الرهبانية ، والحقوا الأذى بالرهبان . وقد دفع هذا العمل ساويرس إلى كتابة خطابات ، لدحض هرطقة يوليان ، كما ذكر السنكسار العربى تحت تاريخ ٥ بابه أن ساويرس انتقل إلى

---

* ميناء فى أرخبيل اليونان .



مقصورة السيدة العذراء بدير السوريان
لاحظ دقة النقوش حول المقصورة

بريةشيهيت . كما ذكر فى تاريخ البطاركة أنه استعان بارستوماخس والى مصر لدفع خطر يوليان، ولتمكين البقية الباقية من رهبان شيهيت من إعادة تعمير كنائسهم وبناء حصونهم ودفع خطر أتباع يوليان . ويبدو أن أرستوماخس ساعد ساويرس كثيراً فى هذا الشأن ، حتى أنه بنى كنيسة خاصة فى وادى النطرون قبلى كنيسة مكاريوس الكبير . ويقدر تاريخ بناء هذه الكنيسة بنحو سنة ٥٣٥ م ، حيث ذكر أن الذى كرسها هو البطريرك الأنبا تيودوسيوس الثالث والثلاثين ، الذى جلس على الكرسى السكندرى فى هذا العام .

على أن المهم فى بناء هذه الكنيسة الثانية إلى جوار كنيسة القديس مكاريوس ، إلى جانب ما ذكرته كل المراجع المتأخرة عن وجود كنيستين فى كل دير فى القرنين الخامس والسادس الميلادين ، وأن كل كنيسة جديدة دشنت على اسم السيدة العذراء ، هذا كله يبين الاتجاه إلى الحياة الديرية ، كما يوضح مدى الاهتمام بالوعى الدينى بين الرهبان ، لدحض البدع ومنها بدعة نسطور فى مناداته بأن العذراء ليست أم الإله ، والشيء الثالث ، أن بناء هذه الكنائس على اسم السيدة العذراء هو لدحض بدعة اليوليانيين الذين أنكروا حقيقة التجسد وحطوا من كرامة العذراء مريم .

برية شيهيت وكرسى الاسكندرية فى القرن السادس :

على أن ثمة نتيجة هامة لاضطهاد الإمبراطور جستنيان لأقباط مصر

الأرثوذكس هو هروب الأقباط إلى برية شيهيت ووادى النطرون. وحين زاد اضطهاد الامبراطور وتعيينه بطاركة من الملكانيين ، بدأ البابوات الأرثوذكس فى الهروب إلى دير القديس مكاريوس. وبلغ الاضطهاد أشده حين ذبح عدد كبير من الأقباط الذين رفضوا الانصياع لمذهب الامبراطور ، وقدر المقريزى هؤلاء بألفى نسمة . ومهما يكن من شيء صار البطاركة يتنقلون من دير إلى دير ، طلباً للنجاة ، وتشجيعاً للمؤمنين والثابتين على الإيمان الارثوذكسى ، حتى استقر المقام ببطريرك الاسكندرية فى دير أبى مقار ، الذى اجتمع فيه عدد كبير من هؤلاء الهاربين . وظل البطاركة فى دير أبى مقار حتى سنة ٦٠٥ م ، حيث خاطر الأنبا انستاسيوس ، ودخل إلى مقر كرسيه بالاسكندرية بعد أن منع جستنيان دخول البطاركة الأرثوذكس اليها . وقد احتل دير أبى مقار أهمية كبيرة فيما بعد حتى أن المقريزى ذكر أن البطريرك ، لم يكن يعترف ببطريركيته ، ما لم ينصب فى كنيسة أبى مقار [٩] ، وصار هذا تقليداً ظل البطاركة يتبعونه فترة طويلة ، فيذهبون إلى هناك حتى بعد رسامتهم .

وهكذا أصبح دير أبى مقار المركز الرئيسى للكرازة المرقسية ، وأول من انتقل إلى هناك هو الأنبا دميان . على أن انتقال البطريرك دميان إلى هناك لم يكن بسبب اضطهاد جستنيان فحسب ، وإنما يضاف إلى هذا ما وجد من بدع جديدة انتشرت هناك مثل بدعة ميليتوس أسقف أسيوط ، وحين سمع الأنبا دميان بانتشار أصحاب هذه البدعة ، بين الرهبان ، بعث برسالة طلب

فيها طرد أتباع ميليتوس ، الذين اعتادوا شرب الخمر ليلا عدة مرات بل تجرأوا أن يتقدموا لتنـــاول الأسرار المقدسة فى اليوم التالى ، واندفعوا فى شرب الخمر ، ببدعة مؤداها أن السيد المسيح أعطى تلاميذه ليلة الصلب كأسين، الأول أعطاه دون أن يقول هذا هو دمى ، ثم أعطى الكأس الثانى وقال كلمته المأثورة « هذا هو دمى » . غير أنه رغم أن الأنبا دميان دحض هذه البدعة ، وقال أن تعاليم الرسل نفسها ، حرمت تناول أى طعام أو شراب قبل التقدم للأسرار الالهية ، فإن أتباع ميليتوس ، ظل عدد منهم على هرطقته فأصدر أمره بطردهم من المجـــامع الرهبانية والاديرة ، وسامح من ارتدع .

على أن برية شيهيت تعرضت بعد هذا كله لغارة أخرى من غارات البربر ، تركتها خراباً بعد أن ذبح البربر عـــدداً من شيوخهـــا ، ونهبوا أمتعتهم ، وأسروا بعضهم ، وباعوهم فى أسواق النخاسه . وقد أمكن تحديد تاريخ تقريبى لهـذه الغـارة بالاستعانة بعدة وثائق ، ذكر بعضـــا فى تاريخ البطاركة ، وكذلك اعتماداً على ما كتبه يوحنا موسخوس John Moschus الذى زار مصر بعد سنة ٥٧٨ م (١٠) ، ذلك أنه لم يذكر شيئـــاً عن زيارته لبرية شيهيت رغم أنه زار ترنوط والقلالى (سليا) ، وهذا دليل على خراب منطقة شيهيت . وربما كانت مخاطرة أن يزور بضعة الرهبـان الذين عادوا اليها بعد خرابها . علـى حين ذكر أنه قابل فى ترنوط تيودور الاسكندرى ، والاب إيرناوس ، وغيرهم ممن أخبروه عن غارة البربر ، وما فعلوه فيهم من التجريح

والقتل والبيع فى أسواق النخاسة ، وهكذا يمكن تحديد تاريخ الإغارة بين سنتى ٥٧٠ م ، ٥٧١ م . ويتفق مع هذا ميمر الأنبا دانيال القبطى ، إذ ذكر أن عودة الأنبا دانيال إلى الإسقيط كان عند موت جستنيان أى سنة ٥٦٥ م ومن المعروف أنه لم تمض عدة سنوات على عودة الأنبا دانيال إلى الإسقيط حتى هاجم البربر الأديرة ، كما يقال أن الانبا دانيال نفسه توفى بعد خراب الإسقيط (برية شيهيت) بوقت قصير ، وتحددت وفاته بحوالى سنة ٥٧٣ م . (١١)

موقف هرقل من الكنيسة القبطية وأثر ذلك فى وادى النطرون :

وإذا تركت غارة البرابرة برية شيهيت خراباً لفترة امتدت نحو نصف قرن ، فإن هذه الفترة يحيطها الغموض . على أنه من المحتمل أن عدداً قليلا من رهبانها عاد اليها بعد هذه الفترة غير أن هذا العدد لم يتمكن من إعادة الحياة الرهبانية فيها كما كانت قبل الغارة .

وفى سنة ٦٢٧ م جلا الفرس عن مصر التى عادت إلى حظيرة الدولة البيزنطية ، وآنذاك اقتنع هرقل أن إعادة الاقاليم التى مزقها الفرس من إمبراطوريته إلى تماسكها يمكن أن يتم بتسوية الخلافات المذهبية ، ورأى أن يركز تسويته على « وحدة المشيئة والعمل فى السيد المسيح » ، وترك جانباً مسألة الطبيعة أو الطبيعتين فى المسيح . وحتى يضمن لتسويته ـ بين الملكانيين والمونوفيزيين ـ النجاح سعى لتعيين سيرس Cyrus البطريرك

الملكانى على الاسكندرية سنة ٦٢٨ م [١٢] . وفى هذا الوقت كان البطريرك المونوفيزيتى (الارثوذكسى) على الاسكندرية هو البابا بنيامين الأول (٦٢٢م - ٦٦١م) ، وطبقاً لتاريخ البطاركة ، أوحى اليه أن يهرب حتى لا يقع تحت ضغط سيرس . ولذلك بعد أن حذر شعبه ورعاتهم من التهاون فى الإيمان الارثوذكسى، ترك الاسكندرية سنة ٦٣١م مشياً على الأقدام ، حتى وصل إلى « وادى هبيب » ، حيث كان عدد الرهبان قليلا فشجعهم ، ثم مضى إلى سبيله متجهاً نحو أحد الأديرة فى الصعيد ، حيث اختفى مدة عشر سنوات ، وكان موقف بنيامين فى هذا موقفاً مسالماً خشيه حدوث الاضطرابات ، التى قد لا يحمد عقباها ، نتيجة هذه التسوية التى لن يقبلها شعب الاسكندرية بالمرة .

والمتتبع لتاريخ الكنيسة القبطية فى هذه الفترة بالذات ، يلمس أن الكنيسة القبطية الارثوذكسية فى مصر كانت الداعى الأول للمحافظة على وحدة الكنيسة ، لا سيما منذ مجمع نيقيه ، ولا عجب أن نلمس كذلك كيف شعر بطاركة الاسكندرية بعطف العالم المسيحى عليهم وتقديره لعلمهم ونبوغهم ، حتى أن كنيسة روما نظرت وقتـــذاك إلى كنيسة الاسكندرية بعين الاجلال والاعتبار . غير أن انتقال الكنيسة منذ مجمع خلقيدونيه إلى الاطـار القومى ، مع الشعب المتحمس للتخلص من نير الاحتلال البيزنطى دفع البطاركة إلى العمل بالاشتراك مـــع الشعب للتخلص من نير الامبراطورية البيزنطيـــة بصرف النظر عن النواحى الدينية ، حتى أن البطريرك ديسقورس طالما صرح بقوله « إن البـلاد لى أكثر مما هى للأباطرة ، وإنى أطالب بالسيادة على مصر، ومن أجل

هذا أعلن الشعب القبطى بزعامة الرهبان الأقباط ، أن البطريرك سيرس Cyrus ، الذى عينه الإمبراطور هرقل قبيل الفتح الاسلامى ، هو عدو المسيح وأنه صنيعة القسطنطينية والامبراطور البيزنطى ، وأنه يحاول فرض سيطرة الإمبراطورية على البلاد عن طريق فرض الآراء والمذاهب المستوردة ، ولا عجب أن علق على الموقف الأسقف يوحنا النقيوسى الارثوذكسى المذهب بقوله « لنمجد سيدنا يسوع المسيح ، ولنسبح اسمه القدوس ، فى كل وقت ، لأنه حمانا نحن المسيحيين حتى هذه الساعة من ضلال الوثنيين المرتدين ومن انهزام الملحدين الخونة » (١٣)

أما سيرس فانه عقد بمجرد وصوله سنة ٦٣١ م إلى الاسكندرية مجمعاً ، حيث وضع مشروعاً من تسعة مواد للتسوية المقترحة على أساس أن للمسيح مشيئة واحدة Monothelite ثم كتب بهذا وثيقة ، بعث بها إلى أديرة وادى النطرون ليوافقه عليها الرهبان . وآنذاك كان الأنبا بنيامين فى مخبئه بالصعيد ، واستطاع سيرس أن يحتل كرسيه ، وبفضل تأييد السلطات الزمنية له ، بعث بهذه الوثيقة مع وفد إمبراطورى أيده بعدد كبير من الجند . ومؤدى هذه الوثيقة طلب الرهبان الاعتراف بقرارات مجمع خلقيدونيه ، كذلك قرار البابا ليو Tome Of Leo . وحين وصلت هذه الحملة إلى دير القديس مكاريوس الكبير تصدى لها الأنبا صموئيل القلمونى ، الذى كان كاهناً ورئيساً لهذا الدير وقتذاك ، بل أنه أعلن حرم كل من نادى بها ، ثم مزق هذه الوثيقة ، مما كان سبباً فى وقوعه هو ورهبانه تحت عقاب رجال الإمبراطور هرقل . واضطر أن يهرب هو ومن معه جنوباً بين حى وميت ،

حتى وصل إلى صحراء الفيوم ، حيث أقام بها ديراً لا زال يحمل اسمه للآن ، كما فر بعض الرهبان إلى دير نهيا التابعة لمدينة امبابه الحالية — محافظة الجيزة — على أن هذا كله لم يمنع رضوخ بعض الرهبان الذين آثروا السلامة الجسدية وقبولهم للوثنية ، وهؤلاء عاشوا باقى حياتها فى أديرة وادى النطرون[١٤] .

وخلاصة هذا كله ، يمكن القول أنه رغم كل هذه الاضطهادات ، فإن الحركة الرهبانية والديرية انتعشت وقتذاك فى مصر بوجه عام ، وفى أديرة وادى النطرون على وجه الخصوص ، حيث صار دير القديس مكاريوس الكبير مقر الرئاسة الدينية . وفى هذا الوقت أيضاً كانت الأديرة المحيطة بالاسكندرية تزدحم بالرهبان . وقد ذكرت المراجع كذلك استمرار الحياة الرهبانية إلى جانب الحياة الديرية . وقد أوضح يوحنا موسخوس John Moschus أن المجامع الرهبانية الأربعة فى وادى النطرون هى التى تطورت فى القرنين الخامس والسادس ، إلى الأربعة أديرة المعروفة ، وأن هذا لم يمنع من وجود الحيـــاة الرهبانية الانفرادية . غير أن الذى أدخل على مبانى الأديرة مما لم يكن معروفاً فى القرن الرابع الميلادى هو الأبراج ، والحصون الضخمة ، التى استخدمت كملجأ يهرب اليه الرهبان عند هجوم الأعداء ، وذلك مثل ما حدث فى غارات البرابرة التى حدثت فيما بعد .

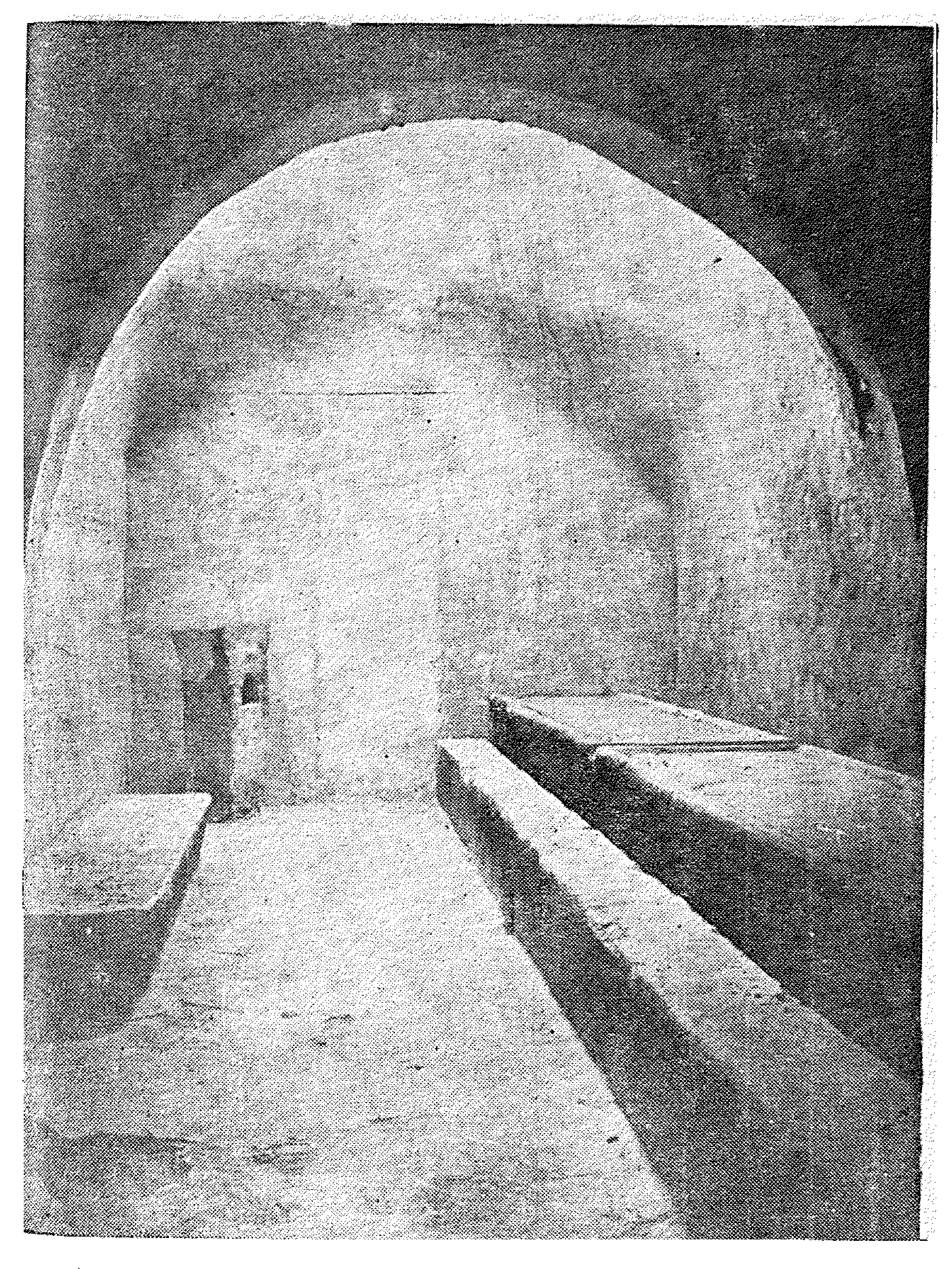
ومما حدث من تطوير أيضاً ، هو حرص الرهبان أو الديريين فى جميع الجماعات والأديرة على تعيين راهب كبير ، يحمل رتبة إيغومانوس أى « قمص » وصارت وظيفته قيادة الرهبان فى الصلاة

العامة وهذا دلالة على اتجاه الرهبنة إلى العمل فى إطار الكنيسة بشكل واضح . كما تولى هذا الراهب الكبير استقبال الضيوف ، وإرشاد الرهبان الجدد إلى طريقة الحياة الرهبانية ، كما كان عليه أن يتزود بنصائح البطريرك لإفادة الرهبان بها ولتدعيم الصلة بين المجامع الرهبانية والكنيسة ، فحرص على زيارته مرة على الأقل كل عام ، وغالباً تمت هذه الزيارة فى عيد الفصح (١٥) . على أن وجود هـذا الراهب الكبير لم يمنع وجود شيخ لكل جماعة رهبانية صغيرة صار من أهم واجباته قيادة الجماعة فى الصلاة الجامعة .

على أننا لم نلمس شيئاً آخر من التغيير فى نظم الصوم أو الصلاة أو الملابس أو العمل اليدوى باعتبار أن الكنيسة القبطية كنيسة تقليـدية تهتم وتحافظ على التقليد ، ولكن الذى يستحق الذكر هو وجود ناقوس فى كل دير يدق ليدعو الرهبان إلى الصلاة . وكذلك تطورت صناعة السلال وازداد انتاجها لسهولة صناعتها وإمكان تصريفها .

الفتح العربى ووادى النطرون :

لم يكن شعور المصريين نحو الفتح العربى شعوراً عدائياً ، وإنما استقبل المصريون هذا الفتح بشىء من الارتياح ، وذلك بسبب المظالم التى رزح تحت عبئها المصريون فترة طويلة من جور الحكام البيزنطيين ، فضلا عما حصل عليه المصريون من العهد العمرى بالأمان والحياة السالمة . ثم أن الفتح العربى عاون كثيراً



صالة الطعام فى أحد الاديرة ويلاحظ فى مقدمتها المكان الذى يقف عنده راهب
يقوم ببعض القراءات الدينية أثناء تناول الطعام

على تخليص الكنيسة من منازعات الملكانيين أو الخلقيدونيين ، لأنهم ، على قلتهم ، اعتمدوا على سلطانهم ، الذى استمدوه من الدولة البيزنطية ، وهو الامر الذى أدى إلى هروب البطريرك الارثوذكسى بنيامين الاول إلى الصعيد ، ثم إلى دير القديس مكاريوس ، حيث سبقه إلى هناك أيضاً عدد كبير من أقباط مصر ، حتى صار هذا الدير مقر كرسى الاسكندرية[١٦] .

على أنه بقدوم عمرو بن العاص إلى مصر فاتحاً لها أرسل إلى الأنبا بنيامين أماناً فى سنة ٢٠ ه أمنه فيه على حياته وأمن المسيحيين جميعاً ، وطلب منه العودة إلى كرسيه وبسط يده فى كنائسه التى انتزعها الملكانيون منه[١٧] . وتحدث المقريزى عن خروج نحو سبعة آلاف راهب من وادى هبيب وفى يد كل منهم عكازه ، واتجهوا نحو طرانة لاستقبال عمرو بن العاص وهو فى طريق عودته من الاسكندرية إلى حيث بنى الفسطاط ، يطلبون منه أن يكونوا فى رعايته هم وأديرتهم ، ومع أن هذا العدد مبالغ فيه فإنه يدل على وجود نشاط رهبانى كبير فى هذه المنطقة ، ومهما يكن لم يتأخر عمرو بن العاص عن إجابتهم لمطلبهم وأعطاهم عهداً حفظوه عندهم ، كما ذكر المقريزى أن عمرو بن العاص تمشياً مع منح وعطايا زينون السابق ذكرها ، أمر بتنفيذ رأى الخليفة عمر بأن يخصص لهذه الأديرة دخل سنوى قدر بنحو خمسة آلاف أردب من حصيلة خراج الوجه البحرى .

وكيفما كان الأمر فإن سياسة العرب نحو القبط فى بداية الفتح كانت ودية للغاية ، وينهض دليلا على هذا أن عمرو أصدر

إعلانه أو أمانه المشهور يدعو فيه البطريرك بنيامين ليعود من مخبئه ليدير شئون كنيسته بالإسكندرية ، فعاد بنيامين سنة ٦٤٤ م وبدأ عمله بلم شعث الكنيسة التى فرقتها الاضطهادات السابقة(١٨) ولم ينس الأنبا بنيامين أن يمد يد البناء لأديرة وادى هبيب وسليا . وذكر المقريزى ، الذى نقل عن مصادر معاصرة موثوق بها ، أن البطريرك المذكور أعاد بناء أديرة أنبا بيشوى ودير العذراء فى وادى هبيب . كما ذكر تاريخ البطاركة أنه فى أيام البطريرك الأنبا أغاثون ، خليفة الأنبا بنيامين ، بنيت كنيسة حملت اسم القديس مكاريوس . ولا شك أن هذا كله أدى إلى إنعاش الحركة الرهبانية حيث أيدت المراجع هذه الزيادة فى عدد الرهبان ، وكذلك زيادة عدد القلالى وقتذاك .

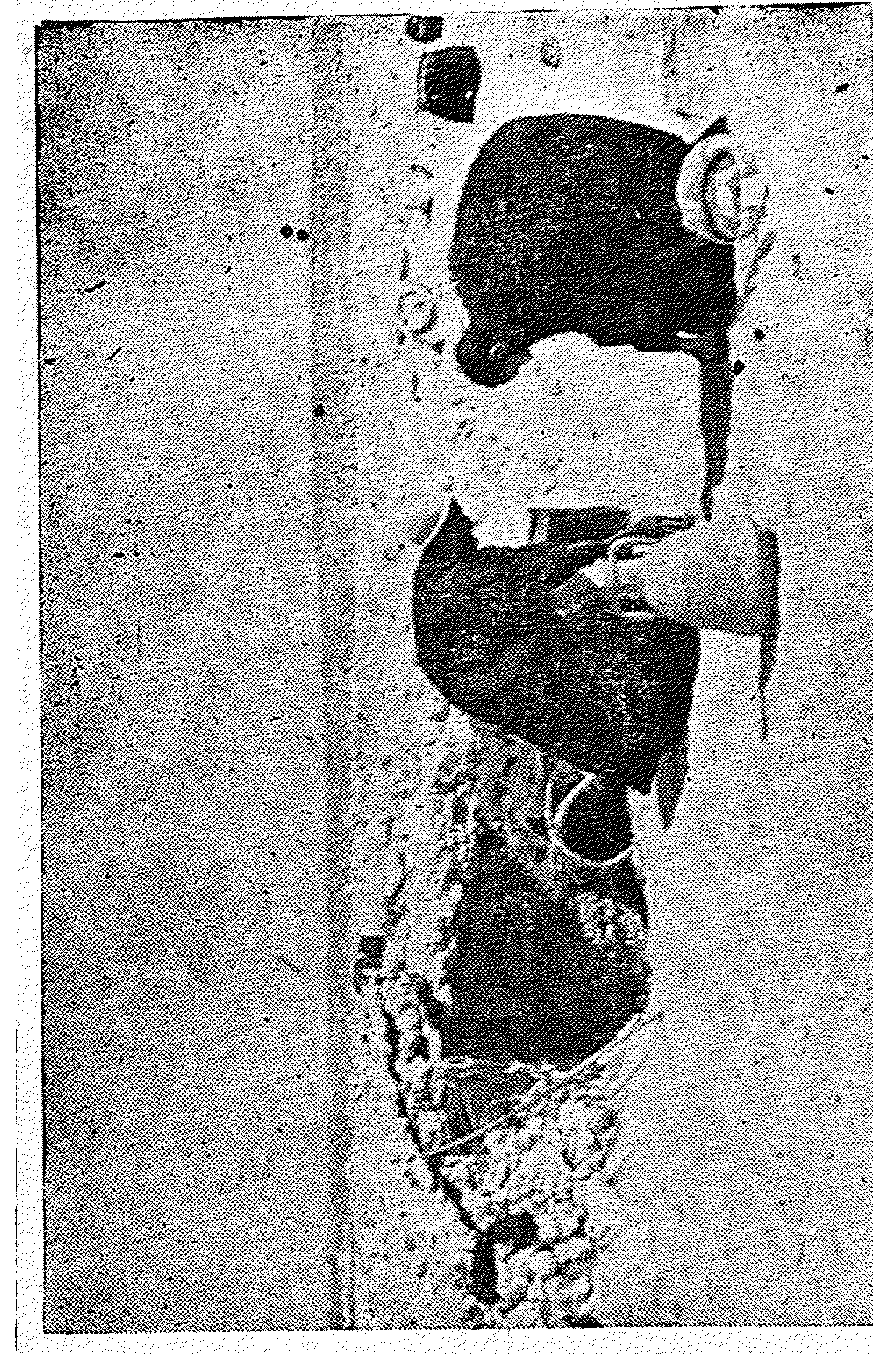
وتضيف المراجع كذلك أن الأنبا بنيامين بنى ضريحاً ، نقل اليه عظام تسعة وأربعين شهيداً ، قتلهم البربر من بين رهبان شيهيت ، واحتفل الأنبا بنيامين بهذه المناسبة احتفالا دينياً ضخما ، تخللته الترانيم والتسابيح بحضور الكثيرين من الرهبان والشعب(١٩)

على أن عودة الأنبا بنيامين من دير أبى مقار فى وادى النطرون لم يقلل من شأن هذا الدير فيما بعد ، بل ظل انتقال الباباوات إلى هذا الدير مرعياً فترة طويلة ، إذ نظر إليه باباوات الاسكندرية على أنه الحصن المنيع الذى طالما هرعوا اليه من اضطهاد الدولة البيزنطية فترك فى نفوسهم أثراً طيباً جعل البطاركة يحرصون على طبخ الميرون فى هذا الدير ، كما كان البطريرك المنتخب يمر فيه بحفلة تجليس ثانية . وتعود كثير من البطاركة الإقامة طوال فترة

الصوم الكبير وحضور صلاة عيد الفصح فى دير القديس مكاريوس .

على أن الاتجاه إلى تشجيع الرهبنة فى بداية الفتح العربى صار يهدف إلى رفع شأن الكنيسة ، حيث انبرت الرهبنة فى كل وقت لمحاربة كافة البدع والهرطقات ، ولعل فى هذا أيضاً ما ينفى القول القائل بأن الرهبنة كانت هروباً من الحياة الواقعية والمسئوليات ، بل لعل العكس هو الصحيح بعد هذا كله الذى سقناه ، فلم تقف الرهبنة مكتوفة الايدى أمام كل الهجمات ، التى تعرضت لها الكنيسة فى إيمانها ، ولهـــذا لا نعجب أن تطمئن الكنيسة إلى الرهبان فتختار منهم خدامها ورؤساء الكراسى الاسقفية والبطريركية نفسها .

ويكفينا القول أن المسيحية المصرية قبيل الفتح العربى لمصر إنما كانت أداة للتحرر السياسى والتخلص من نير الحكم البيزنطى وذلك بزعامة الرهبان الذين قدر لهم أن يحتلوا مراكز الصدارة فى الكنيسة القبطية .



لحظة لقاء الراهب مع أخيه المتوحد في مغارة بالجبل

مراجع وشواهد الفصل السادس

(١) كيرلس الأنطونى : عصر المجامع ص ٢٠٥ – ٢٠٨ .

(٢) White : The Hist. Of Monasteries of Wadie En Natroun V II PP. 218-220.

(٣) كيرلس الأنطونى . عصر المجامع ص ٢٠٧ – ٢٠٨ .

(٤) ورل : موجز تاريخ القبط ص ١٦١ .

(٥) White : OP. Cit. PP. 222-223.

(٦) ساويرس بن المقفع : تاريخ البطاركة ص ٣٥ .

(٧) نفس المرجع : ص ٣٦ .

(٨) نفس المرجع : ص ٣٨ .

(٩) راجع المقريزى : الخطط (المواعظ والاعتبار) جـ ٢ ص ٤٩٠ – ٤٩٢ .

(١٠) Cauwenberg : Etudes Sur Les Moines D'Egypte, P.P, 49-50.

(١١) White : OP. Cit. P 250.

(١٢) Cauwenberg : OP. Cit. P. 103.

(١٣) Zotenbergh, : Memoire Sur Le Chronique Byzantine De Jean, Eveque De Nikiou, P 587.

(١٤) Evetts & Butler : Churches & Monasteries Of Egypt Fol 63-66.

(١٥) Clugnet : Vie Et Ricits De L'Abbe' Danil Le Scétiot P 12.

(١٦) انظر بتلر : فتح العرب لمصر : ص ٣٥ ٤٠ .

(١٧) المقريزى : الخطط (المواعظ والاعتبار) جـ٢ ص٤٩١-٤٩٢ .

(١٨) ساويرس بن المقفع : تاريخ البطاركة ٤٩ .

(١٩) نفس المرجع ص ٥٠ – ٥١ .

ملاحق البحث

ملحق رقم ١

ما ذكره المقريزى عن أديرة وادى النطرون
(القرن ١٥ م)

وأما وادى هبيب وهو وادى النطرون ويعرف ببرية شيهات وبرية الإسقيط وبميزان القلوب فإنه كان بها فى القديم مائة دير ، ثم صارت سبعة ممتدة غرباً على جانب البرية القاطعة بين بلاد البحيرة والفيوم ، وهى فى رمال متقطعة وسباخ مالحة وبرارٍ منقطعة معطشة وقفار مهلكة ، وشراب أهلها من حفائر وتحمل النصارى اليهم النذور والقرابين ، وقد تلاشت فى هذا الوقت بعد ما ذكر مؤرخو النصارى أنه خرج إلى عمرو بن العاص من هذه الإديرة سبعون ألف راهب بيد كل واحد عكاز ، فسلموا عليه وأنه كتب لهم كتاباً هو عندهم .

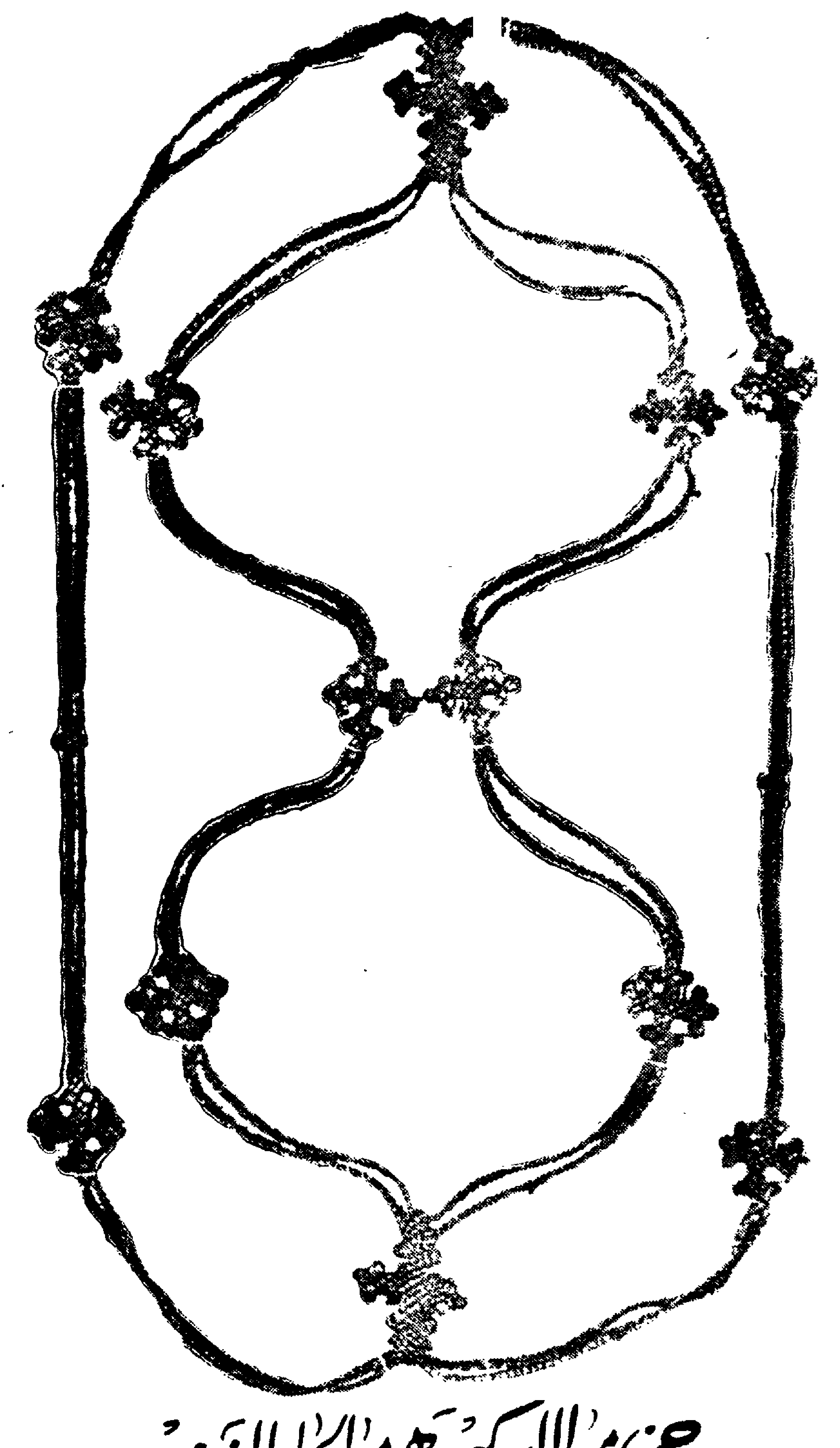
(فمنها دير أبى مقار الكبير) وهو دير جليل عندهم وبخارجه أديرة كثيرة خربت ؛ وكان دير النساك فى القديم . ولا يصح عندهم بطركية البطرك حتى يجلسوه فى هذا الدير بعد جلوسه بكرسى اسكندرية ، ويذكر أنه كان فيه من الرهبان ألف وخمسمائة لا تزال مقيمة به وليس به الآن إلا قليل منهم . والمقارات ثلاثة أكبرهم صاحب هذا الدير ، ثم أبو مقار الاسكندرانى ثم أبو مقار الاسقف ، وهؤلاء الثلاثة قد وضعت أجسادهم فى ثلاث أنابيب من خشب ، وتزورها النصارى بهذا الدير وبه أيضاً

الكتاب الذى كتبه عمرو بن العاص لرهبان وادى هبيب بطرانة نواحي الوجه البحرى على ما أخبرنى من أخبر برؤيته منـــه .
(أبو مقار الأكبر) هو مقاريوس أخذ الرهبانية عن أنطونيوس وهو أول من لبس عندهم القلنسوة والاسكيم ، وهو سير من جلد فيه صليب يتوشح به الرهبان فقط ، ولقى أنطونيوس بالجبـــل الشرقى من حيث دير العزبة وأقام عنده مدة ثم ألبسه لباس الرهبانية وأمره بالمسير إلى وادى النطرون ليقيم هنـــاك ففعل ذلك ، واجتمع عنده الرهبان الكثيرة العدد وله عنـدهم فضائل عديدة منها ، أنه كان لا يصوم الأربعـــين إلا طاوياً فى جميعها لا يتناول غذاء ولا شراباً البته مع قيام ليلها .

وكان يعمل الخوص ويتقوت منه وما أكل خبزاً طرياً فقط ، بل يأخذ القراقيش فيبلها فى نقاعة الخوص ويتناول منهـا هو ورهبان الدير ما يمسك الرمق من غير زيادة . هذا قوتهم مدة حياتهم ، حتى مضوا لسبيلهم . وأما أبو مقار الاسكندرانى ، فإنه ساح من الاسكندرية إلى مقاريوس المذكور ، وترهب على يديه ، ثم كان أبو مقار الثالث وصار أسقفاً .

(دير أبى يحنس القصير) يقـال أنه عمر فى أيام قسطنطين ابن هيلانه ، ولأبى يحنس هذا فضائل مذكورة ، وهو من أجل الرهبان ، وكان لهذا الدير حالات شهيرة ، وبه طوائف من الرهبان ، ولم يبق به الآن إلا ثلاثة رهبان .

(دير الياس) عليه السـلام وهو دير للحبشة ، وقد خرب دير يحنس كما خرب دير الياس ، أكلت الأرضة أخشابهما فسقطا ،



جزء من الاسكيم وهو من الجلد المضفور

وسار الحبشة إلى دير سيدة بويحنس القصير ، وهو دير لطيف بجوار دير بويحنس القصير ، وبالقرب من هذه الأديرة .

(دير أنبا نوب) وقد خرب هذا الدير أيضاً (أنبا نوب) هذا من أهل سمنود قتل فى الإسلام ووضع جسده فى بيت بسمنود .

(دير الأرمن) قريب من هــذه الأديرة وقد خرب .

وبجوارها أيضاً (دير بوبشاى) وهو دير عظيم عندهم من أجل أن بوبشاى هذا كان من الرهبان الذين فى طبقة مقاريوس ويحنس القصير ، وهو دير كبير جداً .

(دير بازاء دير بوبشاى) كان بيد اليعاقبة ثم ملكته رهبان السريان من نحو ثلثمائة سنة ، وهو بيدهم الآن ، ومواضع هــذه الأديرة يقال لها بركة الأديرة .

(دير سيده براموس) على اسم السيدة مريم ، فيــــه بعض الرهبان وبازائه (دير موسى) ويقال أبو موسى الأسود ، ويقال برموس وهذا الدير لسيده برموس ، فبرموس اسم الدير ، وله قصة حاصلها أن مكسيموس ودومادیوس کانا ولدى ملك الروم ، وكان لها معلم يقال له أرسانيوس فسار المعلم من بلاد الروم إلى أرض مصر ، وعبر برية شيهات (شيهيت) هذه وترهب وأقام بها حتى مات ، وكان فاضلا . وأتاه فى حياته ابنا الملك المذكوران وترهبا على يديه ، فلما ماتا بعث أبوهما فبنى على اسمهما كنيسة برموس ، وأبوموس الأسود كان لصاً فاتكا قتل مائة نفس ثم أنه تنصر وترهب وصنف عدة كتب ، وكان ممن يطوى الأربعين فى صومه وهو بربرى [1] .

---

(١) راجع المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٤٩١ — ٤٩٣

ملحق رقم ٢

من ترتيب قسمة الرهبان، والصلاة الخاصة برسامتهم

ينبغي لمن أراد أن يصير راهباً ، أن يقيم ثلاث سنين ، يتعلم شروط الرهبنـــة ، ويتعظ بالكمال من كتاب بستان آبائنا (آبائنا) لابسي الصليب ، ويرشد إلى الفلسفة الحقيقية . فاذا تما تحلق رأسه ، ويدعى فيمد على الأرض ، ورأسه نحو الشرق ، ووجهه مطامن إلى الأرض ، وثيابه مفروشة عليه ، وابتدىء وقل : إرحمنا يا الله ... ، ثم تقول صلاة الشكر ، وترفع البخور ، ويقال يارب إرحم ، وترتل هذه :

« نسجد للآب والابن والروح القدس الثالوث المقـــدس ، المتساوى الجوهر . السلام لك يا مريم ، الحمامة الحسنة ، التي ولدت لنا الله الكلمة . بشفاعات رؤساء الملائكة القديسين : ميخائيل وغبريال وروفائيل ، أنعم لنا يا رب . بصـــلوات العساكر الملائكية ، وسائر الطغمات السمائية ، أنعم لنا يا رب . بصلوات القديس يوحنا المعمدانى ، وساداتنا وآبائنا الرسل ، ومرقس الناطق بالإلهيات ، أنعم لنا يا رب . بصلوات القديس استفانوس أول الشهداء ، والقديس جاورجيوس الشهيد العظيم ، بصلوات القديس مرقوريوس ومارى مينا ، ومارى بقطر الشهداء ، أنعم لنا يارب . بصلوات أبينا الأنبا أنطونيوس ، وأبينا الأنبا مقاريوس وأولاده اللابسى الصليب ، أنعم لنا يا رب . بصلوات القديس باخوميوس ،

صاحب الشركة ، وتلميذه تاودروس ، والأنبا بولا السائح ، الرب ينعم . بصلوات صفوف الشهـــداء وسائر صفوف اللابسي الصليب ، أنعم لنـا يا رب بغفران خطايانا . فلنسبحك يا ربنا يسوع المسيح ، مع أبيك الصالح والروح القدس ؛ لأنك أتيت وخلصتنا » .

ثم يقول الأسقف أو الايغومانوس (القمص) صلاة البخور وهي هذه : « اللهم العظيم الأبدى الغير المبتدى ، الذى ليس له نهاية ، العظيم . . . . القوى فى أفعاله » وهى موجودة فى قداس القديس باسيليوس .

ثم يقول الأسقف صلاة أخرى وبعدها يقال يارب ارحم ، يا رب بارك آمين هللويا . المجد للآب وأبانا هللويا ، هللويا ، المجد لك يا إلهنـــا ، مراراً . ويرتل المزمور الخمسون « إرحمنى يا الله » ، والمزمور المائة والثامن عشر ، « طوباهم الذين بلا عيب فى السبيل » . وفى آخر هــــذا المزمور تقال أوشية المرضى ، وبعدها تسبحة الملائـكة أى « فلنسبح مع الملائـكة قائلين المجد لله فى الاعالى . . . . إلى أن يقال أخيراً « نسأل أذكرينا أيتها الشفيعة الأمينة أمام ربنا يسوع المسيح ليغفر لنا خطايانا » ثم تقـال هذه الصلاة :

« محب البشر الصالح ، سيدى يسوع ، أطلب اليك ، لاتطرحنى عن شمالك مع الجداء الخطاة . ولا تقـــل لى أيضاً إننى لست أعرفك ، إذهب عنى يا مستعد للنار الأبدية ، لأننى أعلم بالحقيقة إننى خاطىء . . إمنحنى يارب توبة كى أتوب قبـــل أن يغلق

الموت فاى فى أبواب الجحيم . . السلام لأبينا أنطونيوس رئيس الرهبان ، السـلام لأبينا أنبا بولا حبيب المسيح . أطلب من الرب عنا يا سيدى الاب الأنبا أنطونى وأولاده لباس الصليب ليغفر لنـا خطايانا » . ثم تقرأ بعض المزامير . ثم يقرأ جزء من رسالة بولس الرسول إلى أفسس باللحن الحزاينى ، ثم تقال الثلاثة تقديسات ، وصلاة الإنجيل ، ومقدمته المزمور المبتدىء « طوباهم الذين تركت لهم آثامهم » .

وبعد الإنجيل يقال طرح (صلاة خاصة) وبعدها صلاة أخرى على رأس الراهب ، ثم يأخذ الاسقف أو الايغومانوس مقصاً ويقص شعر رأسه به مثال الصليب ويرتل الحاضرون « إفرح وابتهج ، يا جنس البشر ، لانه هكذا أحب الله العالم ، حتى بذل ابنه الحبيب عن الذين يؤمنون به ، ليحيوا إلى الابد »

ثم يغطى رأس الراهب بالبلين (غطاء للرأس) ثم تقال هذه الصلاة على القلنسوة « السيد الرب الإله الضابط الكل ، أبا ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح ، نسأل ونطلب من صلاحك يا محب البشر ، ارشم عبدك بيمينك ، إحصه مع عسكرك السمائيين ، اضبطه ، باركه ، ثبته ، واحفظه من كل فعل شيطانى . . الخ » . ثم تصلى صـلوات شكر أخرى على القلنسوة ، ثم ترشم الثياب بالصليب قائلا « باسم الآب والابن والروح القدس ، الإله الواحد »

ثم يقف الراهب ليلبس التراج (قميص الرهبان) ويقال له

« إلبس عليك ثوب البر ودرع الخلاص ، واصنع ثمرة تليق بالتوبة .... » ثم يلبسه القلنسوة ويصلى صلاة أخرى ، ثم يشد حقويه بالمنطقة الجلد ، ويقول له « تمنطق على حقويك بجميع سلاح الله ، وقوته القوية ، بالمسيح يسوع ربنا » . ثم تختم بصلاة البركة من الاسقف أو الايغومانوس(١) .

(١) راجع كتاب ترتيب قسمة الاكليروس ص ١٥١ — ١٧٦

المراجع و المصادر

أولا : « المراجع الاوربيـــة »

1,2 Amélineau E. : a) Histoire Des Monasteres De La Basse Egypte. Annales Du Musée Guimet T XXV. Monuments Pour Servir A L'Histoire De L'Egypte Chrètienne. (Paris 1894) (A.M.G.) .

b) La Geographie De l'Egypte A L' Epoque Copte (Paris 1893) .

3 . Annan Isho of Beth Abhe : The Wit & Wisdom Of The Christian Fathers Of Egypt. The Syrian Version Of The Apophthegmata Patrum. Eng. Trans-by W. Budge (Oxford 1934).

4 . Besse J. M. Les Moines D'Orient Anterieurs Au Corcile De Chalcédoine. (Paris 1900).

5 . Bonnet. H. M. : Histoire Des Ordres Religieux. (Paris 1949).

6 . Butcher : The Story Of the Church Of Egypt. 2 Vols (London 1897).

7 . Butler C. : The Lausiac History Of Palladius, Texts & Studies 2 Vols. V. I Cambridge 1898. V II Camb. 1904.

8 . Cabrol F. & Lecqlerque : Dictionnaire D'Archeologie Chretienne et De Liturgie T II (Paris 1925) .

9 . Cambridge Medieval History, V I.

10,11 Cassien, Jean : a) Les Conferences.

b) Institutiones De Cenobites. (Trad. Par Dom. E. Pichery Tolose 1920).

12 . Cauwenberg P.V. : Etudes Sur Les Moines D'Egypte Depuis Le Concile De Chalcedoine (451) Jusqu'A L'Invasion Arabe. (Paris 1914).

13 . Champollion : L'Egypte Sous Les Pharaons T II (Paris 1814).

14 . Cheneau P. Paul. D'Orleans : Les Saints D'Egypte 2 Vols. (Jerusalem 19?3).

15 . Clugnet : Vie Et Recits De L'Abbe Daniel Le Scétiote.

16 . Conybeare F. : The Contemplative Life (Oxford 1895).

17 . Curzon R. : Visits To The Monasteries Of The Levant (London 1897.)

18 . D'Anville J.B.B. : Memoires Sur L'Egypt Ancienne Et Moderne. (Paris 1766).

19 . De Labriolle : Vie De Paul De Thebes Et De Hilarion (Paris 1924).

20 . De Lacy, O'Leary : The Saints Of Egypt. New York 1937.

21 . Dictionnaire De Théologie Catholique. V IX 2eme Partie.

22 . Duchesne : L' Histoire Ancienne De L'Eglise T II (Paris 1911).

23 . Encyclopedia Americana , (New York 1944).

24 . Encyclopedia Brittanica.

25 . Encyclopedia Of Religion & Ethics , (London 1930) (E. R. E.).

26 . Erman : Handbook Of Egyptian Religion, (Trans. A.S. Griffith London 1907).

27 . Eusebius : Ecclesiastical History 2 Vols. (Trans. by I. E. L. Oulton London 1953).

28 . Evetts & Butler : Churches & Monastries Of Egypt.

29 . Fliche & Martin : Histoire De L'Eglise Depuis les Origines Jusqu'A Nos Jours. (Paris 1936).

30 . Fowler M : Christian Egypt. (London 1901).

31 . Gibbon : Decline and Fall Of The Roman Empire, 4 Vols. (London 1893).

32 . Glover T. R.: The Conflict Of The Religions In The Early Roman Empire.

33 . Graf. G : Catalogue De Manuscrits Arabes Chrétiens Conservé Au Caire (Citta De Vaticano 1934).

34 . Graffin : Patrologia Orientalis T V.

35 . Hanotaux Histoire De La Nation Egyptienne T I,II (Paris 1931).

36 . Hardy E. R.: Christian Egypt, Church and People (New York 1952).

37 . Harnack : History Of Dogma.

38 . Hefele: Histoire Des Conciles T I (Paris 1907-1908).

39 . Julien : Voyage Au Désert De Scеté et Nitrie, T XiV.

40 . Kraux X : Histoire De L'Eglise, (Paris 1904).

41 . Ladeuze : Etude Sur Le Cenobitisme Pakhomien Pendant Le IV Siécle Et La Premiére Moitié Du Veme. Siécle (Louvain 1898) .

42 . Mackean W. H. : Christian Monasticism In Egypt To The Close Of The 4th Century. (New York 192[illegible]).

43 . Milne J. G. : History Of Egypt Under Roman Rule (London 1930).

44 . Palladius : The Paradise Of The Holy Fathers, 2 Vols. (Trans. Budge). (London 1907).

45 . Petrie : Egypt and Israel, (London 1923).

46 . Quatremére: Memoires Geographiques Et Historiques Sur L'Egypte. Recueillis Et Extraits De Manuscrits Coptes, Arabes etc. De La Bibliotheque Imperiale 2 Vols (Paris 1811).

47 . Revillout E. : Revue Egyptologie (1880).

48 . Rouillard : L'Administration Civile De L'Egypte Byzantine (Paris 1928).

49 . Savary : Lettres sur L'Egypte T I.

50 . Sicard : Lettres Et Curieuses T V.

51 . Smith: Studies In Early Mysticism In The Near And Middle East. (London 1892).

52 . Socrates : Ecclesiastical History From The Accession Of Constantine A. D. 305 to The 28th Year Of Theodosius II (Eng. Trans. London 1874).

53 . Steindorff G : Religion Of The Ancient Egyptians. (New York 1903).

54 . Tillemont : Memoires Pour Servir A L'Histoire Ecclesiastique 16 Vols. (Paris 1693-1712).

55 . Waddell Helen : The Desert Fathers, Tranalations Of (Vitae Patrum From The Latin) (London 1936).

56,57. White E. a) : The Monasteries Of The Wadi N Natroun V. I New Coptic texts From The Monastery of St. Macarius

b) Hist. Of The Monasteries of Nitria and Of Scetis V. II (New York 1932).

58 . Workman H.B. : The Evolution Of The Monastic Ideal. From The Earliest Times Down To the Coming Of The Friars. (London 1927).

59 . Worrell H. : A Short Account Of The Copts (Michigan 1945).

60 . Zoega:Catalogus Codicum Copticorm Manuscriptorm Qui In Museo Borgiano Velitris Adservantur (Rome 1810).

61 . Zotenberg H, : Memoire Sur La Chronique Byzantine De Jean, Eveque De Nikiou, Journal Asiatique, 7eme Serie, 10 (1877), 12 (1878), 13 (1879).



ثانياً - المراجع العربية

(١) أثناسيوس : « ٣٧٣ م » سيرة أنطونيوس ، ترجمة حافظ داود ، القاهرة ١٩٥٠ » .

(٢) أحمد أمين ، زكى نجيب محمود : قصة الفلسفة اليونانية ، القاهرة ١٩٣٥ »

(٣) أرمان ، أ . رانكه . ه » : مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة ، ترجمة ، أبو بكر محرم كمال » .

(٤) افرام الديرانى ، القس » : العيشة الهنية فى الحياة النسكية ، بيروت ١٨٩٩ » .

(٥) ايسيذوروس ، الأسقف » : الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة ، جزءان » — ، القاهرة ١٩٢٣ » .

(٦) بلاديوس : بستان الرهبان ، طبعة دار النسخ والتحرير القبطية الجزءان الأول والثانى ، القاهرة ١٩٥١ »

وكذلك النسخة الخطيـــة بالمتحف القبطى رقم ٦١٣ تاريخ والمنقولة عن مخطوطه بدير البراموس .

(٧) ابن الجيعان : « ٨٥٥ هـ = ١٤٥١ م » شرف الدين يحي على الدين شاكر بن المعز :
التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية ، القاهرة ١٣١٦ هـ : ١٨٩٨ م »

(٨) حبشى ، بانوب : شنوده ، مقـال فى صور من تاريخ

القبط ، رسالة جمعية مارى مينا ، الرسالة الرابعة « الاسكندرية سنة ١٩٥٠ »

(٩) حبشى ، القمص أرمانيوس : تاريخ الأديرة البحرية « مصر ١٩٣٠ » .

(١٠) ابن دقماق : ٧٠٩هـ ١٤٠٦ م ، ابراهيم بن محمد المصرى الانتصار لواسطة عقد الامصار « الجزء الخامس » — « القاهرة ١٣٠٩ هـ : ١٨٩٣م نشره Vollers .

(١١) الدويرى ، يسطس : موجز تاريخ المسيحية « القاهرة سنة ١٩٤٩)

(١٢) روفيله ، يعقوب نخله : تاريخ الأمة القبطية « مصر سنة ١٨٩٨ »

(١٣) الرسل الحواريون : كتاب الدسقولية « أو » تعاليم الرسل نشر حافظ داود « القاهرة ١٩٤٠ »

(١٤) سرابيون ، أسقف تمى الامديد (عاش فى القرن الرابع الميلادى ، وتوفى فى أوائل الخامس) : سيرة مكاريوس الكبير ومكسيموس ودوماديوس . مخطوط تاريخه ١٠٧٢ ش رقم ٥١ تاريخ بمكتبة بطريركية الأقباط الأرثوذكس ، كاتبها بشارة جرجس الملوانى .

(١٥) سعيد بن بطريق : البطريرك افتيشوس « ٤٥٨ ش : ١٠٦٦ م » : التـــاريخ المجموع على التحقيق والتصديق « بيروت سنة ١٩٠٥ »

(١٦) سميكه ، مرقس : دليل المتحف القبطى وأهم الكنائس والأديرة الأثرية (القاهرة ١٩٣٣) .

(١٧) الشيال ، جمال الدين : تاريخ الاسكندرية ، مقال فى المجلة التاريخية المصرية العدد الثانى « ١٩٤٩ » .

(١٨) أبو صالح الأرمنى : كنائس وأديرة مصر نشره Evetts « أكسفورد ١٨٩٣ »

(١٩) الطوخى ، جبرائيل روفائيل وعبـــد القادر القاهرانى : حامى الإيمان القويم (القاهرة ١٩٤٩) .

(٢٠) طوسون ، عمر : وادى النطرون رهبـــانه وأديرته « اسكندرية ١٩٣٥» .

(٢١) الطويل ، توفيق : قصة الاضطهاد الدينى فى المسيحيـة والإسلام « القاهرة ١٩٤٧ » .

(٢٢) عبد النور ، راغب : أوريجانوس ، مقال فى صور من تاريخ القبط ــ رسالة جمعية مارى مينا الرابعة « اسكندرية ١٩٥٠ »

(٢٣) ابن العسال : « القرن الثالث عشر » أبى الفضائل الأمجد : المجموع الصفوى أو كتاب القوانين «طبعة القاهرة ١٩٣٧ » : نشره القمص عبد المسيح صليب البرموس . وكذلك النسخة الخطيـــة بالمتحف القبطى وتاريخها ٥٥٧ ش رقم ١٣٨ قانون .

(٢٤ ــ ٢٥) عطيه ، عزيز سوريال : « ١ » نشأة الرهبـانية والديرية المسيحية فى مصر ــ مقـال فى رسالة جمعية مارى مينا الرسالة الثالثة « مايو ١٩٤٨ »

« ب » الكنيسة القبطيـة والروح القوى فى مصر فى العصر البيزنطى — مقال فى المجـــلة التاريخية المصرية المجلد الثالث — العدد الأول « ١٩٥٠ »

(٢٦) عمانوئيل البعيدانى « القس » تاريخ الرهبانية الأنطونية « بيروت ١٨٩٨ »

(٢٧) العمرى « ١٤٢ : ١٣٤١ م) شهاب الدين أحمـــد ابن فضل الله : مسالك الابصـار فى ممالك الامصار — الجزء الاول نشره أحمد زكى « القاهرة ١٩٢٤ »

(٢٨) العهدان الجديد والقديم .

(٢٩) فيشر هـ . ا . ل : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى — القسم الاول ، الترجمة العربية للدكتور محمد مصطفى زياده والدكتور الباز العرينى .

(٣٠) فيلوكسينوس المنبجى « القديس » — « ٥٢٣ م » أخبار الرهبـان المصريين — مخطوط بالمتحف القبطى رقم ٢٩٤ تاريخ وتاريخه ١٠١٤ ش .

(٣١) كرم ، يوسف : تاريخ الفلسفة اليونانيـــة « القاهرة سنة ١٩٤٦ »

(٣٢—٣٣) كيرلس الانطونى « القمص »
« أ » كوكب البرية القديس أنطونيوس « القاهرة ١٩٥٠ »
«ب» عصر المجامع « القاهرة ١٩٥٢ »

(٣٤) اللبنانى ، عبـد الله البستانى : البستان ، الجزء الثـانى « بيروت ١٩٣٠ »

(٣٥) لومند : خـــلاصة تاريخ الكنيسة الجزء الاول ، ترجمة الخورى يوسف البستانى « بيروت ١٨٨١ »

(٣٦) مبارك ، على : الخطط التوفيقية الجديدة — الجزء السابع عشر « القاهرة ١٣٠٥ — ١٣٠٦ »

(٣٧) المقريزى : « ٨٤٥ : ١٤٤١ م » تقى الدين أحمد بن على : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار — جزءان « بولاق سنة ١٢٠٧ هـ »

(٣٨) المسعودى ، القمص عبد المسيح : تحفة السائلين فى ذكر أديرة الرهبان المصريين « القاهرة ١٩٣٢ م »

(٣٩) ابن المقفع ، ساويرس « القرن العاشر الميلادى » : سير بطاركة الكرسى الاسكندرى « نشره Evetts مارس ١٩٠٤ » وكذلك النسخة الخطية بالمتحف القبطى رقم ١ تاريخ .

(٤٠) ابن مماتى : ٦٠٦ هـ : ١٢٠٩ م » شرف الدين أبو المكارم أبى سعيد : كتاب قوانين الدواوين — نشره عزيز سوريال عطيه « القاهرة ١٩٤٣ »

(٤١) مؤلف غير معروف : البستان الكامل — مخطوط بدير السوريان رقم ٢٣ تاريخ . وتاريخه « ٣٠٠ : ش »

(٤٢) مؤلف غير معروف : سيرة أنبا بولا وأنبا بقطر مخطوط بدير السوريان رقم ٦ تاريخ — وتاريخه « ١٤٧٨ ش »

(٤٣) مؤلف غير معروف « يغلب أن كاتبها أحد تلاميذ باخوميوس » :
سيرة باخوميوس ، طبعة القمص عبد المسيح المسعودى « القاهرة ١٨٩١ »

(٤٤) كتاب السبع صلوات أو « الاجبية »

(٤٥) كتاب يشتمل على الصلوات المقدسة لاجل رسامات الاكليروس محفوظ بالمتحف القبطى طبع روما « تاريخه ١٤٧٨ ش »

(٤٦) مؤلف غير معروف : ميمر « سيرة » أنبا مكاريوس الكبير وأنبا مكاريوس الاسكندرى كاتبها يوحنا بن يسطس الصعيدى — مخطوط بكنيسة أبى سرجه « تاريخه ١٤٠٦ ش »

(٤٧) نخبة من آباء الكنيسة « بطرس الجميل أسقف مليج وميخائيل أسقف أتريب وغيرهما » : الصادق الامين فى تاريخ القديسين — جزءان الجزء الاول — « القاهرة ١٦٢٩ ش » والثانى « القاهرة ١٩٥١ » ويسمى كذلك كتاب السنكسار .

(٤٨) نخله ، كامل صالح : تاريخ الامة القبطية « القاهرة سنة ١٩٤٩ »

(٤٩) ورل ، وليم : موجز تاريخ القبط — مستخرج من صفحة من تاريخ القبط .

(٥٠) يوحنا الصغير : ميمر « سيرة » أنبا بيشوى — مخطوط بكنيسة قصرية الريحان رقم ١٣ تاريخ . وتاريخها ١٤٥٢ ش « ١٧٣٦ م » .



فهرس

صفحة

الثمن ٣٥ مـ